رواية

فتاة المتاهة

غيوم ميسو

مكتبة

نوفل

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

فتاة المتاهة

صدرت في حزيران 2025 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2025

info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورة الغلاف: **Cristina Conti / Alamy Stock Photo ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **حنين جعفر**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-06-0380-6
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-06-0381-3

Original Title: *Quelqu'un d'autre*
Copyright © Calmann-Lévy, 2024

رواية

فتاة المتاهة

مكتبة سُر مَن قرأ

غيوم ميسو

نقلته من الفرنسيّة سمر معتوق

نوفل

«من يعِشْ حياةً واحدة فكأنّه لم يعش يومًا».

ميلان كونديرا

الجزء الأوّل

العابرة

1

ما نهرب منه

مكتبة
t.me/soramnqraa

«كلّ بدايةٍ نهايةٌ لما سبقها».

بول فاليري

الريفييرا الفرنسيّة – خليج كان

السماء هي أوّل ما يأسرك. سماءٌ متوسّطيّة ساحرة. مسطّحٌ بلونٍ أزرق غامق يصيبك بالدوار. كان الجوّ نقيًّا، لا رطوبة فيه، تجتازه هنا وهناك طيور النورس التي تحلّق فوق القارب. يختٌ بطول خمسةٍ وأربعين قدمًا يتأرجح وسط الهدير المتواصل للأمواج الفضّية.

كانت أوريانا دي بييترو قد وصلت قبل ثلاث ساعات على متن رحلةٍ جويّة من ميلانو. ما إن هبطت الطائرة في نيس حتّى تواصلت مع كابتن ميناء كانتو وطلبت منه الإبحار بقارب «لونا بلو». توجّهت مباشرةً من المطار إلى مدينة كان من دون أن تعرّج بالمنزل. كانت بحاجةٍ إلى الهدوء والعزلة لتتمكّن من تقييم عواقب القرار الذي ستتّخذه.

ألقت المرساة بين أكبر جزيرتين في ليرين، في النقطة التي يتحوّل فيها لون البحر إلى فيروزي. مقتنعةً بأنّ هذا الهروب سيهدّئها

ويمنحها رؤيةً أوضح للأمور، جلست على السطح المفتوح وعدّلت المقعد لتحويله إلى كرسيٍّ للتشمّس. ومن هذا الموضع المرتفع، احتضنت المشهد بأكمله: الأفق اللازوردي، وسلسلة جبال إستيريل، والطراز الرومانسكي للدير المحصّن لجزيرة سانت-أونورا.

ومع ذلك، شعرت بخطبٍ ما.

حاولت أوريانا الاسترخاء، لكن بدلًا من الهدوء الذي كانت تبحث عنه، شعرت بقلقٍ يستشري في داخلها. رفعت رأسها متّكئةً بأسفل ذراعيها على الوسائد وخلعت نظّارتها، فرأت أنّ لون البحر المتوسّط الأزرق قد اكفهرّ كما لو امتزج بالزئبق. أخذت الأمواج في الاتّساع وطاف في الجوّ المشحون نذير مأساةٍ وشيكة.

نهضت من مقعدها والتفّت بالـ«باريو». كانت تشعر بوجود أحدٍ من حولها. تهديدٌ غير مرئيٍّ جعلها تندم على عدم إحضار ربّانٍ أو حارسٍ شخصي معها.

نزلت إلى الجسر السفلي لتفقّد داخل المقصورة، ثمّ قامت بجولةٍ حول اليخت، ملقيةً نظرةً عبر النوافذ الممتدّة على طول هيكل القارب. لم تلمح أحدًا، لكنّها لم تطمئنّ.

من هنا؟ أدريان؟ الطفلان؟ تلك السافلة أديل كيلر؟

سرت قشعريرةٌ باردة في جسدها. توقّفت في الجزء الخلفي من القارب، وشرعت تحكّم عقلها، متسائلةً مرّةً أخرى: من الذي يثير خوفها هكذا فجأة؟ أجبرت نفسها على التنفّس بعمق لطرد الهلع الذي كان ينهش أحشاءها.

لكنّ الهواء خلا من الأكسجين. صار الجوّ دبقًا، وكلّ نفسٍ ثقيلًا وخانقًا، يغرز فيها ويلتصق بعظامها.

استدارت من جديد. كان أحدٌ يراقبها فعلًا. يتقدّم رويدًا رويدًا، على وشك أن يلامسها.

انحنت نحو الممرّ المفضي إلى منصّة الاستحمام، فلمحت زورقًا مطاطيًّا راسيًا على القارب بجوار المنصّة الهيدروليكيّة.

هذه المرّة، لم تستطع كبح صيحتها.

لم تكن مجنونة. ثمّة شخصٌ على متن القارب!

شعرت بنبضات قلبها تتسارع. قرّرت العودة إلى السطح، لكن، لسرعة اندفاعها، فاتتها درجةٌ من السلّم وسقطت على الجسر. نظرت إلى أعلى فرأت كتلةً سوداء تحجب عنها الشمس. هيئة بشريّة تنتصب فوقها، مرتديةً بدلة غوص سوداء من النيوبرين. كان الشخص ممسكًا بعصًا معدنيّة خفيفة الوزن، أشبه بتلك التي تُذكى بها النار. كان رأسه ملفوفًا بقناعٍ قماشي، لكّنها تمكّنت من رؤية جزءٍ كبيرٍ من وجهه.

ما إن تعرّفت أوريانا إلى ملامح مهاجمها حتّى استولى عليها الخوف وأدركت أن لا جدوى من المقاومة. أصابتها الضربة الأولى على رأسها ثمّ سقطت الثانية على رقبتها من دون منحها فرصةً للصراخ. فقدت وعيها وسالت بقعةٌ من الدم على جسر القارب.

في السماء، أطلقت طيور النورس ذات الريش البلّوري صيحاتٍ حادّة.

2

ما نعرفه

«الحقائق مجرّد أوهامٍ نسينا أنّها كذلك».

فريدريك نيتشه

وريثة إيطاليّة تتعرّض للاعتداء على متن يختها قبالة جزر ليرين

صحيفة «نيس-ماتين» – 2023/5/6

تعرّضت أوريانا دي بييترو، الصحافيّة والناشرة الإيطاليّة، وابنة رجل الأعمال كارلو دي بييترو، لاعتداءٍ عنيفٍ مساء الجمعة على متن يختها قبالة جزر ليرين.

لطالما كان وقوع عنفٍ في ملاذاتٍ ساحرة كهذه مدعاةً للإرتباك، وما المأساة التي وقعت يوم الجمعة إلّا مثالٌ جديد على ذلك. فموقع الجريمة يزخر بأجمل المناظر البانوراميّة على الريفييرا الفرنسيّة: مياه بلّوريّة تفصل جزيرة سانت-مارغريت عن جارتها، سانت-أونورا.

صحافيّة وناشرة إيطاليّة شهيرة

في تلك البقعة الجغرافيّة، جرفت المياه يخت «لونا بلو» الذي يبلغ طوله حوالي خمسة عشر مترًا ويخصّ عائلة دي بييترو. كانت طالبتان من المدرسة العليا للتجارة قد رصدتا، عند حوالي الساعة 8:30 مساءً أثناء عودتهما إلى الميناء، جسمًا ممدّدًا على الجسر الخلفي لليخت. اعتلت الشابّتان القارب فاكتشفتا امرأةً شبه ميتة وأبلغتا منظمّة «كروس مِد» الصحّيّة عبر اللاسلكي، وأرسلت الأخيرة المساعدة على الفور.

تمّ التعرّف إلى الضحيّة على أنّها أوريانا دي بييترو، 38 عامًا، الصحافيّة والناشرة الإيطاليّة الشهيرة، ابنة رجل الأعمال كارلو دي بييترو. تعرّضت السيّدة دي بييترو لإصاباتٍ عدّة في جسمها، ما يشير إلى اعتداءٍ وحشي بأداةٍ غير حادّة. نُقلت الضحيّة، التي كانت فاقدةً للوعي ومصابةً بجروحٍ خطِرة، إلى مركز مستشفى سيمون-فيل.

مشهد همجيٌّ بحت

فاني أنجيلي، إحدى الطالبتين اللتين عثرتا على الضحيّة وأبلغتا المعنيّين، تصف المشهد بالهمجيّ تمامًا، وتقول: «كانت آثار الدماء تغطّي كافّة أنحاء سطح القارب»، مضيفةً أنّها لمحت «جروحًا عميقة في جمجمة ووجه» الضحيّة.

فتح مكتب المدّعي العامّ في غراس تحقيقًا قضائيًّا بتهمة محاولة القتل. وكُلّفت فرقة مكافحة الجرائم في الشرطة القضائيّة في نيس بفتح تحقيقٍ بالحادثة.

وبعدما كانت الأحوال الجويّة أمس معتدلةً في بداية فترة ما بعد الظهر، ساءت مع نهاية النهار، فبقي المرسى خاليًا نسبيًّا في المساء. ومع ذلك، عُقدت جلسات استماع لأصحاب القوارب الذين

أرسوا مراكبهم في المنطقة مساء الجمعة، وأطلقت الشرطة نداءً للشهود داعيةً كلّ من لديه أيّ معلومة من شأنها أن توضّح ظروف الاعتداء إلى التقدّم للإعلان عنها.

وبحسب مصدرٍ مقرّبٍ من التحقيق، فإنّ الصحافيّة التي تألف المنطقة وتملك فيلا أنابيل في كاب دانتيب، كانت بمفردها على متن القارب وقت وقوع الحادث. وكان زوجها، عازف الجاز على البيانو أدريان ديلوناي، وطفلاهما البالغان من العمر 5 و7 سنوات يمكثون في كوت دازور منذ أيّامٍ عدّة. [...]

مكتبة
t.me/soramnqraa

*

استياء كبير في إيطاليا بعد الاعتداء العنيف على أوريانا دي بييترو

صحيفة «فار-ماتين» – 2023/5/7

الوريثة الإيطاليّة، التي تعرّضت قبل يومين لهجومٍ عنيف على متن يختها، «في حالةٍ حرجة» في وحدة العناية المركّزة في مستشفى سيمون-فيل.

وصرّح مصدرٌ مطّلعٌ على القضيّة قائلًا: «لا تزال في غيبوبةٍ وهي مُصابةٌ بضربةٍ في الرأس، وإصاباتٍ عدّة في الصدر والرقبة، وكسر على الأقلّ في أحد أطرافها».

*

قضيّة دي بييترو: فرضيّات كثيرة لكن لا شيء مؤكّد

صحيفة «نيس-ماتين» – 2023/5/7

[...] أهي عمليّة سطو خرجت عن السيطرة؟ أم مشادّة مع ضيف لم تُحدّد هويّته بعد؟ أم محاولة قتل؟ لا يزال الغموض يلفّ حادثة الاعتداء على أوريانا دي بييترو حتّى الآن.

وصباح السبت، حاول غوّاصون من اللواء البحري في نيس البحث عن أدلّة في مياه قناة فريول حيث رسا القارب. وأجرى الفريق التقني للتشخيص الجنائي في اليوم السابق، حتّى وقتٍ متأخّرٍ من الليل، تفتيشًا دقيقًا ليخت «لونا بلو» – وهو من نوع F45 فلاي بريدج بطول 15 مترًا.

وفيما لا يبدو أنّ جلسات الاستماع إلى الشهود المحتملين الذين صودف وجودهم في المرسى قدّمت أيّ تفاصيل أخرى، ذكر البعض رؤية زورق مطّاطي باللونين الأسود والأحمر عند مدخل البحر، قد يكون أتاح لشخصٍ أو أكثر الصعود على اليخت لمباغتة أوريانا دي بييترو، لكن لا تأكيد حتّى الآن لوجود الزورق أو هويّة مالكه. [...]

في إيطاليا، بدأت الشائعات تنتشر حول «اتّفاقٍ» محتملٍ نفّذه أحد المحترفين. «طوال حياتها المهنيّة، تصادمت تحقيقات أوريانا دي بييترو ومنشوراتها الصحافيّة ومصلحة بعض ذوي النفوذ الكبير»، يتذكّر أحد الخبراء في هذا القطاع، في إشارةٍ إلى «المافيا النابوليّة، وشبكات المخدّرات في أوروبا، ومنظّمة الألوية الحمراء الجديدة».

«كلّها تلفيقات»، وفق ما ورد في بيانٍ صحافي على لسان المتحدّث باسم مجموعة دي بييترو الذي دعا إلى «التمسّك بالحقائق» و«انتظار شهادة السيّدة دي بييترو حالما تصحو من الغيبوبة».

*

من هي أوريانا دي بييترو، الوريثة الإيطاليّة المتمرّدة التي تعرّضت للاعتداء في مدينة كان؟

وُلدت ابنة رجل الأعمال كارلو دي بييترو في ميلانو، حيث مسكنها الدائم، في 18 حزيران/يونيو 1984، قبل تسع سنوات من أخيها غير الشقيق ستيفانو. تخرّجت من مركز السينما التجريبيّة في روما، وعملت في بداية مسيرتها المهنيّة عارضة أزياء فيما تابعت دراستها. في عام 2005، اعتلت منصب صحافيّة مستقلّة في محطّة البثّ الإيذاعي والتلفزيوني الإيطاليّة «راي»، حيث قامت بتغطية الأخبار الثقافيّة الإقليميّة قبل أن تتحوّل إلى مراسلةٍ خاصّة في الخارج. عملت مراسلةً حربيّة في يوغوسلافيا السابقة والشيشان، ونشرت تقارير ضخمة في صحيفة «كوريري ديلا سيرا» عن تمرّد بوكو حرام، وحرب المخدّرات في المكسيك، فضلًا عن الوضع في دارفور. في عام 2010، عادت إلى الـ«راي» حيث عملت جنبًا إلى جنب مع مصوّر الحرب فولفيو كليمنتي. بعد ذلك، قامت أوريانا دي بييترو، وهي وجهٌ مألوفٌ للمشاهدين الإيطاليّين، بتغطية أحداث الربيع العربي للقناة العامّة قبل أن تتّجه إلى الشرق الأوسط للعمل في ليبيا وسوريا.

وهناك، في عام 2013، اختُطفت مع أربعة صحافيّين إيطاليّين آخرين على يد ميليشيا إسلاميّة مسلّحة. احتُجزت مجموعة المراسلين، المكوّنة من ثلاثة موظّفين في الـ«راي» واثنين من الصحفيّين المستقلّين، كرهائن لأسابيع عدّة في المنطقة نفسها. ثمّ نقلهم الخاطفون إلى سجون مختلفة، مهدّدين بمحاكمتهم بتهمة التجسّس، قبل إطلاق سراحهم، مقابل فدية بلا شكّ، رغم نفي الحكومة الإيطاليّة لذلك باستمرار. صحيحٌ أنّ أوريانا دي بييترو ادّعت دائمًا

أنّها لم تتعرّض لسوء المعاملة أثناء أسرها، إلّا أنّ هذه الحادثة تركت على ما يبدو أثرًا عميقًا فيها وعجّلت انسحابها من الصحافة النشطة.

في عام 2014، وبفضل ثروة عائلتها، أنشأت دار النشر الخاصّة بها، تحت اسم Anello di Gise (خاتم غيجس) لإصدار الروايات والوثائق.

*

قضيّة دي بييترو: التحقيق جارٍ

وكالة الصحافة الفرنسيّة – 2023/5/10

إن كانت فرضيّة حدوث عمليّة سطو صحيحة في الوقت الحالي، فقد عمد المدّعي العام في نيس، فيليب ليكلوز، إلى تصحيح بعض المعلومات الخاطئة المنشورة من قبل وسائل الإعلام: لم يلمح أيّ شاهد عيّان صعود متسلّل أو أكثر إلى القارب. كما أنّ وجود زورق مطّاطي باللونين الأحمر والأسود وقت وقوع الحادثة لا تثبته أيّ صورة أو شهادة موثوقة.

وبعيدًا عن الأسئلة المتعلّقة بالإجراءات – أهو مجرّد حادث أم اعتداء مخطّط له بدقّة؟ – لا يزال المحقّقون يتعثّرون في ما يتعلّق بدوافع هذا الاعتداء. فمن قد يكنّ ضغينةً لامرأةٍ رصينة ومحترمة كهذه؟ التحقيقات الجارية بين فرنسا وإيطاليا تصبّ تركيزها حاليًّا على استخدام هاتف أوريانا دي بييترو المحمول بالإضافة إلى علاقاتها العائليّة والمهنيّة.

*

كان: أوريانا دي بييترو ترقد بين الحياة والموت

صحيفة «نيس-ماتين» – 2023/5/12

[...] لا تزال أوريانا دي بييترو، وريثة الإمبراطوريّة الصناعيّة الإيطاليّة، في حالة صحّيّة غير مستقرّة على الرّغم من خضوعها لعمليّتين في مستشفى كان. ويُظهر جول بارتوليتي، رئيس قسم الجراحة، حذرًا شديدًا بشأن تطوّر حالتها نظرًا إلى خطورة إصاباتها.

*

إمبراطوريّة دي بييترو: تشريح إحدى أغنى العائلات الإيطاليّة

صحيفة «لوپينيون» – 2023/5/13

توفّي كارلو دي بييترو عام 2021 عن عمرٍ يناهز 73 عامًا، وكان أحد أغنى الرجال في إيطاليا، يترأس إمبراطوريّة ماليّة تبلغ قيمتها حوالي 10 مليارات يورو. تضمّنت ثروته شركة النظارات والعدسات الطبّيّة التي تحمل اسمه وممتلكاتٍ مختلفةً في مجال الخدمات المصرفيّة، والتأمين، والسلع الفاخرة. وهذا نجاحٌ باهرٌ، لا سيّما بالنسبة إلى شخصٍ كان في الخامسة والعشرين من عمره لا يزال مجرّد مندوب مبيعات.

عند وفاته، قُسّمت ثروة المليونير – وأصله من ميلانو – بالتساوي بين زوجته الثانية، لورا، وولديه، سائق السباق ستيفانو دي بييترو وأخته غير الشقيقة، الصحافيّة والمحرّرة أوريانا دي بييترو. وحصل بذلك كلٌّ من الورثة على 33 بالمئة من أسهم شركة GIGE، الشركة القابضة التي تجمع ثروة دي بييترو، فيما امتلك نسبة الواحد بالمئة الباقية الشاب أزيليو كابيتشي، اليد اليمنى لدي بييترو.

كذلك عُيّن كابيتشي رئيسًا للشركة، وهو دائمًا ما يقدّم نفسه على أنّه الضامن لوحدة ملكيّة العائلة.

*

قضيّة دي بييترو: علاقتها الزوجيّة في قلب التحقيق؟

صحيفة «نيس-ماتين» – 2023/5/13

يصف العديد من المراقبين قيام خلافات بين الزوجين باستمرار. «كانت علاقة أوريانا دي بييترو وزوجها حادّة عاطفيًا ومضطربة»، يخبر أحد معارف العائلة، واصفًا شخصين «كان كلٌّ منهما متملّكًا للآخر».

وكانت عاملة التنظيف في فيلا أنابيل في كاب دانتيب قد شهدت على العديد من الشجارات بينهما، منها أمام طفليهما؛ واعترفت قائلةً: «غالبًا ما كانت تتصاعد حدّة اللهجة بينهما. وكثيرًا ما كانت السيّدة دي بييترو تنفعل وتغضب، إذ كانت ذات طباع عصبيّة، لاتينيّة». وذكرت أنّها كانت أحيانًا تلقي بالأطباق في الهواء، إلّا أنّ «خلافاتهما لم تكن تدوم طويلًا وكانت تتّسم بالمبالغة في الانفعال أكثر من كونها سامّة».

أمّا منظّف حوض السباحة السابق لديهم فلم يظهر الرأفة نفسها تجاههما، إذ أبلغ عن كلامٍ قاسٍ وتهديدات لفظها أدريان ديلوناي الذي كان يعنّف زوجته جسديًا أيضًا. «رأيتُه ذات مرّة يمسك زوجته من ذراعيها وكتفيها ويهزّها بعنفٍ تاركًا عليها كدماتٍ عدّة».

وفي اتّصالٍ معه، رفض السيّد ديلوناي التعليق على هذه الادّعاءات.

*

أنباءٌ عن استفاقة أوريانا دي بييترو من الغيبوبة

صحيفة «نيس-ماتين» – 2023/5/14

بعد مرور عشرة أيّام على الاعتداء عليها، يسري القول إنّ الصحافيّة والوريثة الإيطاليّة أوريانا دي بييترو قد استفاقت من غيبوبتها. ومع ذلك، لا يزال الأطبّاء متحفّظين للغاية بشأن حالتها.

*

وفاة أوريانا دي بييترو متأثّرةً بجراحها

صحيفة «نيس-ماتين» – 2023/5/15

وقعت الوريثة الإيطاليّة يوم 5 أيّار/مايو ضحيّة اعتداءٍ عنيفٍ وغامضٍ على متن يختها قبالة جزر ليرين. وتُوفيّت يوم الاثنين 15 مايو حوالي الساعة 8 صباحًا في مستشفى سيمون-فيل في مدينة كان. كانت السيّدة دي بييترو، البالغة من العمر 38 عامًا، قد أصيبت بجروح متفرّقة، خاصّةً في الجمجمة، والرقبة، والوجه، خلال هذا الاعتداء. لا تزال هويّة المرتكب أو المرتكبين مجهولة.

*

احتمال تدخّل المحكمة المختصّة الإقليميّة في جريمة قتل أوريانا دي بييترو

بدأ صبر السلطات الإيطاليّة وعائلة دي بييترو ينفد لعدم إحراز أيّ تقدّم ملحوظ في قضيّة وفاة أوريانا دي بييترو. ومن المحتمل أن تتدخّل المحكمة المختصّة الإقليميّة في مرسيليا في الأيّام المقبلة، لتُدير التحقيقات بعد ذلك مجموعةٌ من قضاة التحقيق وتُنفّذ

بالتنسيق مع إدارة مرسيليا وفرقة مكافحة الجرائم في نيس، بالتعاون مع شرطة الولاية في ميلانو.

*

أوريانا دي بييترو أدلت بشهادتها للشرطة بإيجاز قبل وفاتها

خاص – صحيفة «لوپوان» – 2023/5/16

كان ضابط شرطة من فرقة مكافحة الجرائم قد استمع يوم الأحد باقتضاب إلى الوريثة الإيطاليّة التي تُوفيّت أمس نتيجة الاعتداء عليها. ولم تتسرّب أيّ معلومة حتّى الآن عن محتوى هذه الجلسة.

مزيدٌ من المعلومات قريبًا.

*

قضيّة دي بييترو: الكشف عن تحرّكات مشبوهة للأموال

صحيفة «فار-ماتين» – 2023/5/17

يتساءل المحقّقون عن التدفّقات الماليّة المشبوهة التي رُصدت في حساب أوريانا دي بييترو، ولا سيّما حوالة بمبلغ 300 ألف يورو إلى أحد البنوك في جنيف.

*

الاستماع إلى زوج أوريانا دي بييترو، أدريان ديلوناي، في جلسة استماع مفتوحة

صحيفة «نيس-ماتين» – 2023/5/18

لا يزال محقّقو فرقة مكافحة الجرائم في نيس يحاولون فهم دوافع المعتدين على الوريثة الإيطاليّة الثريّة التي تُوفيّت متأثّرةً بجراحها في مدينة كان.

*

قضيّة أوريانا دي بييترو: إطلاق سراح الزوج أدريان ديلوناي من دون توجيه الاتّهامات له

«خضع السيّد ديلوناي لجلسة استماع طويلة من قبل فرقة مكافحة الجرائم في نيس في قضيّة مقتل زوجته. واستمرّت الجلسة، التي بدأت في الساعة 10:15 صباحًا، حتّى الساعة 6:30 مساءً»، وفق ما أفاد فيليب ليكلوز، المدّعي العام في نيس. لم يُستبقَ أدريان ديلوناي رهن التحقيق في نهاية جلسة الاستماع، وغادر قاعة المحكمة حرًّا من دون توجيه أيّ تهمةٍ إليه.

*

قضيّة دي بييترو: استجواب مستشار مالي

صحيفة «ليزيكو» – 2023/5/19

اعتُقل جان كلود زيغلر، المستشار المالي لعائلة دي بييترو، وأُبقي رهن التحقيق بعد اعترافه بتحويل مبلغ 300 ألف يورو من حساب

الوريثة لمصلحته الخاصّة. وهي مخالفة قد لا تكون على صلة بالاعتداء على أوريانا دي بييترو.

*

أدريان ديلوناي ومعزوفاته الملوّنة بالكياروسكورو

مجلّة «جاز ماغ» – تمّ النشر في 12 تمّوز/يوليو 2022

تمّ التحديث في 21 أيّار/مايو 2023

أمسى أدريان ديلوناي في دائرة الضوء منذ الاعتداء على زوجته التي تُوفّيت الأسبوع الماضي. في ما يأتي، نعيد نشر المقال الذي خصّصناه له في عام 2022.

بورتريه – يعود عازف البيانو الفرنسي الأميركي، وأصله من كوت دازور، إلى جذوره في الريفييرا هذا المساء ليقدّم عرضًا في ساحة بينيد غولد ويشارك موسيقاه مع جمهور مهرجان «جاز آ خوان».

تشبه موسيقى أدريان ديلوناي لوحات رسّامه المفضّل بيار سولاج: قوّة مظلمة ومضيئة في آنٍ واحد. تناقضٌ يتجاوز موسيقاه ليجد طريقه إلى جسده: مظهر مراهق تارةً ورجولي تارةً أخرى، نظرةٌ يتعذّر فهمها قد تضيئها بلا سابق إنذار ابتسامةٌ لطيفة.

مرّ زهاء عشرين عامًا منذ أن سجّل عازف البيانو الفرنسي الأميركي ألبومه الأوّل. وقد تنازعت أكبر المهرجانات في العالم على هذا الموسيقي الموهوب القادر على حشد جمهورٍ كبير. فـ«عازف الجاز المفضّل لمن لا يحبّ الجاز»، كما يصفه البعض، يثير ردود الفعل القويّة. ويسرّ المعجبين (وهم بالأغلبيّة الساحقة معجبات) أن يقارنوا بينه وبين بيل إيفانس أو كيث جاريت، فيما ينتقده آخرون

ويعتبرونه مجرّد منتجٍ تسويقي، وعازف جاز للفتيات الشابّات اللواتي يُغشى عليهنّ أمام شخصيّته المفرطة الحساسيّة ويستخدمن موسيقاه لترافق الـ«ستوريز» التي ينشرنها على مواقع التواصل الاجتماعي.

أمّا الحقيقة فربّما تكمن في مكانٍ ما بين الاثنين. فأدريان ديلوناي ليس موسيقيًّا ثوريًّا، غير أنّه لا يسعنا سوى الاعتراف بأسلوبه الخاصّ وتفرّده المبنيّ على موهبةٍ موسيقيّة لا مثيل لها. يتمتّع عازف البيانو بالقدرة على تأليف ألحان وارتجال مقطوعاتٍ أنيقةٍ وآسرة. معزوفات حزينة ومؤلمة تزعزع كيانك وتنقلك إلى عالمٍ آخر، إلى تقلّبات طفولة اندثرت مبكرًا، إلى تحسّرٍ على حبٍّ تلاشى، إلى ذكريات أيّامٍ سعيدة لن تعود.

ومن أين تنبع هذه الحساسيّة التي تتناغم مع حساسيّة الأغلبيّة؟ أمِن رحلته المعذّبة؟ أم مِن انجرافات شبابه؟ أم مِن وطأة توبته؟

وُلد أدريان ديلوناي عام 1982 في فيلفرانش-سور-مير. كان والده، فرانسوا ديلوناي، عالم أحياءٍ بحريّة فرنسيًّا وغوّاصًا حرًّا، وقد احتفظ لفترة وجيزة في أوائل التسعينيّات بالرقم القياسي العالمي للغوص بلا حدود. قضى أدريان طفولةً ومراهقة هادئتين متنقّلًا بين فرنسا والولايات المتّحدة حيث عملت والدته أستاذةً في كليّة بيركلي في بوسطن. كانت هي من قدّمت لابنها الدروس الأولى في العزف على البيانو واكتشفت موهبته المبكرة في الموسيقى. وقد تلقّى أدريان تدريبًا كلاسيكيًّا قبل أن يتحوّل إلى موسيقى البوب والجاز في أواخر مراهقته.

ثمّ، في عام 1999، وقعت المأساة. أثناء خلاف بين الزوجين، أصاب فرانسوا ديلوناي زوجته بسلاحٍ ناريٍّ فأرداها قتيلة. متأثّرًا بهول الصدمة، هرب أدريان الشابّ إلى نيويورك وانغمس في عالمٍ

من التيه والإفراط على مدار حوالي أربع سنوات. كان عازف البيانو يكسب رزقه من لعب البوكر وتقديم العروض في نوادي الجاز. لكنّ تعاطيه للمخدّرات أنهكه وحال دون سطوع نجمه بالرغم من موهبته. وبعد جرعةٍ زائدةٍ جعلته يذوق طعم الموت، جاء خلاصه على يد عازف الساكسفون سيدار فورمان الذي اكتشفه في البار 55، وهو نادٍ ليليٌّ في شارع كريستوفر. عرض عليه عازف الجاز المتمرّس الانضمام إلى فرقته الرباعيّة شرط أن يخضع للعلاج. بدأ أدريان رحلة إعادة التأهيل في سويسرا ودخل مرحلةً من العلاج النفسي سمحت له بمواجهة شياطينه. في تلك الفترة أيضًا التقى بالمرأة التي أصبحت زوجته، أوريانا دي بييترو، ابنة أحد أغنى الرجال في إيطاليا.

متحرّرًا من إدمانه، ومتوهّجًا في علاقته، تمكّن ديلوناي أخيرًا من أن يفرد جناحيه. لاقى ألبومه الأوّل «Crown Shyness» – الذي يجمع بين المقطوعات الموسيقيّة من تأليفه وتلك من تأليف آخرين مثل فرقة يو تو وفرقة آر إي إم وموبي وغيرهم – لاقى استحسانًا من النقّاد ووصل إلى جمهورٍ واسعٍ جدًّا. ثمّ تبعه حوالي عشرين ألبومًا أخرى أطلقها بشكلٍ انفرادي، أو ضمن فرقة ثلاثيّة أو رباعيّة. واستخدمت شركتا هيرميس وأبل موسيقاه للترويج لمنتجاتهما، كما طُلبت منه ألحانٌ عديدة لاستخدامها في السينما، بما فيها «L'homme qui disparaît» (توماس لارمور، 2016) و«Night and the Maiden» (آلان كلاين، 2019)، ما زاد أيضًا من شهرته.

على مرّ السنين، أتقن ديلوناي الارتجال فتفرّد بأعماله لتصطبغ حفلاته الموسيقيّة اليوم بذروة الإثارة، جاذبةً حتّى أكثر الأشخاص تشكيكًا في براعته. ويعترف قائلًا: «ثمّة شيءٌ روحاني ومقدّس في هذه اللحظات التي تبدو فيها الموسيقى وكأنّها تولد من خلالي. إنّ الارتجال عمليّةٌ هشّة للغاية، وهي كيمياء لا يمكن تفسيرها تتطلّب

فقدان السيطرة الكاملة تقريبًا. على المسرح، أقوم فقط بتهيئة الظروف لكي تخترقني الموسيقى وتصل إلى الجمهور. أحيانًا يُحدث ذلك المعجزات. وأحيانًا أخرى لا».

تجرّأنا وسألناه إن كان يعتبر الموسيقى نتيجة تدخّلٍ إلهي. أخذ ديلوناي الوقت الكافي للتفكير، من دون التهرّب من السؤال، معلنًا بالأحرى عن «روحانيّةٍ علمانيّة»، الترياق الوحيد لعالمٍ معاصرٍ يجده «هزيلًا ومحبطًا». ويقول: «لم نعد نؤمن بشيء، ولم نعد نكترث لشيء. أصبحنا قطيعًا بغيضًا من كائناتٍ نرجسيّة صغيرة مجرجرة على متن سفينةٍ على حافّة الغرق. وقبل ثوانٍ قليلة من وقوع الكارثة، لا نجد أفضل من سحب هواتفنا الخلويّة لتخليد المشهد بالتقاط صورة سيلفي».

إذا تبيّنت هذه الرؤية النبويّة وتحقّقت، فلا بدّ من أن نعترف بأنّنا، في حفل أوركسترا سفينة التايتانيك التي نحن على متنها، سنودّ أن يكون أدريان ديلوناي جالسًا إلى البيانو.

إيسور ديلاسال

*

قضيّة دي بييترو: تعثّر التحقيق بعد عامٍ على المأساة

صحيفة «نيس-ماتين» – 2024/4/30

من قتل أوريانا دي بييترو؟

مع اقتراب الذكرى السنويّة الأولى لوفاة الوريثة الشهيرة، لا يزال الغموض يكتنف حادثة قتلها.

جريمةٌ شنعاء؟ تهديداتٌ من المافيا؟ انتقامٌ شخصي؟ فشل المحقّقون مرارًا في تبيان الدافع والظروف الدقيقة لوفاتها. منذ

البداية، حيّرت الإجراءات المحقّقين. «حاول البعض تضليل التحقيق المتعلّق بهذا الاعتداء بواسطة قضيب حديدي، لكنّ هذه الجريمة هي عبارةٌ عن صفقة»، هذا ما يراهن عليه مصدرٌ مقرّبٌ من التحقيق قبل أن يتابع: «في رأيي، أراد أحدهم استعادة غرضٍ ما من القارب. أموال، وثائق، بيانات معلوماتيّة...»، مجرّد فرضيّة لا شيء يدحضها أو يؤكّدها.

وفي قضيّةٍ مرتبطة بالتحقيق القائم، اتُّهم أحد مموّلي الأسرة بالاختلاس، من دون أن تبدو المسألة مرتبطةً بمقتل الوريثة.

ولكن، ما الإثباتات؟ يقول أحد المحقّقين: «السيناريو الأكثر ترجيحًا هو أنّ زورقًا اقترب من اليخت، وصعد رجلٌ على متنه وهاجم أوريانا دي بييترو بعصًا معدنيّة». عدا ذلك... لا شيء يُذكر.

ويدين آخرون الضغوط الخارجيّة التي يتعرّض لها التحقيق، والعراقيل التي يسبّبها انتشار الشائعات وتأثير ونفوذ عائلة دي بييترو. نفى ذلك فيليب ليكلوز، المدّعي العام في نيس، مؤكّدًا أنّه «لم يُستبعد أيّ احتمال خلال التحقيقات»، واعترف مع ذلك بأنّ التحقيق وصل إلى طريقٍ مسدود، مُصرّحًا بفتور: «قد نفتقر إلى الأدلّة في الوقت الحالي، لكن لا بدّ للحقيقة من أن تظهر في النهاية».

3

ما نعثر عليه

«الكبرياء تمهّد دائمًا للسقوط».

باتريشيا هايسميث

اليوم، 24 أيّار/مايو 2024

كاب دانتيب

كانت الساعة السادسة والنصف صباحًا عندما وقفت جوستين تاياندييه أمام بوّابة فيلا أنابيل، أحد أجمل المباني في كاب دانتيب.

وكانت أشعّة الشمس الأولى تُغرق البحر المتوسّط بضوءٍ كهرماني، وتدرّجات السماء المتغيّرة تنساب من الوردي إلى البرتقالي: لون الاعتقالات مع بزوغ الفجر على الريفييرا الفرنسيّة.

قرعت قائدة الشرطة الجرس كاشفةً عن شارتها أمام كاميرات المراقبة، لتُفتح البوّابة على حديقةٍ مشجرةٍ كبيرة. أومأت إلى مُرافقَيها ليتقدّما بالسيارة فيما واصلت سيرها على الأقدام. اتّبعت الممرّ المرصوف بالحصى والمتعرّج بين أشجار الصنوبر والزيتون والليمون والسرو. كان الهواء منعشًا، مثقلًا برائحةٍ حلوة من الحمضيّات. علا

صوت خرير ماءٍ من نافورةٍ مخبّأة في مكانٍ ما. المكان غارقٌ في سكونٍ مهيبٍ كانت الشرطيّة على وشك أن تفجّره.

مرّت جوستين أمام بيتٍ ملحق بالفيلا، مسكن سابق للحرس لكن شاغر حاليًّا، ودارت حول العشب الأخضر والمقصوص على غرار العشب في ملعب غولف، فلمحت في البعيد السلّم الحجري الذي يفضي نزولًا إلى الجسر العائم الخاص والهنغار الذي يؤوي القارب. هناك، عثر الفريق التقني في التشخيص الجنائي في اليوم السابق على العصا المعدنيّة المغطّاة بدماءٍ جافّةٍ وشعر.

* * *

بعد مرور عامٍ على مقتل أوريانا دي بييترو، أسفرت مكالمةٌ من مجهولٍ وردت إلى مركز شرطة نيس عن مذكّرة التفتيش هذه. فقد ادّعى المتّصل، وهو رجل – أو امرأة كانت تتلاعب بصوتها – أنّ أدريان ديلوناي قتل زوجته وخبّأ أداة القتل في مأوى القارب في منزلهما في كاب دانتيب.

تمكّن رجال الشرطة من تتبّع المكالمة وتحديد مصدر إشارة الهاتف في وسط مدينة أنتيب. كان عبارة عن هاتف «تينتين»، أي جهاز مزوّد بشريحة مسبقة الدفع وغير مرتبطة بأيّ شخصٍ فعلي. وكان قد ابتيع من بائع سجائر في حيّ مولان في نيس على مقربةٍ من المطار، حيث قدّم المشتري بطاقة هويّة وهميّة باسم سيرج كارامازوف. لهذا السبب، لم يؤخذ الاتّصال بدايةً على محمل الجدّ. ففي قضيّة دي بييترو، كان الملفّقون كثرًا. وأسهمت الشائعات والقيل والقال في فشل التحقيق. فهل كانت الشرطة بحاجةٍ إلى أن تلحق بنفسها المزيد من الإذلال؟

فرقة مكافحة الجرائم في نيس، والمحكمة المختصة الإقليمية في مرسيليا، والقاضيان جيرار وفرانكوفسكي: كلّ واحدٍ منهم قذف مسؤوليّة متابعة المكالمة المجهولة على الآخر، وكأنّ القضيّة صارت لعنةً يتهرّبون منها.

منذ البداية، الأمور متعثّرة في هذه القضيّة. وكانت جوستين في الصف الأمامي تشهد على الهزيمة. وفرقتها – بقيادة القائد بيار بويغرونييه آنذاك – هي التي كشفت على يخت دي بييترو مساء الاعتداء. وواقع أنّ مسرح الجريمة كان عبارةً عن قارب لم يسهّل الأمور أبدًا. تتذكّر جوستين ذلك اليوم جيّدًا. كانت مصابةً بعدوى في الجهاز الهضمي، وراحت تجرجر نفسها مع كلّ بؤسها – غثيان، وحمّى، وتشنّجات في المعدة – ثمّ جاء دوار البحر الذي عانته منذ الطفولة ليزيد الطين بلّة. تتذكّر اشمئزازها من آثار الدماء على سطح القارب الذي شهد على عنف الاعتداء. الإخفاق الأوّل جاء من تلويث مسرح الجريمة من قبل الطالبتين من المدرسة العليا للتجارة اللتين صعدتا على متن القارب وأبلغتا الشرطة. فقد جالت المغفّلتان على متن اليخت بانتظار حضور المساعدة، مخلّفتين آثارهما في أرجاء المكان، الأمر الذي عقّد عمل الطبّ الشرعي في تحديد هويّة المعتدي. وكان الفريق التقني في التشخيص الجنائي قد لاحظ بعض البصمات غير المدرجة في قاعدة البيانات، لكنّ قاربًا كهذا يشكّل نقطة عبورٍ وما من دليلٍ يشير إلى احتمال أن تكون البصمات للشخص المعتدي.

أمّا العقبة الثانية فبرزت في غياب الشهود. كانت منطقة جزر ليرين مشهورة، بيد أنّ عدد القوارب في هذا الوقت من النهار يكون قليلًا فيها. وكانت جوستين قد قاست عشرات الساعات من الاستجواب في الموانئ المحيطة، من دون التوصّل إلى معلوماتٍ

تُذكر. ثمّ مارست العائلة الإيطاليّة ضغوطًا وفاقت القضيّة قدرات فرقة مكافحة الجرائم في نيس. دخل رجال المحكمة المختصة الإقليمية في مرسيليا على الخطّ، وعُيّن محقّقون إيطاليّون من قبل الشركة المتعدّدة الجنسيات، فأفلت التحقيق من يد فرقتها وتبعثر في كلّ الاتّجاهات.

كان طبيعيًّا بعض الشيء أن يتطلّب ملفٌّ كهذا شهورًا من التحقيق، لكنّ النادر هو عدم التوصّل إلى أيّ حقائق مهمّة بعد كلّ هذه المدّة. نظريًّا، قضيّةٌ كهذه تحتمل أن تكون أشبه بأخطبوطٍ له ألف ذراعٍ متشعّبة، تغذّي كلّ أنواع الخيالات، لكن عمليًّا، لم يتمكّن رجال الشرطة من جمع أيّ دليلٍ يضفي المصداقيّة على مسارٍ دون غيره. لم يعثروا على شيء. إطلاقًا.

ولم يرغب أحد في أن يكون كبش فداء هذا الفشل الذريع.

نتيجةً لذلك، شعر قاضيا التحقيق بالذعر وتقاذفا الكرة عند أدنى قرارٍ وجب اتّخاذه. رُقّي بويغرونييه إلى رتبة رئيس فرقة مكافحة الجرائم في نيس لتحلّ جوستين محلّه على رأس مجموعة التحقيق، لكنّ هذه الترقية كانت أشبه بنقمةٍ أكثر منها نعمة. فقد تحوّلت قضيّة دي بييترو إلى لعبةٍ قذرة. كان لدى جوستين في بعض الأحيان انطباعٌ بأن لا أحد ممّن في المناصب العليا يبالي حقًّا بمن سحق رأس الوريثة. كان الرهان الوحيد إنقاذ النفس، وعدم الاحتفاظ بالورقة الخاسرة مع نهاية اللعبة. إلى أن يحين ذلك، انتظر كلّ واحدٍ ابتلاع الآخر للطعم. كلٌّ يراقب ويترقّب هفوة الآخر.

في خضمّ هذه الأجواء، ورد ذلك الاتّصال من مجهولٍ إلى مركز الشرطة كاشفًا عن مكان إخفاء سلاح الجريمة: عُثر على العصا المعدنيّة في مأوى القارب، بالقرب من طاولة العمل، خلف لوحٍ خشبيٍّ مثقوب عُلّقَت عليه أدوات نجارة. لم يعترض أحد على عمليّة

التفتيش. عادت نتائج تحليل الحمض النووي خلال الليل، مثبتةً أنّ آثار الدماء الجافّة والشعر الملتصق بالفولاذ تعود لأوريانا دي بييترو.

خبرٌ أروع من أن يُصدَّق؟ ربّما لا. فحالات القتل تلوّث البيئة المحيطة بها بصمت. تأخذ وقتها لتنتقع، ثمّ تنبت لحين انبجاس الحقيقة من دون سابق إنذار، تمامًا مثل القيح المتدفّق من الخُراج لتنقية الجسم.

على أيّ حال، هذه المرّة الأولى التي يدين فيها دليلٌ قاطعٌ أحدًا مباشرةً في هذه القضيّة. أخيرًا، أتيحت لجوستين الفرصة لمواجهة مشتبهٍ فيه، حتّى لو كانت لهذا الأخير مواصفاتٌ خاصّة.

* * *

بلغت الشرطيّة نهاية الممرّ. كان المنزل يقع على تلّةٍ مُرتفعة تطلّ على البحر وقمم جبال الألب. مبنًى ضخمٌ من ثلاث طبقات على طراز الفنّ الزخرفي، المعروف بالآرت ديكو. قصرٌ أبيض بخطوطٍ هندسيّة من الخرسانة المسلّحة والحجر المنحوت. وقد أُلحق بالمبنى برجٌ طويلٌ مثمّن الشكل، تخترقه مشربيّات مقوّسة وتحيط به أشجار النخيل، أضفى لمسةً مُتميّزة ومُختلفة على مجمل الديكور التقليدي.

ركن مرافقاها، بيرغومي والعمراني، سيّارة الشرطة، وراحا يدخّنان سيجارتهما الصباحيّة الأولى بالقرب من بركةٍ مزيّنة بتمثالٍ ضخم.

«هيّا بنا يا شباب».

صعد الشرطيّون الثلاثة الدرج ليجدوا أنّ الباب الأمامي قد تُرك مفتوحًا جزئيًّا. دفعت جوستين المصراع. علت نوتات موسيقيّة من الردهة، لحنٌ مسكرٌ وتأمّلي يتمدّد في موجات. من الداخل، يشبه المسكن بعض المنازل اليونانيّة ذات الديكور الراقي: جدرانٌ بيضاء،

وأرضيّاتٌ حجريّة، وأثاثٌ من الخشب الطبيعي بتصميمٍ بسيطٍ خالٍ من الزخارف. ومن كلّ ناحيةٍ، نوافذ تفتح على زرقة السماء والبحر. دخلت جوستين إلى الصالون. كان أدريان ديلوناي جالسًا أمام البيانو، عيناه نصف مغمضتين، رأسه منحنٍ نحو لوحة المفاتيح، مستغرقًا تمامًا في موسيقاه.

بدا كمراهقٍ من التسعينيّات – بنطال جينز ممزّق، وتي-شيرت فرقة الروك الأميركيّة فو فايترز، مع وشم أوروبـوروس[1] على أعلى ذراعه. كانت جوستين قد قرأت كلّ ما عثرت عليه عنه. شاهدت تقارير، وأفلامًا عن حفلاته، فزعزعها سحره الغامض من دون أن تتمكّن من تكوين فكرةٍ واضحةٍ عنه. تمعّنت في وجهه: شعرٌ أشقر قصير، ملامح عاديّة، هيئةٌ مضطربة، عينان زرقاوان داكنتان تطوّقهما هالاتٌ سوداء. خمّنت جوستين أنّه ربّما لم ينم كثيرًا. كان أدريان ديلوناي يعلم جيّدًا أنّه سيُلقى القبض عليه. وكان بانتظارهم. طلبت جوستين في اليوم السابق مراقبة المنزل بانتظار نتائج الحمض النووي للتأكّد من أنّ عازف البيانو لن يحاول الفرار. ولم يفعل. اكتفى بتنظيم عمليّة نقل طفليه الصغيرين إلى ميلانو.

أرملٌ حزينٌ أم قاتلٌ محتمل؟ بعد وفاة زوجته، لم يتحدّث ديلوناي يومًا بشكلٍ علني ولم يقبل إجراء أيّ مقابلة. لم يعتلِ المسرح وأوقف كلّ نشاطاته. يعيش في أنتيب منذ عام، وقد ألحق طفليه بمدرسةٍ في المنطقة، في مركز فالبون الدولي، يرافقهما إليها كلّ صباح. وكانوا يُشاهَدون أحيانًا في عطلات نهاية الأسبوع على الطريق الساحلي، أو على شاطئ غاروب، أو على تيراس ميزون دو بايكن. ربّ أسرةٍ مثالي.

[1] رمز قديم يصوّر الثعبان أو التنّين وهو يأكل ذيله.

غير مبالٍ، متّكئًا على لوحة المفاتيح، متحصّنًا في قلعته الداخليّة، واصل عازف البيانو معزوفته كما لو كان وحده في الغرفة. بدا كأنّه يوازن نفسه على سلكٍ غير مرئيّ. شعرت جوستين بقشعريرةٍ تسري في عمودها الفقري. كان للّحن تأثير عناقٍ حميم. نظرت إلى يديه: كانت اليمنى تعزف نغمات ترنّ مثل الجرس فيما اليسرى تتابع لحنًا حالمًا منعزلًا ومظلمًا. كيف يمكن لاهتزازٍ بسيطٍ في حبلٍ فولاذي أن يُطلق مثل هذه المشاعر؟ رغبت في الجلوس والاستماع إليه وهو يعزف لساعات. الانغماس في هذا النهر والاستسلام لمجراه. الغرق في أمواج هذه المقطوعة الفاتنة.

لكنّ هذا ليس ما أتت من أجله.

وهي تدنو من البيانو، تذكّرت مقالةً صحافيّة تروي أنّ ديلوناي كان لاعب بوكر بارعًا في شبابه. وهو أمرٌ جيّد. لقد جاءت لتنضمّ إلى طاولة اللعب الخاصّة به. وبينما كان لا يزال يتظاهر بتجاهلها، أغلقت غطاء البيانو ليحرّر ديلوناي أصابعه في اللحظة الأخيرة ويرفع نظره إليها للمرّة الأولى.

«القائدة جوستين تاياندييه من فرقة مكافحة الجرائم في نيس»، قالت وهي تخرج زوجًا من الأصفاد من الجعبة المعلّقة على حزامها. «أدريان ديلوناي، اعتبارًا من هذا الصباح، الساعة 6:48، أنت رهن الاحتجاز بتهمة قتل زوجتك، أوريانا دي بييترو».

الجزء الثاني

الملاك الساقط من عليائه

4

جوستين تاياندييه
ما نبحث عنه

«لولا وجود خصم، لكانت لعبة كرة القدم أقلّ تعقيدًا».

جان بول سارتر

اليوم نفسه
نيس، شارع جيوفريدو

1.

رسمت أشعّة الشمس المتسلّلة من بين أوراق شجر الزعرور الجرماني زخارف عربيّةً على طاولات المطعم. كانت جوستين تاياندييه جالسةً على الشرفة، وجهًا لوجهٍ مع رجلٍ ذي شعر رمادي مبعثرٍ ومجعّد: جيوسي بيرغومي، أربعون عامًا في الخدمة، من القدامى في فرقتها.

– أعوّل عليك لمواصلة التحقيق بينما أقوم باستجواب ديلوناي.

– ما أولويّاتك؟ سأل الفرنسي القادم من نيس بين قضمتين من طبق خرشوف الباريغول.

– ما زالت نفسها: أوّلًا وقبل كلّ شيء، العثور على من زوّدنا بالمعلومة عن سلاح الجريمة.

قطّب بيرغومي حاجبيه.

– نقّبتُ بقدر ما استطعت. لن نتمكّن من معرفة المزيد.

– هذا أمرٌ بالغ الأهمّية: من المؤكّد أنّ من وشى بِديلوناي لديه معلومات أخرى. ارجع إلى حيّ مولان لاستجواب موظّف محلّ التبغ والصحف حيث ابتيع الخطّ الذي وصلنا الاتّصال منه.

– إنّها مضيعة للوقت، أجاب بصوته الأخنف.

– مع التغطية الإعلاميّة الكبيرة للقضيّة، لا بدّ للألسنة من أن تنطلق.

– ليس في مولين. جزم بيرغومي بنبرةٍ قاطعة.

كانت المنطقة تؤوي «الغسّالة»، إحدى أهمّ نقاط تجارة المخدّرات في المنطقة. وكانت الشرطة قد عمدت إلى تفكيكها بانتظام، لكنّها كانت تعود إلى الحياة تقريبًا في اللحظة نفسها بعد كلّ عمليّة دهم. وكان قانون الصمت، الأوميرتا، يسود هناك أكثر من أيّ مكانٍ آخر بين العصابات.

أنهت جوستين طبق باستا السترانغوزي مع الصلصة الحمراء. كان ضغطٌ حقيقي يثقل كاهلها قبل دقائق قليلة من الاستجواب الأوّل لعازف البيانو، لكن بإمكانها استخدامه لمصلحتها. فمنذ أن كشفت صحيفة نيس-ماتين عن اعتقال أدريان ديلوناي قبل ساعاتٍ قليلة، تناقلت وسائل الإعلام جميعها هذه المعلومات بشراهة، وبدأ سربٌ من الصحافيّين والمصوّرين ينقل الصورة من أمام مقرّ الشرطة. فالتطوّر في القضيّة جاء في التوقيت المناسب للقنوات الإخباريّة التي، بانقيادها الدائم لشبكات التواصل الاجتماعي، عصرت المتفرّقات والاشتباكات السياسيّة حتّى آخر قطرة. وصار

نظام المعلومات والترفيه بحاجةٍ ماسّة إلى ضخّ دمٍ جديد في انتظار دورة الألعاب الأولمبيّة في باريس هذا الصيف. وجاء اعتقال زوج الضحيّة ليمنح هذا النظام مسلسلًا تلفزيونيًّا جديدًا تتنافس المنصّات على عرضه، إذ، من هذا المنظور، تنطوي قضيّة دي بييترو على إمكانيّات استثنائيّة.

وفيما شغل التحقيق منذ البداية وسائل الإعلام الإيطاليّة، لم يحظَ حتّى اللحظة سوى بتغطيةٍ نسبيّةٍ في فرنسا حيث لم تكن أوريانا دي بييترو شخصيّةً معروفة، كما أنّ صلة الخبر بزوجها لم تكن مباشرة إذ لا تحمل أوريانا اسم عائلته، وديلوناي «شخصيّةٌ شهيرة لكن مجهولة». فصحيحٌ أنّ معزوفاته على البيانو هي الأكثر تحميلًا على منصّة ديزر بعد معزوفات لودوفيكو إينودي، إلّا أنّ الناس يعرفون موسيقاه فقط ويجهلون تقريبًا كلّ شيءٍ عنه. وإذا بحثوا عنه على الإنترنت لا يجدون سوى عددٍ قليلٍ من الصور التي تجمعه مع زوجته، ولا يجدون أيّ صورةٍ له مع طفليه. ديلوناي شخصٌ كتوم، مثقّفٌ وغارق في موسيقاه، لا يستهويه الامتثال لمظاهر الاستعراض المعاصرة. لكنّ وفاة زوجته نقلت اسمه في الصحف رغمًا عنه من الصفحة الثقافيّة إلى صفحة المتفرّقات، ولا بدّ لدوره الجديد كمشتبه فيه أوّل من أن يجتذب إليه المزيد من الأنظار. خاصّةً أنّ وسائل الإعلام الفرنسيّة تنوي أن تعوّض الآن عن تأخّرها في الالتفات إلى القضيّة.

تابعَت القائدة كلامها بإصرار:

– الإعلان عن اعتقال الزوج سيحرّك الأمور. لذا، أودّ منك العودة إلى كاب دانتيب لإجراء محادثات جديدة مع جيران ديلوناي.

– لكن لدينا ما يكفي من الأدلّة لمحاصرته، أليس كذلك؟

– لا يمكننا الاكتفاء بما لدينا. لا فكرة لديّ عمّا يجب توقّعه من هذا الرجل. أخشى أن يفلت منّا كالشعرة من العجين، أو أن لا نتمكّن من السيطرة عليه. سأرسل أقواله إلى هاتفك تباعًا خلال الاستجواب لترى إن كنت تحتاج إلى التحقّق من أيّ نقاط.

رفع بيرغومي يده نحو النادلة لطلب قهوة إسبريسو.

– والإيطاليّون، ماذا نفعل معهم؟

كان الشرطي يقصد المحقّقين في ميلانو الذين استأجرتهم عائلة دي بييترو لإجراء تحرّياتهم الخاصّة حول مقتل أوريانا. كانوا قد سحبوا قارب لونا بلو إلى رابالو بالقرب من جنوة. وبحسب الأخبار التي وصلت إلى جوستين، فقد أعاد الإيطاليّون إجراء التحقيق منذ البداية، واستخرجوا عيّنات جديدة من القارب – وهو أمرٌ غير منطقي أبدًا بالنسبة إليها. فقد سخّروا موارد ماليّة كبيرة لهذه الإجراءات، لكن ليتوصّلوا إلى ماذا؟ ليس لديها أدنى فكرة. كان الإيطاليّون يتحرّكون في الخفاء، ويأتون أحيانًا بحثًا عن الأخبار بشكلٍ غير رسمي، ولا سيّما من بيرغومي، فيطلبون منه المعلومات من دون تقديم شيءٍ في المقابل.

– فلننتظر بضع ساعاتٍ لنرى هل سيعاودون الاتّصال بنا، لكنّني متأكّدة من أنّهم سيحاولون معرفة ما سيعترف به ديلوناي.

– Va bene[1]، ردّ بيرغومي قبل أن يحتسي قهوته جرعةً واحدة.

ثمّ وقف، وتمدّد، وفرك جفنيه المتدليّين، وتابع بقلقٍ وهو ينظر إلى ساعته:

– ألا يجدر بكِ أن تكوني هناك الآن؟

هزّت جوستين كتفيها.

[1] «حسنًا» بالإيطاليّة.

– تعرف كيف تجري الأمور، في الاحتجاز... دائمًا ما يستغرق الأمر دهرًا للوصول إلى جوهر الموضوع.

ألقى الشرطي سترته على كتفه ولوّح بهاتفه.

– حسنًا، سأنصرف إلى كاب دانتيب إذن. نبقى على تواصل.

2.

أومأت له جوستين بيدها وهي تشاهده يبتعد. لفترةٍ طويلة، اعتبرت بيرغومي فاشلًا، لا بل عدوًّا. انضمّ إلى الشرطة القضائيّة في نيس في نهاية عام 1976 – العام الذي شهد أكبر عمليّة سطو في القرن كان ألبرت سباجياري العقل المدبّر لها – وكان من المفترض أن يتقاعد منذ وقتٍ طويل. كان ابن مدينة نيس أشبه بديناصورٍ لا يفقه شيئًا عن الاتّصالات الهاتفيّة أو تقنيّات التحقيق العلميّة. هذا المسنّ المتحفّظ تجاه التقنيّات الحديثة والمتحيّز ضدّ النساء بقي لفترةٍ طويلة عبئًا تتبادله فرق التحقيق في ما بينها بانتظار أن يغادر الشرطة القضائيّة. ومع ذلك، قبل عامين، عندما أطبقت السماء على جوستين، كان بيرغومي الوحيد بين زملائها الذي دعمها وتعاطف معها. فأصبح منذ ذلك الحين يدها اليمنى.

أوقفت جوستين النادلة لتطلب فاتورتها، لكن سرعان ما استولت عليها في اللحظة الأخيرة رغبةٌ لا تقاوم في تناول الحلويات، فطلبت حلوى اليوم – بانا كوتا بالتوت.

كانت تحتاج إلى جرعتها اليوميّة من السكّر قبل أن تدخل المعترك. في الأشهر الأخيرة، وبسبب الأدوية التي كانت تتناولها، كان يحدث لها أن تغطّ فجأةً في نوعٍ من خمولٍ عميق. ثمّ جاءت بهجاتٌ أخرى لتكمل الصورة: الهبّات الساخنة، والتعرّق، وتسارع

ضربات القلب، وتقلّب المزاج، والنوم المتقطّع. والأعظم من كلّ ذلك الثمانية كيلوغرامات الإضافية التي ظهرت على الميزان.

اللوم كلّ اللوم على طلاقٍ أتاها على حين غفلة.

وقعت المأساة في ربيع عام 2022، عندما رُفعت أخيرًا القيود الصحّية المرتبطة بجائحة كوفيد-19. فبينما كانت تخطّط للذهاب في إجازة لبضعة أيّام مع زوجها رومان، البالغ من العمر اثنين وخمسين عامًا، والمدير العام للخدمات في مدينة كان، أخبرها أنّه يحبّ امرأةً أخرى، وأنّه سيصبح أبًا للمرّة الأولى في حياته.

صفعةٌ على وجهها. لم تجد صورةً أكثر دلالةً لوصف الصدمة التي شعرت بها آنذاك. كانت هي ورومان متزوّجين منذ اثنين وعشرين عامًا. أعلمها منذ الأشهر الأولى بعدم رغبته في إنجاب الأطفال. في ذلك الوقت، لم تكن هي أيضًا في عجلة من أمرها لتصبح أمًّا، وعلى مرّ السنين، حذت باختيارها حذو زوجها. عاش كلاهما حياةً مهنيّة مزدحمة، وكانا يحبّان السفر، والمشي لمسافات طويلة، والغوص. ووقع الواقع المرير: مرّ الوقت من دون أن تعرف كيف. وفي صباح أحد الأيّام، هجرها زوجها برفقة طبيبة أطفال جرّاحة تبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا. انقلب عالمها رأسًا على عقب. وغمر قلبها منذ ذلك الحين غضبٌ جنوني.

في الآونة الأخيرة، كان يمكن لجوستين أن تنفجر بالبكاء بمجرّد أن تلمح طفلًا في الشارع. كانت في عامها الخامس والأربعين، وبدا واضحًا أنّ أبواب الأمومة ستظلّ مغلقةً في وجهها إلى الأبد.

لا يمرّ يومٌ من دون أن تشعر بالندم المرير على عدم منح نفسها الفرصة لتكون أمًّا. تلك الفكرة تلتهم دماغها. ولا سيّما أنّها لا تفهم لمَ كبحت تلك الرغبة. وسبب هذا السلوك تجاوز خيانة رومان وحدها. كان شيئًا أعمق، ممتدًّا عبر الأجيال. اعتقادٌ غُرس

في عقلها في وقتٍ مبكرٍ جدًّا ومنعها من خوض الأمومة. قناعةٌ بأنّ قدوم طفلٍ على حياتها فيه استلابٌ لحريّتها، واستقلاليّتها، وعرقلةٌ لمسيرتها المهنيّة.

على مرّ السنين، لم تشكّك يومًا في تلك الفكرة. اعتقدت دومًا أنّ أمامها متّسعًا من الوقت، وأنّها شابّةٌ وستبقى كذلك لفترة طويلة. أينما ذهبَت، اعتبرها الناس دائمًا الفتاة الأجمل في المجموعة. حتّى أمس، كانوا ينادونها بالمادوموازيل على تِراس المقاهي. اليوم، جاءت الصحوة قاسية. شعرت بأنّها لم تعد سوى كائنٍ سمينٍ لاهث. حصانٌ منهكٌ منساقٌ إلى الذبح. وتجسّدت الصورة واضحةً أمام عينيها: لن يكون لديها ما تنقله لأحد؛ ولن تترك وراءها سوى المرارة والامتعاض.

وعندما حاولَت أن تتحرّر من آلامها، وجدت نفسها في الحضيض، مُثقلةً بالأدوية التي تصيبها بالبلادة. وأحاطها الفراغ من كلّ صوب. هجرها الأصدقاء، والزملاء، والعائلة. حتى إنّها نجحت في مخاصمة والدتها بعد مشاجرةٍ عنيفةٍ وقعت بينهما قبل شهر («قلت لكِ أن تنجبي طفلًا حين كان بإمكانكِ ذلك، لكنّكِ لا تصغين لأحد!»). والأسوأ من ذلك: كانت جوستين تمضي أيّامها على تطبيق إنستغرام تتفرّج على صفحتَي زوجها السابق وزوجته الجديدة وهما يستعرضان بهجتهما في كلِّ منشورٍ من منشورات عطلتهما. وكان آخر ظهورٍ لهما مع طفلهما على متن مركبٍ شراعي قبالة ساحل بورتو فيكيو. فاحت من صورهما رائحة زيت المونوي، والرمال الساخنة، والرياح المالحة. عذابٌ حقيقي. لم تطق رؤية رومان مبتهجًا، إنسانًا جديدًا بشعرٍ طويل يرتدي قمصان مراهقين. والأفظع منه جمال الطبيبة الجرّاحة ونضارتها. سُمرتها، وشقارها، وابتسامتها المشرقة. أرادت جوستين قتلهما معًا. فعلًا. شعرت بأنّها قادرةٌ على غرز وتدٍ في جمجمتهما.

أو إزميل في صدرهما. أو اقتلاع قلبيهما بيديها العاريتين. ومن ثمّ أكلهما. وقتل نفسها بعد ذلك.

«فقدتِ صوابكِ، أيّتها العجوز...»، قالَت في نفسها.

أغلقت التطبيق ووضعت هاتفها على الطاولة. عليها أن تكفّ عن نكء الجرح مرارًا وتكرارًا. عليها أن تعمد إلى قلب الصفحة.

«لكن ماذا لو كان وزن الصفحة المراد قلبها مئة كيلو؟».

تـردّدت أصـداء هـذا الاقـتـبـاس مـن فيلم «The Woman Next Door» في رأسها بشكلٍ مؤلم. ربّما لم تكن واعيةً بما يكفي لاستجواب المشتبه فيه. وهـذا، بالمناسبة، ما يعتقده الجميع: بويغرونييه، العمراني، والقاضيان. كانوا يرمونها في النار آملين أن تتلقّى الرصاصة بدلًا منهم.

أشعرتها التحلية بالغثيان وأصابتها بالعطش. جرعت كوبًا من الماء، لكنّ فمها بقي جافًّا. كان بإمكانها شرب الإبريق كلّه، رغم أنّها ليست فكرةً جيّدة. بعد نصف ساعة، ستحتاج إلى التبوّل في منتصف فترة الحجز. قد يتعيّن عليها قطع الاستجواب وكلّ ما يرافقه. أغمضت عينيها، وأخذت نفسًا عميقًا، على أمل أن تطلق شرارةً تعيد تفعيل محرّكها.

«هيّا يا جوستين، تحرّكي».

في بداية الاكتئاب، اعتقدت أنّها ستتغلّب على هذه المحنة بفضل وظيفتها، وأنّ الأدرينالين المرافق للتحقيقات سيكبح حزنها. لكنّها لم تكن بطلة فيلم تشويقٍ أو مسلسلٍ تلفزيوني. طوال حياتها المهنيّة، كانت تحلم بأن تُعهد إليها قضيّة بأهمّيّة قضيّة مقتل أوريانا دي بييترو. لسوء حظها، لم تتحقّق أمنيتها سوى في أسوأ وقتٍ في حياتها. في الفترة التي لم تعد فيها قادرةً حتّى على تأدية دور جوستين العاديّة، فما بالك بجوستين البطلة؟

3.

أرغمت جوستين نفسها على النهوض، ودفعت الفاتورة عند منضدة الخدمة، ثمّ غادرت المطعم. صعدت شارع ديفلي الذي يفضي مباشرةً إلى مركز الشرطة الجديد. هناك، صادفت مجموعةً من الصحافيّين يتسكّعون تحت أشجار النخيل في شارع أوتيل-دي-بوست. كانت تعرف معظم العاملين في وسائل الإعلام في المنطقة بالإضافة إلى المراسلين المحليّين لوسائل الإعلام الرئيسيّة، لكن ظهر أخيرًا لاعبون آخرون، «مراسلون-مواطنون»، يحملون هواتفهم المحمولة، ويصوّرون كلّ شيء وأيّ شيء. كانوا قد انبثقوا خلال التظاهرات الأولى للسترات الصفراء، ووثّقوا أتفه الحوادث التي يمكن وضعها، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، في إطار «عنف الشرطة»، عامدين إلى نشرها فورًا على شبكات التواصل الاجتماعي. عجّلت خطواتها قبل أن يكتظّ حولها الحشد وصعدت بسرعة الدرج المؤدّي إلى المدخل الرئيسي.

كان مركز الشرطة يقع في المبنى المرمّم لمستشفى سان-روش السابق، في هيئةٍ تجتذب الأنظار إليه: بناءٌ كبيرٌ بلون المُغرة وواجهةٍ نيوكلاسيكيّة، وتناظرٌ ملحوظٌ بين الأعمدة، والدعائم، والنوافذ المقوّسة. جمع الصرح في مكانٍ واحدٍ كلّ أجهزة أمن مدينة نيس: الشرطة الوطنيّة، والبلديّة، ومركز التخطيط الحضري. وفيما حاكت قاعدته المثلثة ونقوشه البارزة القرون الماضية، عبق التصميم الداخلي برائحة القرن الحادي والعشرين. باحةٌ مليئةٌ بالنباتات، وزجاجٌ أزرق وشاشات رقميّة في كلّ مكان.

ركبت جوستين المصعد نحو الطبقة الأخيرة. في المقصورة، لم تَرُقْها صورتها المعكوسة في المرآة. سروال جينز مهترئ، وحذاء رياضي بالٍ، وسترة كارديغان لا شكل لها فوق بلوزة من القماش

السميك، وشعر منسدل متطاير في كلّ اتّجاه. ساحرة عجوز بكلّ معنى الكلمة. هي تدرك أنّها ليست هنا لحضور حفل ميت غالا، لكنّ مظهرها أزعجها رغم ذلك.

رتّبت شعرها على عجل قبل أن تتّجه نحو الجناح الغربي للمبنى الذي يُقال إنّه جناحٌ سابقٌ للمجانين. لم يتعيّن عليها البحث طويلًا عن غرفة الاجتماعات. كانت لجنة ترحيب صغيرةٌ بانتظارها عند زاوية الممرّ. بيار بويغرونييه أوّلًا، رئيس فرقة مكافحة الجرائم، ملتصقٌ بهاتفه؛ وأشرف العمراني – الرجل الثاني في فرقتها الذي يعاونها خلال فترة الاحتجاز – وعنصران من خارج الجهاز. ميّزت جوستين كانديس لاشوم من قسم العلوم السلوكيّة في سيرجي-بونتواز، مصحوبةً بخروفها، محلّلٌ آخر ذو شارب كثّ نسيت اسمه، يشبه الرقيب غارسيا في مسلسلٍ من طفولتها.

رحبّت جوستين بالجميع بإيماءةٍ من رأسها. أزعجها وجود الـ«خبيرَين». كانت كانديس لاشوم، وهي امرأةٌ شابّةٌ شقراء وناعمة ذات شعرٍ أملس تمامًا، تعشق وسائل الإعلام. وكان هذا الحبّ متبادلًا. اسمها أشهر من نارٍ على علم، والجميع يعرفونها على أنّها «متخصّصة في التنميط الجنائي على الطريقة الفرنسيّة»، وقد صقلت أسلوبها من خلال القضايا التي تدخّلت فيها لدعم المحقّقين المحلّيّين. فكانت، إذا أفلحت، تسرق الأضواء وتظهر على كلّ القنوات التلفزيونيّة. أمّا إذا فشلت، فتدّعي أنّ المحقّقين لم يأخذوا بكلامها كما يجب وتُظهر أفراد الشرطة كريفيّين سذّج. حيلتها بدائيّة، لكنّها تتبيّن فعّالةً في كلّ مرّة.

بإيماءةٍ من يده، طلب بويغرونييه من أعضاء الفرقة أن يتبعوه. قادهم إلى ممرٍّ آخر ودفع الباب المؤدّي إلى مكتبٍ مجاورٍ لغرفة الاستجواب. كانت غرفةً طويلة، مزوّدة بنافذةٍ كبيرةٍ ذات

زجاجٍ عاكس، يسمّونها «نقطة المراقبة». جلس الجميع حول طاولةٍ مستطيلةٍ ذات سطحٍ زجاجي داكن محدّقين بعضهم في بعض بصمتٍ مريبٍ بانتظار أن يفتتح مفوّض الشرطة الاجتماع.

أخيرًا، أنهى بويغرونييه مكالمته.

«كانت هذه القاضية فرانكوفسكي»، شرح قائلًا. «حسنًا، بدون لفّ ودوران: الخطأ ممنوع ونحن بهذا القرب من الهدف». وأكّد أنّ مرسيليا أعطت الإذن «لزميلينا من قسم العلوم السلوكيّة لمساعدتنا خلال جلسات الاستماع». وسيبقى المحلّلان في هذه الغرفة النائية «لتحليل المفردات والسلوك غير اللفظي للمشتبه فيه».

إلخ، إلخ، إلخ...

عبر الاتّصال بجوستين من خلال ميكروفون وسمّاعة أذن، يمكنهما طلب الإيضاحات واقتراح أسئلة معيّنة أثناء الاستجواب.

«في أحلامك»، قالت الشرطيّة في نفسها وهي تنظر إلى رئيسها الذي شعر بامتعاضها.

«نحن فريقٌ واحد، مفهوم؟».

همهم الحاضرون بلامبالاة.

تابع بويغرونييه: «لديّ خبرٌ جيّد وآخر سيّئ. الخبر السارّ أنّنا حصلنا على نتائج المختبر بشأن تحليل البصمات التي أخذناها هذا الصباح من ديلوناي. وهي تتوافق مع تلك التي كانت على سلاح الجريمة».

كانت جوستين قد حصلت على هذه المعلومة قبل الذهاب لتناول الغداء. كان هذا عنصرًا هامًّا، لكن ليس حاسمًا، لأنّ عازف البيانو توقّع ذلك حتمًا ولن يزعزع هذا الاكتشاف استقراره.

«الخبر السيّئ أنّه لا يريد محاميًا. حاولنا أن نقنعه، لكنّه حازمٌ جدًّا في موقفه».

خلافًا لما قد يعتقده الناس، امتناع المتّهم عن تعيين محامٍ لا يسهّل مهمّة الشرطة أبـدًا. فبدون رجل قانون، يزداد الخوف من أن يُطعن في محاضر جلسات الاستماع في وقتٍ لاحق، أو أن يُشتبه في تلاعب المحقّقين بنتائج التّحقيق. لكنّ كانديس لاشوم كان لها رأيٌ آخر:

– على العكس، أجد ذلك مثيرًا للاهتمام. فهو يخبرنا الكثير عن حالة ديلوناي النفسيّة.

– ماذا يخبرنا؟

– أنّه ربّما على استعدادٍ للاعتراف بقتل زوجته. أنّ حالته النفسيّة هشّةٌ لدرجة أنّه يحتاج إلى الاعتراف ليريح ضميره.

– أو أنّه يثق بنفسه لدرجة أنّه على استعدادٍ لمواجهتنا من دون مساعدةٍ خارجيّة، ردّت جوستين.

– ربّما، اعترفت الشرطيّة.

أسرعت جوستين إلى اغتنام الفرصة:

– إذن هذا يخبرنا بشيءٍ وبعكسه. عظيم، نحن نحرز تقدّمًا ملحوظًا. من حسن الحظ أنّكما هنا يا بطلَينا!

– هدوء، من فضلكم، هتف بويغرونييه بانزعاج.

من دون أن تظهر أيّ انفعال، استعادت كانديس لاشوم الكلام لاقتراح خطّةٍ للمعركة والتذكير بالمبادئ التي تؤمن بها:

– لقد ولّى زمن تـوازن القوى أو المواجهة مع المشتبه فيه. التهديدات، وأساليب الاستنزاف، والاعترافات المنتزعة بالقوّة، كلّ ذلك انتهى.

عضّت جوستين شفتيها حتّى تمنع نفسها من مقاطعتها، وتركت المرأة الشابّة تتابع:

– ما ينجح اليوم هو التعاطف مع المُحتجز. من الضروري أن نكسب ثقة المشتبه فيه، لنمكّنه من الإقرار بالحقيقة. على من يواجهه أن يكون مهذّبًا معه، ويحترمه، ويشدّ على يده.

هذه المرّة، لم تستطع جوستين تمالك نفسها:

– ما رأيكِ أن أطبخ له الطماطم المحشوّة أيضًا؟

تجاهلتها المرأة وتابعت شرح طريقتها في الاستجواب، مستشهدةً بقضيّةٍ حديثةٍ حظيت بتغطيةٍ إعلاميّةٍ بارزة، وشارحةً كيف أسهمت خبرتها آنذاك في انتزاع الاعترافات. كانت جريمة قتل نساءٍ في ضواحي فرنسا.

هزّت جوستين رأسها بصمت. كانت كانديس لاشوم تسير في الاتّجاه الخاطئ. لم يكن لأدريان ديلوناي أيّ علاقة بذاك الريفي الأخرق الذي كانت تشير إليه والذي لم يكن من الصعب أبدًا محاصرته. كانت غير قادرةٍ على تحمّل كلّ هذا اللغو، لكنّ بويغرونييه والعمراني والرقيب غارسيا بدوا، على العكس، مأسورَين بكلام الشرطيّة. نظر إليها الرجال بافتتان كما لو كانت أعجوبة العالم الثامنة. ويجب الاعتراف بأنّ لاشوم أتقنت فنّ التأثير في الآخرين إلى حدّ الكمال: رفرفة الجفنين، ونغمة الصوت، والابتسامة الناعمة، وخصلة الشعر التي تُرجعها بطريقةٍ عرَضيّة خلف أذنها. هي والطبيبة الجرّاحة التي سرقت زوجها منها من الفصيلة نفسها.

ومع ذلك، فمن دراسة مسرح الجريمة إلى مراجعة الملفّ الشخصي للمعتدي، لم تنجز محلّلة قسم العلوم السلوكيّة سوى الترّهات. عشرات الصفحات من التقرير المبهم والأجوف، وتحليلاتٌ وتحليلات افتراضيّة لم تأتِ بأيّ فائدةٍ ملموسة. لا تزال جوستين تتذكّر المشهد الذي اكتشفته عندما صعدت على متن قارب أوريانا دي بييترو. للتسبّب بمثل هذه الإصابات، لا بدّ من أنّ قاتل المرأة

الإيطاليّة كان منجرفًا في فورةٍ عاطفيّة بلغت ذروة الغضب، الأمر الذي حيّر شبكات تحليل قسم العلوم السلوكيّة، فالتسلّل إلى القارب والمغادرة في إطارٍ زمنيٍّ ضيّقٍ من دون أن يلاحظ أحد يتطلّب في المقابل مستوًى عاليًا من برودة الأعصاب والتحضير الدقيق المُسبق.

لكنّ النفس البشريّة لا تُحدّ بمعادلةٍ حسابيّة. فهي مادّةٌ معقدة، تشابكٌ صعب المنال مكوّنٌ من طبقاتٍ مختلفة متناقضة، ومتاهة حقيقيّة رباعيّة الأبعاد لا مخرج منها.

بدأت جوستين تشعر بوخزٍ في ساقيها. كادت تختنق. هذه الاجتماعات تنهكها. أرادت خوض المعركة بدلًا من الاستمرار في تخيّل خطوات اللعبة عن بعد.

شاحت من بويغرونييه التفاتةٌ إلى ساعة يده، فبدا كأنّه استعاد بعض وعيه وقرّر أخيرًا مقاطعة محاضرة كانديس لاشوم.

«هيّا، فلنتحرّك!»، حسم قائلًا وهو يصفّق بيديه كما لو أنّه يكسر تعويذةً كان هو نفسه ضحيّتها. ثمّ وقف واختتم الاجتماع بروحٍ قتاليّة: «لدينا ما يستدعي التفاؤل. لقد قبضنا على الرجل، ونحن مقتنعون بإدانته وبحوزتنا عشرات الأدلّة التي تدينه».

كلّما حاول بويغرونييه طمأنة نفسه، تعزّز لدى جوستين انطباعٌ بأنّه هو نفسه لا يؤمن بفرص نجاحهم. المشكلة لم تكن في الأدلّة، بل في الدافع. الدافع الأساسي الذي دفع أدريان ديلوناي لقتل زوجته.

صوّب رئيس الفرقة بصره نحوها ليوجّه لها رسالة: «فلنتقدّم خطوةً بخطوة. لا نريد أن نحرق كلّ أوراقنا على الفور. دعونا نتريّث قبل ذكر أقوال زوجته والمستندات الأخرى التي لم تُوثّق في الملفّ بعد. مفهوم؟ هيّا، إلى العمل!».

فتح الباب وأخبر ضابط الشرطة أن يقود أدريان ديلوناي إلى غرفة الاستجواب، طالبًا التحدّث مع جوستين على انفراد لبضع لحظات.

«هل كلّ شيء على ما يُرام، تاياندييه؟» عاجلها بالسؤال حين أصبح الاثنان وحدهما.

هزّت جوستين رأسها، فتابع مؤكّدًا: «أعرف رأيكِ في كانديس لاشوم، لكن ليس كلّ ما تقوله هراءً». كانت جوستين تحدّق في الفراغ، وكأنّها في عالمٍ آخر.

– هل أنتِ قادرةٌ على إدارة هذا الاستجواب، يا تاياندييه؟

– وما الذي يجعلك تشكّ في ذلك يا رئيس؟

سألت وهي تعود إلى أرض الواقع.

تنهّد بويغرونييه:

– إذا أخفقتِ، فسنخسر كلّ ما لدينا ضدّ ديلوناي ونتوّج ملوك المغفّلين. نحتاج إلى اعتراااافاااات: واضحة، شاملة، وموقّعة.

– سنحصل عليها.

– أنصحكِ بذلك.

انصرف متعكّر المزاج، تاركًا جوستين وحدها في الغرفة. من خلف الزجاج، رأت مساعدها أشرف العمراني جالسًا أمام شاشة حاسوبه بشعره المرتّب والقصير ولحيته المحلوقة وبدلته من الكتّان الفاتح اللون، فبدا أشبه بالتلميذ الصالح وهو ينتظر معلّمته في اليوم الأوّل من العام الدراسي.

ثمّ دخل أدريان ديلوناي غرفة الاستجواب، برفقة ضابطين من الشرطة القضائيّة. وقف عازف البيانو وقفةً مُحيّرة لا تكشف عن ذرّة مبالاة أمام الزجاج العاكس.

تلاقت نظراته مع نظراتها من دون أن يراها.

5

أوريانا دي بييترو
ما يقتلنا

«ندرك الواقع عندما نصطدم به».

جاك لاكان

قبل ثمانية عشر شهرًا

لوغانو، سويسرا

مكتبة
t.me/soramnqraa

.1

يقع مركز كارل-جاسبرز الطبّي على ضفاف بحيرة سيريسيو. هو عبارةٌ عن مبنًى تاريخي من الحجر الأبيض، تسوّره أشجار زيزفون وكستناء، وانبثقت عنه، على مرّ العقود، مبانٍ أكثر حداثةً بواجهاتٍ زجاجيّة.

كانت أوريانا دي بييترو تعرف المكان جيّدًا، بل تعرفه منذ طفولتها: متاهات المركز الصحّي، أزهار الحديقة وأريجها، مياه البحيرة المتلألئة. فعندما كانت في السادسة والنصف من عمرها، تعرّضت مع والدتها لحادث سيّارةٍ مروّعٍ على الطريق المؤدّي إلى منتجع التزلّج في كورتينا دامبيدزو. كانت آنا ماريا دي بييترو، البالغة من العمر ثمانيةً وثلاثين عامًا آنذاك، قد فقدت السيطرة على

سيّارة المازيراتي بيتوربو التي انزلقت نحو الوادي. تُوفّيت السائقة بعد ساعاتٍ قليلة.

أمّا أوريانا فتعرّضت لجروحٍ خطرة: تحطّم الفكّ، ونزفٌ داخلي، وإصابة في الرقبة، وكسرٌ في العمود الفقري. وخضعت لعمليّاتٍ جراحيّةٍ عدّة أجبرتها على ملازمة المستشفى لأكثر من عام، فبدأت هنا، في المركز الطبّي في لوغانو، رحلة عذابها الطويلة في إعادة التأهيل.

وعلى الرغم من اضطرارها إلى ارتداء مشدّ حتّى نهاية فترة مراهقتها، ما عادت تعاني اليوم سوى آثارٍ محدودةٍ من الحادث، وتحديدًا من ضعفٍ في ساقٍ أكثر من الأخرى وألمٍ مزمنٍ في الظهر لم يمنعها يومًا من التنقّل بين المناطق الساخنة كافّة على الكوكب عندما كانت مراسلةً حربيّة.

كانت أوريانا تعود إلى هنا كلّما عانت وعكةً صحّيّة، فشاهدها مدير المركز فرانسوا شابوي تكبر وأصبح صديقًا لها.

إذا ما دخلت ورأيته جالسًا إلى مكتبه، باغتتك هيئة هذا الطبيب ببنيته الأشبه ببنية مصارعٍ يوناني-روماني، وملامحه المنحوتة بالصخر، وأنفه المسطّح، وحاجبيه الكثيفين. بدا شبيهًا بالممثّل والمصارع الإيطالي لينو فينتورا. كانت قوّته الهادئة تفيض من ردائه الأبيض، رغم أنّه في تلك اللحظة بدا متعكّر المزاج. من وراء عدستَي نظّارته البيضويّتين، راح ينقّل نظره بالتناوب من مريضته إلى صورة الأشعّة السينيّة بين يديه.

كانت أوريانا قد وصلت إلى لوغانو في ذلك الصباح للخضوع لسلسلةٍ من الفحوص. منذ أسابيع عدّة وهي تعاني صداعًا حادًّا عند الاستيقاظ ودوخةً خفيفة من وقتٍ لآخر. كان طبيبها العام قد شخّص في ميلانو ارتفاعًا طفيفًا في ضغط الدم، فلم تعر الأمر اهتمامًا أكبر

من ذلك. ثمّ بدأت تشعر بألمٍ في ذراعها اليسرى، كما لو أنّ النمل قد غزاها. دفنت رأسها في الرمال، مقتنعةً بأنّ الوقت سيداويها، إلى أن انهارت وفقدت الوعي في قاعة شاي خلال معرض بولونيا لكتب الأطفال.

دفعها ذلك الإنذار للمجيء إلى لوغانو لإجراء تخطيطٍ كاملٍ للأعصاب، وتصوير بالأشعّة المقطعيّة وآخر بالرنين المغناطيسي للرأس، وفحص خزعة. كان شابوي قد جمع نتائج الفحوص قبل موعدها معه. توجّست أوريانا شرًّا، ولم يطمئنها وجه الطبيب المحمّل بالقلق بين طيّات تجاعيده.

– حسنًا، لا داعي للمماطلة. أخبرني الحقيقة كما هي. النتائج ليست جيّدة، صحيح؟

– إنّها سيّئة، اعترف شابوي.

– أنا مصابة بالسرطان، ألستُ كذلك؟

– نعم، لديكِ ورمٌ في المخّ يضغط على الدماغ. وهذا ما يفسّر ارتفاع ضغط الدم، وآلام الرأس، وفقدان الوعي.

في العادة، يتكلّم تشابوي بإيجابيّة مُطمئنًا مرضاه كما يطمئن الأب عائلته، لكنّه بدا اليوم فاقدًا لهالته السحريّة. تابع موضحًا:

– إنّه ورمٌ أرومي دبقي من الدرجة الرابعة.

– وكم عدد الدرجات؟

– أربع. هذه هي المرحلة الأكثر تقدّمًا.

– ما يعني أنّه سريع الانتشار...

– ... ويتطوّر بسرعة، نعم.

– هل يمكننا التدخّل جراحيًّا؟

تنهّد.

– لسوء الحظ، هذا مستحيل. فقد نما الورم وصار بحجم البرتقالة وتجذّر في الفصّ الجداري الأيمن.

أرعبت الصورة أوريانا، وبدا لها الوضع في الوقت نفسه بعيدًا عن الواقع. كيف يمكن لشيءٍ أن ينمو داخل رأسها ويكبر ليصير بحجم كرة التنس؟

– على أيّ حال، مع هذا النوع من السرطان، نادرًا ما تساعد الجراحة على إزالة الورم بأكمله. وتكون عودته تلقائيّة في أغلب الأحيان.

حاولت التشبّث بأرض الواقع.

– والعلاج الإشعاعي؟ أو الكيميائي؟

– بدون الاستئصال الجراحي، لن يفعل سوى إرهاقك. العلاج الكيميائي لا يخترق الدماغ بفعاليّة.

– والأجسام المضادّة الأحاديّة النسيلة؟

– يمكننا أن نعطيكِ منها، لكنّها لا تطيل العمر المتوقّع.

– يعني لا أمل؟

تجهّم الطبيب.

– ثلاثون عامًا ولم أكذب عليكِ يومًا، يا أوريانا. كان اتّفاقًا بيننا، أتذكرين؟

– إذن...؟

– إذن، نعم، التوقّعات قاتمة للغاية.

تلقّت الحُكم بصمت، ثمّ سألت:

– وبدون علاج، ما الذي يمكن أن يحدث تحديدًا؟

تمهّل شابوي بالردّ ليفكّر ويزن كلماته.

– سيواصل الورم النموّ التدريجي مسبّبًا أعراضًا متزايدة الخطورة، وذلك بسبب زيادة الضغط داخل الجمجمة.

– وبوضوحٍ أكثر؟

– ستكونين عرضةً للإصابة بنوبات الصرع، أو الشلل في الجانب الأيسر، أو فقدان القدرة على النطق أو الذاكرة. سيؤدّي الورم إلى إتلاف العصب البصري وإضعاف نظركِ، ربّما إلى درجة العمى.

حاولت إبقاء هذا المستقبل بعيدًا كما لو كان شيئًا مجرّدًا لا يمكن أن يتجسّد أبدًا، لكنّها واصلت طرح الأسئلة. أرادت أن تحرص على تحديد كلّ المعطيات...

– من أين جاء هذا؟ أهو وراثي؟

– هذا ليس من اختصاصي، لكن يمكننا القول إنّ الوراثة قد تكون أحد العوامل. قد يكون لكلّ الأشعّة السينيّة التي تعرّضتِ لها في صغركِ بعد حادث السيارة دورٌ في ذلك أيضًا، لكن لا دليل قاطعًا على ذلك.

والآن... السؤال الأهمّ.

– كم بقي لديّ من الوقت؟

حكّ شابوي رأسه.

– بضعة أشهر.

– أي حوالي شهرين، أو... عشرة؟

– حوالي شهرين.

أومأت برأسها، لكن أبت الاستسلام.

– لكنّي لستُ مُتعبةً إلى هذا الحدّ. لا أشعر كأنّي سأموت غدًا.

– هذا طبيعي، لكن ستحين لحظةٌ واضحة يدخل فيها المرض مرحلته النهائيّة وتتدهور حالتكِ العامّة فجأةً وبسرعة.

– وكيف سيبدو مستقبلي؟

– كما تختارين أن يبدو.

– آه، الكلام المعسول...

– أنا جادّ. أنتِ بحاجة إلى تنظيم نفسكِ، وترتيب أموركِ، وحياتكِ. إلى التفكير في الطريقة التي تريدين أن تموتي بها. إلى عدم الغرق في...

قاطعته أوريانا مرّةً أخرى:

– عليّ العودة إلى ميلانو.

رافقها شابوي نحو الباب. كانت عيناه تتلألآن وتشعّان بريقًا، كاشفتين عن شخصيّةٍ حسّاسةٍ ومتعاطفةٍ خلف بنيته الضخمة وصوته الأجشّ.

– بطبيعة الحال، أبقى تحت تصرّفكِ إذا احتجتِ إلى مساعدةٍ أو نصيحة. يمكنكِ الاتّصال بي في أيّ وقت إذا تعقّدت الأمور.

– في الوقت الحالي، أريد منك شيئًا واحدًا فقط: لا تخبر أحدًا عن مرضي.

– ومن قد أخبر أصلًا؟

.2

كانت الساعة الرابعة من بعد الظهر عندما غادرت أوريانا المبنى. بدَت لها الحديقة أجمل من أيّ وقتٍ مضى. كان شهر أكتوبر قد سبق فصل الشتاء، فبقي الصيف يلعب في الوقت الضائع: السماء صافية، والبحيرة تتلألأ، والشمس تضيء الجبال التي لا تزال خضراء.

جلست على أحد مقاعد الحديقة وبقيت ساكنةً بلا حراكٍ لفترةٍ طويلة. جمّدت سيل أفكارها وتركت المشهد الطبيعي وزقزقة الطيور يتغلغلان في نفسها كما لو كانت تحاول الالتحام مع الطبيعة وغسل دماغها الملوّث، فتارةً تجد نفسها واحدةً مع ما حولها، وطورًا تجد نفسها مُستغرقةً في تأمّلٍ واعٍ فيه من الخارج.

بمَ كانت تشعر؟ بالظلم؟ بالخوف؟ بالغضب؟ لا، لم تشعر بأيٍّ من ذلك. بدا لها أنّ شيئًا ما في داخلها قطع تيّار أحاسيسها.

أخرجت علبةً من حقيبتها، وأشعلت سيجارةً رفيعة، ثمّ نفثت نفَس ارتياحٍ مع النفخة الأولى. يا لروعة أن يسدّ المرء رئتيه من دون أن يخشى العواقب!

تركت المشهد الملوّن الممتدّ أمامها يخدّرها: العشب المخضرّ، ولون الماء الأخضر الشاحب، واللون البرتقالي اليوسفي للقوارب الصغيرة بالدوّاسات، والظلال الذهبيّة لأوراق الخريف الأولى. أيّ شيءٍ أفضل من اجتياح العواطف.

الجميع حسبها قويّة، بيد أنّ ذلك لم يكن صحيحًا. كانت أوريانا عنيدةً فقط. منذ السادسة من عمرها وحياتها عبارةٌ عن صراعٍ مستمرّ، ورفضٍ للاستسلام للتعاسة. كانت قادرةً على تحمّل الألم والابتسام رغم الوجع لفتراتٍ طويلة. منذ نعومة أظافرها أدركت أن لا مهرب من الضربات التي تلقيها علينا الحياة. بل وجب علينا عقد العزم على مواجهتها بوسائلنا الهزيلة. وتحمّل المحنة كي نولد من جديد.

لكن كيف نخوض معركةً نعلم مسبقًا أنّها خاسرة؟

اقتلعت أوريانا نفسها من أفكارها لتبعث برسالةٍ نصّيةٍ إلى سائقها طالبةً منه المجيء لاصطحابها. نهضت عن مقعدها وعبرت الحديقة لانتظاره خارج المركز الصحّي. لحقت بها صورتها المنعكسة على النوافذ الزرقاء للمباني، فتواءمَت الأزهار المنسوجة في فستانها مع انعكاسات السماء وأوراق الشجر. منذ أيّام عملها عارضةَ أزياءٍ خلال دراستها الجامعيّة، كان الناس يشيدون بجمال ملامحها المتوسّطيّة، ووجهها البيضوي، وعينيها المُتلألئتين، وحاجبيها المقوّسين. والآن، بعد عشرين عامًا، ما زالت بالجمال نفسه. شعرت

بالحرّيّة والحيويّة، كأنّها إلكترون يسبح في فضاء الحياة بلا أدنى رغبةٍ في الرحيل.

كانت سيّارة المرسيدس في انتظارها، المحرّك دائر والسائق متأهبّ ليفتح لها الباب. ركبت الـ«سي كلاس» وطلبت من إدواردو إعادتها إلى ميلانو. كان الرجل ذو الشعر الأبيض المنسدل إلى الخلف، والعينين المحجوبتين دائمًا بنظّارةٍ شمسيّة من الخزف، يعمل لدى العائلة منذ عمرٍ طويل. وهو يتميّز بتكتّمه وولائه الخالصين. فبذكائه، عرف والد أوريانا، الرئيس، أو «il Presidente»، كيف يحيط نفسه بمتعاونين أهل للثقة، يدينون له بكلّ ما لديهم، لا يطرحون أيّ سؤال ولا يناقشون أيّ طلب.

ما كادت أوريانا تجلس في الجزء الخلفي من السيّارة حتّى شعرت بتداعيات المرض: بدأ التعب يأخذ مأخذه. التفّت ببطانيّة من الكشمير وتركت نفسها تتهدهد على الهمهمة البعيدة لحركة السير.

ماذا الآن؟ كيف لها أن تتكيّف مع هذا الواقع الجديد؟ لقد أعطاها شابوي شهرين لتعيش. مدّةٌ قصيرة وطويلة في الوقت نفسه. كانت أولويّتها ألّا تُحرم من الأسابيع الأخيرة من استقلالها الذاتي. أرادت البقاء في اللعبة لأطول فترةٍ ممكنة، وتجنّب التكهّنات حول حالتها الصحّية، وهذا يتطلّب حتمًا السرّيّة. فنظرة الآخرين هي السمّ الأكبر في الوجود. وقد حاولت دومًا ألّا تكون عبدةً لها. لهذا السبب، لن تخبر أحدًا عن مرضها، ولن تظهر ضعيفةً أمام أحد.

للمرّة الأولى، سمحت لنفسها بالتفكير في طفليها، باولو وصوفيا، وزوجها. عندما يُحسب ميراثك بمليارات اليورو، يلاحقك تهديد الانزلاق إلى الجنون في كلّ لحظة. فالمطبّات في كلّ مكان.

نجاحها في الحفاظ على عائلتها من جنون إمبراطوريّة دي بييترو كان أعظم إنجازٍ في حياتها. لكن ماذا سيحدث بعد رحيلها؟

أغمضت عينيها. كانت معرفة أنّ حياة الآخرين ستستمرّ بدونها مؤلمةً جدًّا. لا بل لا تطاق. لطالما حرصت على أن تظهر بصورة الحكيمة والمتوازنة، لكنّها في نهاية المطاف تبقى من سلالة دي بييترو. تبقى مقاتلة. ابنة والدها في السرّاء والضرّاء.

بدأت خطّةٌ تتشكّل في ذهنها. بطريقةٍ أو بأخرى، كان عليها أن تجد طريقةً لمواصلة حياتها.

مواصلة وجودها بعد رحيلها.

6

أديل كيلر
ما نكتشفه

«الإنسان ظلٌّ من المستحيل اختراقه».

مارسيل بروست

بعد أسبوعٍ واحد
باريس، 16 أكتوبر 2022

.1

كان كتابًا تركه أحد النزلاء، في غرفة فندقٍ في لندن عملتُ فيه خلال صيف عام 2017. عملٌ مقتضب، لا يتعدّى المئة صفحة، يحمل توقيع مؤلّف ياباني يدعى جونيشيرو تانيزاكي. كان عنوانه أوّل ما جذبني: «مديح الظلّ».

لم يكن رواية، بل دراسةٌ دافع فيها المؤلّف عن جماليّة الظلام كردّ فعل على الجماليّات الغربيّة الحديثة التي تنادي بوجوب أن ينبع الجمال من الضوء. في الثقافة اليابانيّة، الظلّ يصقل، وينحت، ويولّد الجمال حيث لا ترى النظرة الجاهلة إلّا التفاهة. حتّى جمال المرأة لا يمكن أن يبلغ ذروته في وسط الضوء، بل من وراء شاشةٍ أو حجابٍ فقط ينعكس سحرها وغموضها.

لستُ يابانيّة، لكنّني وجدتُ هذه الأفكار تمثّلني.
اسمي أديل كيلر وأنا امرأة الظلّ.

.2

روتيني ثابت. كلّ يوم، حوالي الساعة الثامنة صباحًا، أترجّل من المترو عند محطة مادلين وأصعد شارع فوبور-سان-أونوريه. وبينما يُغشى على بعض الناس أمام واجهات المحالّ الفاخرة، تفتنني القصور التي تتوالى على طول الطريق. ذلك القصر عند العقار رقم 31 على مثلًا، ببابيه المطليّين بالأحمر الناري اللذين يبدوان كأنّهما يخفيان عالمًا غامضًا. ثمّ فندق دي بونتالبا حيث تقيم سفيرة الولايات المتحدة، فضلًا عن قصر الإليزيه. في بعض الأحيان، تكون البوّابات مفتوحة فألمح جزءًا من العشب، أو نافورة، أو شخصًا بزيّ حارسٍ أو سائق. أجدني في حال تأهّبٍ دائمٍ لالتقاط أيّ تفصيلٍ منبثقٍ من وراء الواجهات.

ثمّ أواصل رحلتي نحو فندقٍ من نوعٍ آخر: الملاذ الفاخر، الجوهرة الفاخرة التي هي فندق بريستول حيث أعمل مديرةً لخدمة الغرف. مُتحلّيةً بالتنظيم والحزم، أشرف على تجهيز الغرف وصيانتها في الطبقتين الثامنة والأخيرة، حيث أقيمت بعض أجمل الأجنحة. سرّ نجاحي: أضع نفسي مكان الضيف لأستبق تطلّعاته ورغباته. هذه هي المفارقة في عملي: إذا أنجزتُه كما يجب، لا يلحظ أحدٌ وجودي.

قد يبدو هذا محبطًا، لكن ليس بالنسبة إليّ. أحبّ أن أبقى في الظلّ، غير مرئيّة، مُقيمةً في الزوايا التي هجرها الضوء. مثل مصمّم الزهور، وفريق التنظيف، والمرؤوسين الذين يكدحون في ضيق المطابخ. مثل الأيدي الصغيرة التي تلمّع الفضّيات أو رئيس الخبّازين الذي يجهد بلا كللٍ لصقل قرمشة كعكته المحشوّة بالتفاح. هذا

ما نحن عليه: الزيت الذي يضمن دوران مفاصل النظام التشغيلي، الحرفيّون الحقيقيّون وراء تميّز القصر.

الساعة التاسعة صباحًا. رشّةٌ أخرى من مزيل العرق قبل أن أرتدي زيّ العمل: بدلةً من بنطالٍ أسود وبلوزة بيضاء، وحذاءً داكن اللون.

في المكتب، أبلغتني المديرة العامّة عن تسجيل حجزٍ في اللحظة الأخيرة في أحد أجنحتنا المرموقة التي سُميّت سطوح باريس «Les toits de Paris».

– نزيلة من كبار الشخصيّات. إيطاليّة.

– لكنّ الجناح محجوزٌ لعائلة دومينغيز منذ فترةٍ طويلة.

– أعلم، لكنّ الإدارة نقلت الحجز لإرضاء الإيطاليّة. اسمها أوريانا دي بييترو، هل تعرفينها؟

أومأتُ برأسي وأنا أرتّب تسريحتي في المرآة.

– قليلًا، لماذا؟

– لأنّها طلبت أن تذهبي لرؤيتها فور وصولك.

3.

الطبقة الثامنة.

مُمسكةً بالصينيّة الفضّيّة، أخذتُ نفسًا عميقًا وقرعتُ جرس الباب.

– سيّدة دي بييترو؟

كان الباب قد تُرك مفتوحًا جزئيًّا. طرقتُ عليه.

– سيّدة دي بييترو؟ هذه أنا، أديل كيلر، مديرة خدمة الغرف في الطابق.

لا إجابة.

لا يهمّ، سأدخل.

في كلّ مرّةٍ أدخل فيها، يلقي الجناح تأثيره الخاصّ عليّ بنوافذه العلويّة، ومدفأته الرخاميّة، وأرضيّته المصنوعة من خشب البلّوط. ويتألّق الضوء الناعم على جدران الباستيل المنسجمة بأناقةٍ والمقاعد المغطّاة بقماش «توال دو جوي».

كانت أوريانا دي بييترو جالسةً على الشرفة أمام حاسوبها المحمول. خلفها، انبسطت أسطح مدينة باريس من قصر غارنييه إلى كاتدرائيّة القلب المقدّس.

رفعت نظرها عن شاشتها، عرفتني، وابتسمت.

– مرحبًا أديل! سعيدة لرؤيتكِ من جديد.

– مرحبًا سيّدة دي بييترو.

كنّا في اليونان آخر مرّةٍ التقينا فيها، قبل عامين تقريبًا، في فندقٍ رائعٍ في جزر سيكلادس حيث عملتُ حاضنةً لأطفالها. ما زالت كما أذكرها: سمراء، إيطاليّة، أنيقة، مفاتن جسدها ناعمة ومتناسقة. جمالها مزيجٌ من جمال مونيكا بيلوتشي وصوفيا لورين من فيلم «Una giornata particolare».

– سمحتُ لنفسي بأن أغلي لكِ الزنجبيل مع العسل والليمون. هذا المزيج هو أكبر أسرار منتجعنا الصحّي، قلت لها وأنا أضع الصينيّة على الطاولة.

– تزدادين جمالًا في كلّ مرّة، أكدّت لي وهي تعانقني بحرارةٍ شاكرةً لي.

لطالما كانت لطيفةً جدًّا معي. حقًّا. خلال الأسبوعين اللذين أمضيناهما في اليونان، عشنا إلى حدٍّ ما كعائلة، في مناخٍ من التفاهم المتبادل والانسجام الكبير. كانت آنذاك متأثّرةً بشدّة بوفاة والدها، وقدمت مع طفليها، بدون زوجها، بحثًا عن بعض الراحة بعد الجنازة.

ومع مغادرتهم، شعرتُ بغمٍّ وفراغٍ كبيرين. أصابني اكتئابٌ تامّ، كما لو أنّ أوريانا أخذت معها كلّ الطاقة التي كانت تشحذني.

– كم من الرائع رؤيتكِ في باريس، سيّدة دي بييترو.

– أرافق أدريان. سيقيم حفلةً موسيقيّة هذا المساء في مؤسّسة «موناي دو باري».

– كيف حال باولو وصوفيا الصغيرة؟

– جيّد جـدًّا. انظري كم كبرا! قالت وهي تريني الصور على هاتفها الآيفون.

طفلاها رائعان. منحوتتان مشعّتان ومبهجتان. أتذكّرهما تمامًا. باولو الذي يعزف على آلة التشيلو بقميص إيه سي ميلان، وصوفيا الشغوفة بالرقص الكلاسيكي التي ترسم طوال الوقت. طفلان متوازنان ومحبوبان تنبثق منهما طاقةٌ مُبهجةٌ مُطمئنة بقدر ما هي مُعدية.

فيما راحت الصور تتوالى على شاشة هاتفها، تعرّفتُ إلى بعض الأماكن التي حدّثتني عنها من قبل: الشقّة العائليّة مع الحديقة في بريرا، والمنزل في كاب دانتيب، والشاليه في كورتينا دامبيدزو. كانت حياة آل بييترو أشبه بمقطوعةٍ موسيقيّة خاليةٍ من أيّ نشاز، لحنٌ يدفعك دائمًا إلى التساؤل عن أحد أسرار الوجود العظيمة: لماذا، عند توزيع أوراق اللعب، يحصل بعضنا على أربع أوراق آس فيما يحصل البعض الآخر على أوراق الرقم اثنين؟ فيما كنتُ أنظر إلى صورة صوفيا وهي تتزلّج، سقطت قطرةٌ من الدم على الثلج. رفعتُ رأسي، وصرخت:

– أنفكِ ينزف، يا سيّدة دي بييترو!

أسرعتُ إلى الحمّام وعدتُ بعلبة المناديل.

– لا بأس، قالت وهي تلتقط منديلًا.

نظّفت أنفها ومسحت وجهها، ثمّ أمالت رأسها إلى الأمام وهي تضغط تحت جسر أنفها لوقف النزف.

– هل تريدين أن نتّصل بالطبيب؟

– لا، لا داعي لذلك. هذا يحدث كثيرًا هذه الفترة.

عادت لتجلس على طاولة الشرفة ودعتني للجلوس أيضًا، لكنّني فضّلتُ البقاء واقفةً وقدّمتُ لها فنجان الزنجبيل.

– اجلسي أديل، من فضلك.

– لن أسمح لنفسي.

سحبتني من كمّي لتجبرني على طاعتها.

.4

– كيف يمكنني أن أساعدكِ، سيّدة دي بييترو؟

– في البداية، دعينا نتّفق على أن تناديني أوريانا، حسنًا؟

أومأتُ برأسي.

– لم أنزل في فندق بريستول بالصدفة. أتيتُ لأنّني أردتُ رؤيتكِ.

– أنا؟ ولكن لماذا؟

– لديّ ما أقدّمه لكِ.

ابتلعتُ ريقي وتشنّجت أعصابي. تراود النزلاء أفكارٌ جنونيّة أحيانًا.

– كلّي سمع.

جعّدت المنديل الورقي الملطّخ بالدم ورمته في منفضة السجائر الكريستاليّة الموضوعة في وسط الطاولة.

– لا أريد أن أجبركِ على شيء، يا أديل. لذلك أعطيكِ الخيار.

– خيار ماذا؟

– البقاء أو الرحيل.

– لمَ قد أرحل؟

– لأنّ ما سأقوله لكِ سوف يلزمكِ.

– يلزمني بماذا؟ لا أفهم.

– إذا بقيتِ، فسأخبركِ بشيءٍ لا يعرفه أحدٌ غيري وغير طبيبٍ في لوغانو.

التقطت من جانب جهاز الكمبيوتر علبةً من سجائر فوغ بالمنثول.

– بمجرّد أن تعرفي هذه المعلومة، ستكونين في خطر.

توقّفَت لحظةً ثمّ أشعلَت سيجارةً طويلةً ورفيعةً بولّاعةٍ أنيقةٍ لامعة. شعرتُ بأنّ الأثاث يترنّح من حولي.

– ستكونين في خطرٍ لأنّكِ إذا كشفتِ السرّ، فسأرسل رجلًا إلى منزلكِ ليكسر ساقيكِ ولا يترك لكِ سنًّا في مكانها.

ومضت الصورة في ذهني، مبهمةً ومخيفةً في الوقت نفسه.

تابعت موضحةً:

– أنا لا أمزح. هذا ما سيفعله بكِ حقًّا. سوف تصرخين، تتشوّهين، وتدمّرين حياتكِ. في أحسن الأحوال، سيتوقّف عند هذا الحد، وفي أسوأ الأحوال...

في ثوانٍ معدودة، تغيّر كلّ شيء فيها: نظرةٌ ملتهبة، وحدقتان متوسّعتان، ونبرةٌ مهدِّدة. استبدلت زيّ الصديق الجيّد بزيّ الإمبراطور بالباتين من سلسلة حرب النجوم. فجأةً، تجلّى الأمر بديهيًّا أمام عينيّ.

– أنتِ مريضة، ألستِ كذلك؟

– أهنّئكِ على الاستنتاج!

سحبت نفسًا طويلًا ثمّ نفخته على الفور مشكّلةً سحابةً ضبابيّة تبدّدت في الهواء.

– لديّ ورمٌ في المخ، أكّدت بنبرةٍ باردة. سريع الانتشار، شرس، وغير قابلٍ للاستئصال. من المحتمل أن أموت قبل نهاية العام.

– أنا آسفة، أنا...

– شكرًا لكِ، لكن لا يمكنكِ القيام بشيءٍ حيال ذلك. وفّري كلامكِ للنطق بأشياء ذكيّة.

حنت رأسها إلى الوراء وقمعت تثاؤبها وهي تدلّك رقبتها من الخلف.

– هل تتألّمين؟

– بعض الأيّام أكون على ما يرام. وبعضها الآخر أسوأ بكثير.

– كيف أستطيع مساعدتكِ؟ قلتِ إنّك تريدين أن تقدّمي لي عرضًا.

– سأكون صريحةً معكِ. لم يعد لديّ وقت للّباقة، والصداقة الزائفة، ونفاق العلاقات الاجتماعيّة. قبل الاتّصال بكِ، تحرّيتُ وعلمتُ الكثير عنكِ.

أرجعتُ ظهري قليلًا.

– أعرف قائمة الرجال الذين مارستِ الجنس معهم منذ أن كنتِ في السابعة عشرة من عمركِ، وقائمة المناصب التي شغلتها في حياتكِ المهنيّة، وأعرف مقدار الأموال التي تدينين بها للبنك الذي تتعاملين معه، وكم تدفعين إيجارًا لغرفتكِ الصغيرة. أعرف ما الذي تفكّرين فيه عندما تخلدين إلى سريركِ ليلًا.

– أنتِ فعلًا تعتدين كلّ شيءٍ مُستباحًا لكِ!

– في هذه المرحلة من حياتي، أجل.

كان هاتفها الخلوي يرجّ بلا توقّف منذ وصولي. حتّى الآن، لم تعر الأمر أهميّة، لكنّها قرّرت أن تنظر إلى الشاشة وتجهّمت.

– ما عرضكِ؟

قالت وهي تنهض لتطفئ عقب سيجارتها: «سيستغرق الشرح بعض الوقت. هذا الصباح عليّ رؤية بعض الأشخاص والقيام ببعض الأشياء. يجب أن أواصل تبديد الشكوك، لكن عودي لرؤيتي في نهاية فترة ما بعد الظهر. عند الساعة السادسة مساءً.

– أنا لستُ تحت تصرّفكِ!

وفي حركةٍ لم أتوقّعها أبـدًا، انحنت نحوي وقبّلتني. لامست شفتيها شفتيّ وسمرّتني هذه القبلة مكاني.

– أتعلمين أنّكِ تصبحين أجمل عندما تغضبين؟ قالت وهي تغادر الشرفة.

عبرت عتبة الجناح ثـمّ استـدارت نحوي، مـؤطّرةً بالواجهة الزجاجيّة الكبيرة.

– آه، أمرٌ أخير. ستهجرين حبيبكِ.

– عفوًا؟

– إنّه فاشل، لا يستحقّكِ. ليس عليكِ فقط أن تهجريه، بل عليكِ أن تفعلي ذلك اليوم بالذات.

– فقط لأنّكِ طلبتِ ذلك؟

– نعم.

– أنتِ مجنونة، قلتُ وأنا أمرّ بجوارها.

تنهّدَت.

– أجل، مثل الجميع. تعرفين جاك لاكان: «الجميع في حالة هذيان». لا تعودي لرؤيتي قبل أن تنجزي ذلك.

– حياتي ليست أقلّ قيمةً من حياتكِ!

– أديل، أديل... أعتقد أنّ لديكِ ما يكفي من الذكاء، لذا سوف تستمعين إلى صوتكِ الداخلي الصغير، حسنًا؟ تعلمين عمّا أتحدّث، ذلك الصوت الذي يخبركِ أنّ الوقت قد حان لتعيشي حياتكِ بدلًا من مراقبة حياة الآخرين.

نظرتُ إلى ساعتي. تأخّر الوقت.

– عليّ العودة لتفقّد فريق العمل الذي أديره، قلتُ لها.

– «عليّ العودة لتفقّد فريق العمل الذي أديره»، كرّرت بنبرةٍ ساخرة.

كنتُ قد أغلقتُ الباب عندما سمعتها تهتف:

– الليلة، الساعة السادسة مساءً، عند حوض السباحة الخاصّ بالفندق.

الجمعة 5 مايو 2023

1:00 ظهرًا

- المريض أدريان ديلوناي يتّصل بالدكتور مالوسينا

4:00 بعد الظهر

- وصول أوريانا دي بيترو إلى مطار نيس (الرحلة AF6212).
إرسال رسالة نصّية لزوجها لتخبره عن ذهابها في رحلةٍ بالقارب

- مغادرة الأطفال والمربّية للذهاب إلى السينما في مدينة كان

- وصول أوريانا إلى ميناء كانتو في مدينة كان بسيّارة أجرة

- 4:45: وصول الدكتور مالوسينا إلى فيلا أنابيل في كاب دانتيب

5:00 بعد الظهر

- حوالي الساعة 5:00، صعدت على متن لونا بلو بمفردها

- 5:15: مغادرة الطبيب. أدريان ديلوناي يأوي إلى الفراش ويدّعي أنّه نام حتّى الساعة 7:00 مساءً.

- حوالي الساعة 5:30، رسا اليخت في قناة فريول بين جزيرتي ليرين.

6:00 مساءً

- هبوب رياح غربيّة

7:00 مساءً

- 7:10: أندريه كالاندري، البستاني البالغ من العمر 79 عامًا، يقول إنّه رأى ديلوناي بالقرب من حوض السباحة.

- [7:30-7:45] الاعتداء على أوريانا: ضربات عدّة بقضيبٍ من الحديد.
تُركت تموت.
لوحظ زورق مطاطي باللونين الأحمر والأسود حول القارب.

8:00 مساءً

- 8:05: عودة الطفلين مع المربّية إلى المنزل، حيث أمضيا جزءًا من السهرة مع والدهما.

- 8:45: اكتشفت طالبتان من المدرسة العليا للتجارة الضحيّة واتّصلتا بالإسعاف.

7

جوستين تاياندييه
ما نسكت عنه

«الكذب من طبيعة البشر. حتّى إنّنا في أغلب الأحيان نعجز عن أن نكون صادقين مع أنفسنا».

حوار من فيلم «Rashomon» للمخرج أكيرا كوروساوا

الجمعة 24 مايو 2024
مركز الشرطة في نيس

1.

كان ديكور غرفة الاستجواب يوحي بمبدأ الزهد: جدرانٌ من الطوب الأحمر، وأرضيّةٌ من الإسمنت المصقول، ومصابيح صناعيّة معلّقة. في أحد الجدران نافذةٌ كبيرة تطلّ على البحر، لكنّها خُبّئت بستارةٍ معدنيّة لم يرها أحدٌ مفتوحةً من قبل.

– أودّ أن أراجع معك برنامج أعمالك في يوم مقتل زوجتك، اقترحت جوستين.

كان أدريان ديلوناي جالسًا – ببرودة – خلف طاولةٍ معدنيّة طويلة. قبالته، حشرت جوستين نفسها في كرسيّها. إلى يسارها، قبع

أشرف العمراني، صامتًا، يؤدّي دور الضابط الإجرائي المسؤول عن تسجيل محادثتهما.

– وكأنّك لم تسأليني عن هذا الموضوع من قبل، تنهّد عازف البيانو قائلًا.

كان قد بدّل ملابسه قبل أن يتبعهما إلى مقرّ الشرطة فارتدى قميص بولو كحليّ اللون مغلقًا حتّى الزرّ ما قبل الأخير، وسروالًا من الجينز الخام، وحذاء ستان سميث ناصعًا برباطٍ ملوّن.

– كنتَ قد وصلت إلى كاب دانتيب في اليوم السابق للاعتداء، هل هذا صحيح؟

– الخميس، نعم، كما تثبت تذكرة السفر.

– وذهبت لملاقاة طفليك ومربيّتهما، السيّدة نادية صلاحي، التي كانت هناك منذ بداية الأسبوع.

أومأ ديلوناي برأسه إيجابًا.

– كان وقت العطلة المدرسيّة في ميلانو.

– كنتَ عائدًا من ميونيخ حيث سجّلت أسطوانة، أليس كذلك؟

– أسطوانة؟ رفع حاجبه مندهشًا. أشكّ في أنّ أحدًا لا يزال يستخدم هذا المصطلح في عام 2024، لكن نعم، كنتُ أشارك في إنتاج ألبوم عازف الساكسفون سيدار فورمان.

– ويوم الجمعة، يوم الاعتداء، كان من المفترض – مبدئيًا – أن تحيي حفلًا موسيقيًا في لوسرن من أجل مهرجان...

نظرت إلى شاشة حاسوبها الخاصّ للتحقّق من معلوماتها، وتابعت:

– ... ربيع الجاز، أليس كذلك؟

هزّ ديلوناي رأسه موافقًا بفتور. استغربت جوستين.

– أوضح لي نقطةً واحدة. لمَ لم تذهب مباشرةً إلى سويسرا من ميونيخ؟

ردّ، كما لو أنّ الأمر بديهي:

– لأنّني أردتُ أن أرى طفليّ.

– ليومٍ واحدٍ فقط؟

– طبعًا.

أعرب عن دهشته.

– ليس لديكِ أطفال، صحيح أيّتها القائدة؟

لم تتوقّع جوستين أن تتلقّى ضربةً بهذه السرعة. لكنّها استقبلتها من دون أن تُظهر أيّ علامة اضطرابٍ وتابعت:

– ثمّ أخيرًا، في اللحظة الأخيرة، ألغيت الحفلة وبقيت في أنتيب.

– كنتُ مريضًا.

– ما الذي أصابك؟

– أنفلونزا.

– كان ذلك في مطلع شهر مايو، ما يعني أنّ فترة انتشار الأنفلونزا كانت قد انقضت منذ فترةٍ طويلة، أليس كذلك؟

هزّ كتفيه.

– لست عالم أوبئة ولا طبيبًا.

– ولا أنا، ولهذا السبب قصدتُ طبيبك لاستجوابه: الدكتور كزافييه مالوسينا. يقول إنّك اتّصلت به في وقت الغداء يوم الجمعة لتطلب منه المجيء لرؤيتك. وبحكم انشغاله في زياراتٍ أخرى، لم يصل إلى منزلك حتّى الساعة 4:45 مساءً. يؤكّد أنّك أخبرته أنّك تعاني من الحمّى، والصداع، وانسداد الأنف.

– قاس درجة حرارتي بنفسه. كانت 39.1 عندما وصل.

– لمَ لم يصف لك أيّ دواء؟

– للأنفلونزا؟ لا علاج فعليًا: يجب شرب السوائل، وتناول الباراسيتامول، والفيتامين سي... لديّ كلّ هذا في خزانة الأدوية. أنا من رفضتُ أن يعدّ لي وصفةً طبّيةً جديدة.

– آه، لا بدّ من أنّ الضمان الاجتماعي ممتنٌّ لك! هل كنت وحدك في المنزل في ذلك الوقت؟

– كانت المربّية في السينما مع الأطفال، في كان.

– وماذا فعلت بعد مغادرة الطبيب، ابتداءً من الساعة 5:15 مساءً؟

– بتسعٍ وثلاثين درجة من الحمى؟ أخذتُ مسكّنًا آخر للألم وعدتُ إلى السرير. ماذا تريدين أن أفعل غير ذلك، تمارين الكارديو؟

– أتعلم أنّ زوجتك كانت قد استقلّت الطائرة لتنضمّ إليك؟

– أخبرتني في اليوم السابق أنّها كانت تنوي المجيء، نعم.

– وفقًا لسجلّات هاتفها، أرسلت لك رسالةً في الساعة الرابعة بعد الظهر لتؤكّد لك وصولها إلى مطار نيس وتخبرك بأنّها ستأخذ القارب. هل وصلتك هذه الرسالة؟

– لا، كنتُ طريح الفراش ولم أنظر إلى هاتفي طوال فترة ما بعد الظهر.

– ومع ذلك، حوالي الوقت نفسه تقريبًا، رددتَ على رسالةٍ نصّية من المربّية تسألك فيها عمّا إن كان بإمكانها شراء بعض الفشار للطفلين.

أجاب أدريان من دون أن يرتبك:

– أعددتُ رقم المربّية لتظهر رسائلها حتّى عندما يكون جهازي في وضع «عدم الإزعاج».

– ولم تفعل بالمثل برقم زوجتك؟

2.

– فلنرجع إلى صلب الموضوع. عدتَ إلى السرير بعد مغادرة الطبيب لأخذ قيلولة. لِكم من الوقت؟

– أقلّ من ساعتين بقليل. استيقظتُ سابحًا في عرقي حوالي الساعة السابعة مساءً. ظننتُ أنّني أتحسّن. نهضتُ وجررتُ نفسي إلى المطبخ لأسكب لنفسي كوبًا من الماء. كان حلقي مشتعلًا. أفرغتُ نصف زجاجة إيفيان في جوفي.

– كنت لا تزال وحدك في المنزل.

– نعم، أو، لا: كان هناك البستاني.

– السيّد أندريه كالاندري. كان يعتني بحديقة الورود. غروب الشمس يتأخّر في ذلك الوقت من السنة. يقول إنّه عمل حتّى الساعة 6:55 مساءً ثم وضّب أدواته في الكوخ. في تلك اللحظة، حوالي الساعة 7:10 مساءً، رآك بثوب النوم بالقرب من حوض السباحة.

– نعم، خرجتُ لأستنشق بعض الهواء النقي، لكنّي عدتُ إلى السرير فورًا وبقيتُ هناك إلى حين وصول طفليّ.

– حوالي الساعة 8:05 مساءً، بحسب المربّية.

– و...؟

– بين الساعة 7:10 مساءً، عندما رآك البستاني، والساعة 8:05 مساءً عندما عاد الطفلان، لا أحد يمكنه أن يشهد على مكوثك في المنزل.

– هذا صحيح، اعترف من دون عناء.

– كلّ العناصر التي بحوزتنا تشير إلى أنّ زوجتك تعرّضت للاعتداء بين الساعة 7:30 و7:45 مساءً. أي في الفترة الزمنيّة التي لا تملك فيها حجّة غياب.

– على حدّ علمي، هوجمت على متن قاربها، على بعد حوالي عشرة كيلومتراتٍ في عمق البحر من الساحل. كيف كنتُ سأصل إلى هناك؟ سباحةً؟

– بواسطة زورقك المطّاطي الصغير.

– سوف يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة للوصول إلى هناك!

لم يكن هذا السافل مخطئًا. وكانت هذه ضمانته. السبب الذي يفسّر كيف، لمدّة عام، لم يستطع أحد تفتيش منزله أو وضعه قيد الاحتجاز. وهذا يفسّر ثقته بنفسه، وطريقته في النظر إلى جوستين وكأنّه يقول لها: «اذهبي إلى الجحيم». كان يسمّع درسه، وهنا كانت المشكلة. حافظ أدريان على النسخة نفسها منذ البداية. وعلى عكس المشتبه فيهم الآخرين في قضايا مشابهة، لم يناقض نفسه ولا مرّةً واحدة. لم يُضبط قطّ بالجرم المشهود وهو يكذب، غير أنّ هذا الأمر كان على وشك أن يتغيّر.

تابعت جوستين موضحةً: «قسنا مدّة الرحلة مرّاتٍ عدّة. باستخدام السرعة القصوى في يومٍ بلا رياح، يمكن الوصول إلى مكان الحادث في أقلّ من عشرين دقيقة».

– يجب أن تعلّموني كيف.

غيّرت الموضوع وسألت:

– أتعرف ما الذي أدهشني حقًّا في هذه القضيّة؟

– أنا حقًّا لا أبالي.

– في ذلك اليوم، لم يكن على أرض الملكيّة حارس.

– كما هي الحال دائمًا. لدينا شخصٌ يشرف على الصيانة، لكنّه لا يعيش في الموقع ويعمل في وكالةٍ عقاريّة في جادّة ألبير-لير.

– لماذا؟

– نحبّ، أوريانا وأنا، خصوصيّتنا. لم نرغب في بقاء أيّ شخصٍ معنا عندما نكون في المنزل.

– نظام المراقبة بالفيديو بدائي، ولا يغطّي سوى بوّابة الدخول.

– أخبرتكِ من قبل: لا أحبّ أن أُصوَّر.

– في العادة، عائلة مثل عائلتك توظّف حارسًا شخصيًّا واحدًا على الأقلّ، خاصّةً أنّ لديك غرفةً لإيوائه. ألا تخافان على طفليكما؟

– أعلّمهما ألّا يعيشا في الخوف. وهذا ينطوي تحديدًا على رفض الحماية المفرطة الوهميّة.

– هل لزوجتك أعداء؟

– من الواضح أنّ لديها بما أنّها قُتلت.

– مَن قد يحمل ضغينةً تجاه أوريانا؟

– أظنّ أنّه بعد عامٍ من التحقيق لا بدّ من أنّكم نقّبتم قليلًا عن جوابٍ لهذا السؤال.

– سوف نصل إلى ذلك سيّد ديلوناي، لكن ما رأيك أنت؟

– رأيي أنّكم فاشلون. الجميع يعلم بإخفاقات الشرطة والنظام القضائي الفرنسي. أنتم لا تحمون المواطنين. تحلمون بتعليق رجلٍ مثلي على حبل المشنقة لأنّني ثريّ ومشهور، لكنّكم غير أكفاءٍ لدرجة أنّني لا أحتاج حتّى إلى محامٍ للدفاع عن نفسي.

غير منزعجةٍ البتّة، فكّرت جوستين في نفسها أنّ المشتبه فيه بدأ يفقد هدوءه. وهذه علامة جيّدة.

– عندما أظهرنا لك قائمة الأشياء التي كانت زوجتك تحملها على القارب، أشرت إلى ساعةٍ ثمينةٍ مفقودة.

– ساعة نوتيلوس من باتيك فيليب، من الذهب الوردي والماس. كنتُ أهديتُها لها بمناسبة ذكرى تعارفنا العشرين.

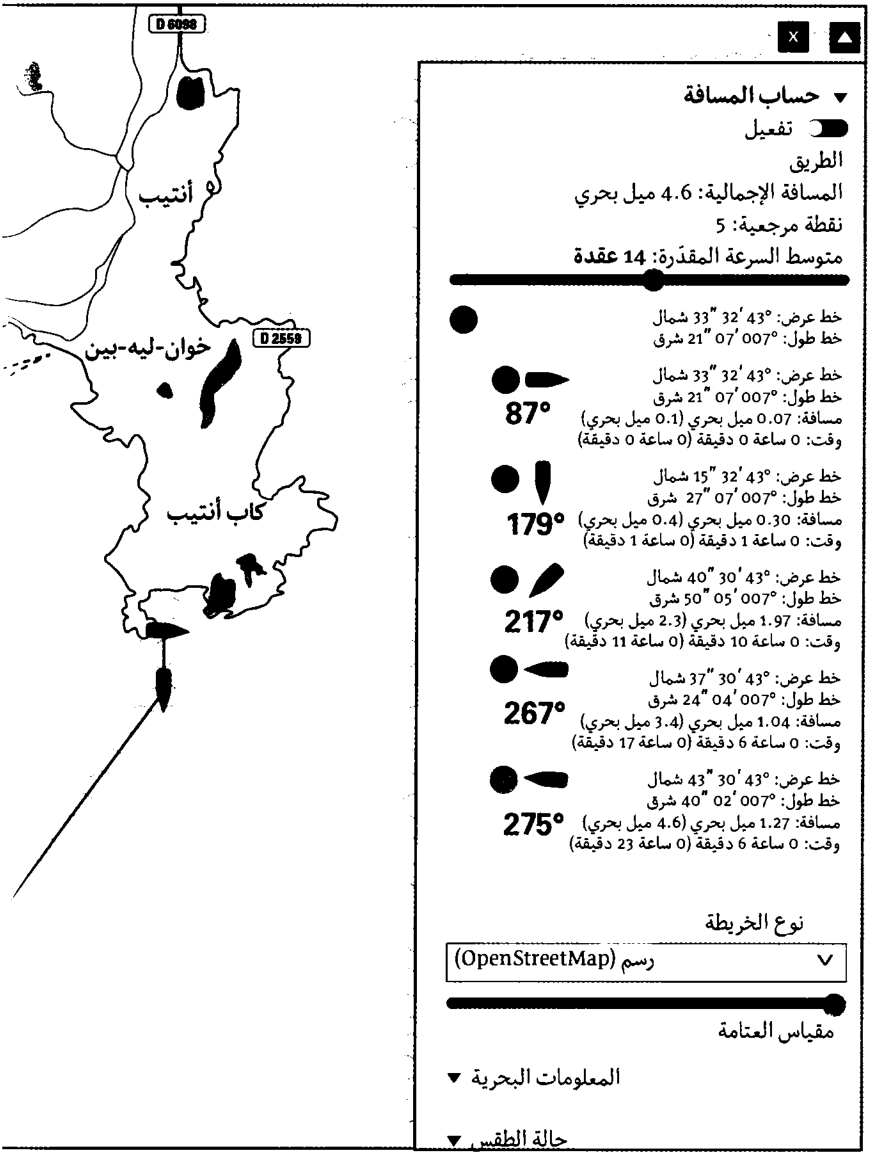
D 6098
أنتيب
خوان-ليه-بين
D 2559
كاب أنتيب
حساب المسافة
تفعيل
الطريق
المسافة الإجمالية: 4.6 ميل بحري
نقطة مرجعية: 5
متوسط السرعة المقدّرة: 14 عقدة
خط عرض: °43 '32 "33 شمال
خط طول: °007 '07 "21 شرق
خط عرض: °43 '32 "33 شمال
خط طول: °007 '07 "21 شرق
مسافة: 0.07 ميل بحري (0.1 ميل بحري)
وقت: 0 ساعة 0 دقيقة (0 ساعة 0 دقيقة)
87°
خط عرض: °43 '32 "15 شمال
خط طول: °007 '07 "27 شرق
مسافة: 0.30 ميل بحري (0.4 ميل بحري)
وقت: 0 ساعة 1 دقيقة (0 ساعة 1 دقيقة)
179°
خط عرض: °43 '30 "40 شمال
خط طول: °007 '05 "50 شرق
مسافة: 1.97 ميل بحري (2.3 ميل بحري)
وقت: 0 ساعة 10 دقيقة (0 ساعة 11 دقيقة)
217°
خط عرض: °43 '30 "37 شمال
خط طول: °007 '04 "24 شرق
مسافة: 1.04 ميل بحري (3.4 ميل بحري)
وقت: 0 ساعة 6 دقيقة (0 ساعة 17 دقيقة)
267°
خط عرض: °43 '30 "43 شمال
خط طول: °007 '02 "40 شرق
مسافة: 1.27 ميل بحري (4.6 ميل بحري)
وقت: 0 ساعة 6 دقيقة (0 ساعة 23 دقيقة)
275°
نوع الخريطة
رسم (OpenStreetMap)
مقياس العتامة
المعلومات البحرية
حالة الطقس

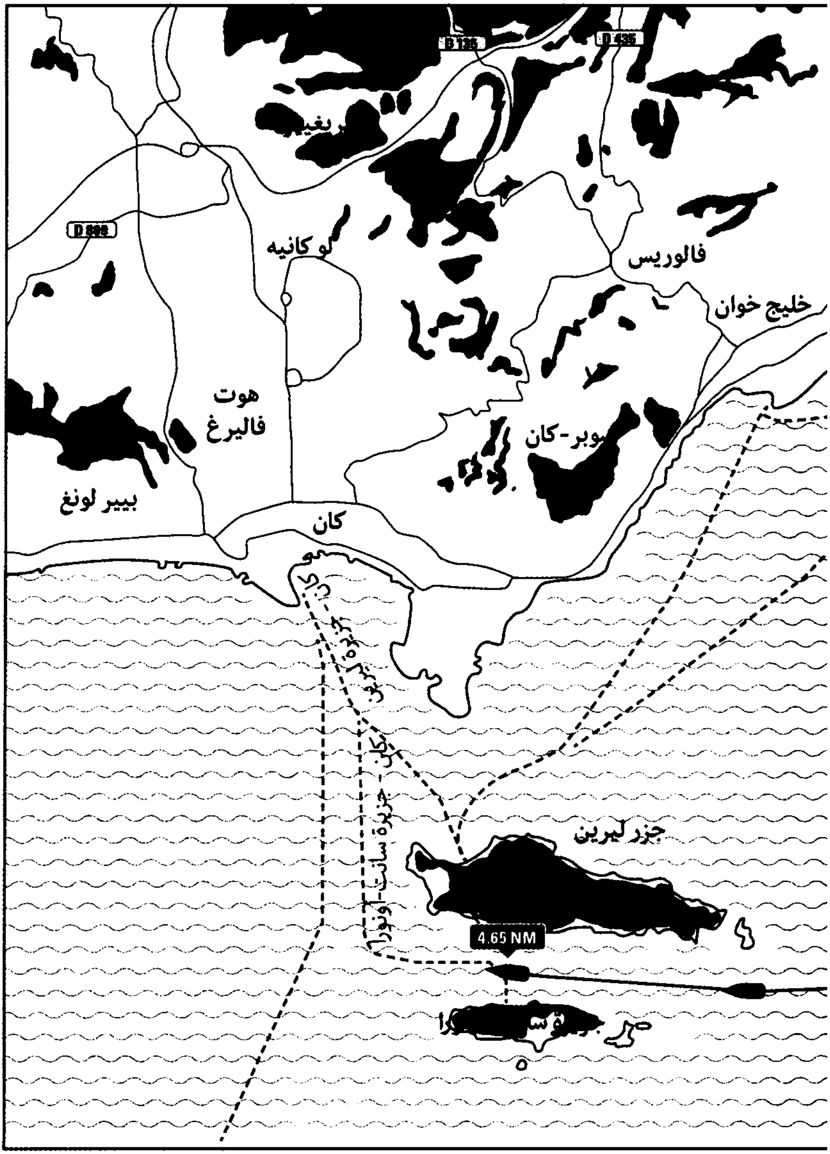
D 435
لو كانيه
فالوريس
خليج خوان
هوت
فاليرغ
بيير لونغ
كان
جزيرة سانت أونورا
جزر ليرين
4.65 NM

– بحثتُ عن السعر على الإنترنت: أكثر من 200 ألف يورو! هذا جنون، لم أكن أعلم أنّ ساعةً ما يمكن أن تكون بهذا الثمن. هذا سعر شقّةٍ من غرفتين.

بدا ديلوناي متعبًا جدًّا.

– وما سؤالكِ؟

– هل أنت متأكّد من أنّها كانت تضعها في ذلك اليوم؟ سألت الشرطيّة.

– هي تضعها دائمًا.

– هل تعتقد أنّ من قتلها سرق الساعة؟

– الأمر جليٌّ بالنسبة إليّ. من غيره؟ شرطيّ؟ إطفائيّ؟ إحدى الطالبتين؟

شكّلت هذه الساعة لغزًا. لأشهرٍ عدّة، كان فريق تاياندييه يمسح مواقع بيع الساعات المستعملة، ويتّصل بتجّار المجوهرات في المنطقة من دون جدوى.

– إذن، هذه الساعة، كانت بمناسبة الذكرى السنويّة العشرين. نادرًا ما يبقى الزوجان معًا مدّة عشرين سنةً في أيّامنا.

بقي ديلوناي جامدًا كالحجر، يحدّق في بقعةٍ غير مرئيّةٍ في السقف.

.3

– بعد عشرين سنة، بالمناسبة، كيف كانت علاقتكما؟

– في أفضل حال.

نظرت جوستين إلى ملفٍّ مفتوحٍ أمامها.

– إلّا أنّكما كنتما تتشاجران، وأحيانًا أمام شهود.

– كانت أوريانا هكذا، دراميّة. كان الشجار، والصراع، شكلًا من أشكال الحوار بيننا.

– أكّد الطفلان أنّكما كنتما تتشاجران كثيرًا. وكان هذا يضايقهما.

– طفلاي يشعّان بهجةً وحبًّا للحياة. ما يضايقهما هو فقدانهما لوالدتهما وأنّنا ما زلنا لا نعرف من قتلها.

– سيّد ديلوناي، سأطرح عليك هذا السؤال بصراحة، وبلا لفٍّ ودوران: هل كنت تعنّف زوجتك؟

– هل فقدتِ صوابكِ؟

– ادّعى الموظف المسؤول عن حوض السباحة لديك أنّه رآك تمسك زوجتك بعنف لدرجة أنّك سبّبت لها كدمات.

هزّ رأسه.

– رجلٌ طردته قبل عامين لأنّه كان يحضر إلى العمل بحسب مزاجه. هل هذا شاهدٌ يؤخذ بكلامه بالنسبة إليكِ؟

– لم يحدث هذا قطّ؟

– أبدًا.

– في بعض الصور، نرى أنّه منذ عام 2020 تظهر ندبةٌ على أعلى أنف زوجتك.

– ارتطم أنفها بحوض السباحة أثناء الغطس. لم أكن هناك حتّى. أعتقد أنّ هذا أيضًا، أخبركِ به طفلاي. كان ابني شاهدًا على الحادثة. لقد قمتم بتشريح جثّة أوريانا. هل كانت عليها كدماتٌ أو آثارٌ لإصاباتٍ قديمة؟

سكوت.

– أجل، لا تجيبي.

– وأنت، هل كانت تضربك؟

– دعكِ من هذا الهراء. لم يسبق لأحدٍ أن ضرب أحدًا في هذه العائلة.

نظرةٌ أخرى إلى ملفّها.

– كانت تكسر الأطباق في كثيرٍ من الأحيان، هكذا أخبرتنا مدبّرة المنزل التي تعمل لديك.

– حدث ذلك بضع مرّاتٍ، نعم. رمت طبقًا أو اثنين على الحائط عندما كانت مستاءة...

– ما كان سبب خلافاتكما؟

هزّ رأسه، منهكًا.

– خلافاتٌ زوجيّة كلاسيكيّة. هل أنتِ متزوّجة أيّتها القائدة؟

صمتٌ جديد من جوستين. كان مألوفًا أن يلعب المشتبه فيهم هذه اللعبة الصغيرة أثناء الاستجواب. وكانت تعرف عادةً كيفيّة تجييرها لصالحها، غير أنّها لم تكن تتحلّى اليوم بهذه القوّة للهجوم.

ومض إنذارٌ على شاشة الحاسوب المحمول. كانت جوستين قد رفضت في نهاية المطاف ارتداء سمّاعة الأذن، لكنّ كانديس لاشوم لم تفوّت أيّ حرفٍ من الاستجواب، وحذّرتها عبر رسالة: «لقد عرف ما يزعجكِ، نقطة ضعفكِ. احذري».

دلّكت الشرطيّة جفنيها. كانت تعرف جيّدًا كيف ينظرون إليها. في غضون عامين، فقدت كلّ عظمتها. باتت تحمل لقب السمينة التي تركها حبيبها من أجل فتاةٍ شابّة. ألهم وضعها السخرية والتعاطف الكاذب. الشماتة في كلّ مجدها. الفرح الخبيث أمام مصائب الآخرين. من المطمئن جدًّا للناس رؤية غيرهم يغرق. يشعرون فجأةً بأنّ حالتهم أفضل بكثير.

– كنّا نتشاجر، نعم، تابع أدريان. مشاحنات ناتجة عن الاحتكاكات اليوميّة والصعوبات الحياتيّة. هذه كانت طريقتنا

للاستمرار. تعرفين أغنية «La Chanson des vieux amants» لجاك بريل؟ يقول فيها: «أليس العيش في سلام هو أسوأ فخّ للعشاق؟». هذا كان دافعنا. أردنا تجنّب الوقوع في فخّ الروتين والعادة.

هذه المرّة، اغتنمت جوستين الفرصة.

– أحبّ أغاني بريل كثيرًا، وهذه الأغنية على وجه الخصوص. غالبًا ما تعزفها على البيانو خلال حفلاتك الموسيقيّة وقد قمت بتسجيلها. أعرف ذلك لأنّني اشتريتُ «الأسطوانة». وإن لم تخنّي الذاكرة، يقول بريل أيضًا: «بالطبع اتّخذتِ بعض العشّاق، كان لا بدّ لكِ من تمضية الوقت».

أطلق أدريان ضحكةً خفيفةً متوتّرةً إذ فهم مقصدها. تابعت:

– هل كان لزوجتك عشّاق، يا سيّد ديلوناي؟

– لا.

– تبدو واثقًا جدًّا من إجابتك.

– أثبتي لي العكس.

– وأنت، هل لديك عشيقة؟

– بما أنّكِ تراقبين كلّ تحرّكاتي، ما رأيكِ أنتِ في هذا الشأن؟

– أجبني من فضلك: هل سبق لك أن خنت زوجتك؟

– هذا ليس من شأنكِ. هذه حياتي الخاصّة.

– ليس من شيءٍ اسمه حياةٌ خاصّة في الحجز.

– أعيدي قراءة سولجنتسين: حريّتنا تُبنى على ما يجهله الآخرون عن حياتنا.

– هذا استجواب وليس درسًا في الفلسفة.

– مرّ عامٌ وأنتم تحقّقون. عامٌ لم أعرف فيه أيّ شيءٍ عن سير التحقيق رغم مطالبتي المتكرّرة بذلك. عامٌ تلمّح فيه شبكات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام إلى أنّني مذنبٌ في مكانٍ ما. عامٌ لا أعرف

فيه ماذا أقول لطفليّ عندما يسألان كيف ماتت أمّهما. عامٌ أتحمّل فيه العيش مع الشكّ في عيونهما عندما يخبرهما صبيٌّ في ملعب المدرسة أنّني أنا من قتلها!

– انفعالك لن يجدي نفعًا.

– هل لديكِ أطفال؟ سأل مجدّدًا.

– كفّ عن ذلك.

– تبًّا، هل لديكِ أطفال، نعم أم لا؟

اعترفت أخيرًا:

– لا، لكن هذا لا يمنعني من...

– بلى، يمنعكِ من الفهم. نحن لا نعيش على الكوكب نفسه، أيّتها القائدة. العالم ينقسم إلى قسمين: أولئك الذين لديهم أطفال والآخرون.

شعرت برغبةٍ مفاجئةٍ في صفعه، لكنّها بقيت جامدةً في مكانها. لو كان الأمر يعود إليها، لسار على نحوٍ مختلف. في العلن، أدّت لسنوات دور الشرطيّة التقدّميّة والإصلاحيّة، لكنّها في صميم قلبها لم تصدّق ولو لثانية واحدة تلك الخطابات التسامحيّة. هي مع أن تكون الاستجوابات أكثر تشدّدًا. وتفادي كلّ ذاك الهراء. الإمساك بالرجل من حلقه وعدم تركه أبدًا. وجب على المجتمع حماية نفسه من أعدائه. في ثكنة أوفار، في بداية حياتها المهنيّة، قبل إصلاحات عام 2011، تولّت استجواب تجّار مخدّرات صُفّدت أيديهم خلف ظهورهم، وجلسوا لساعات طويلة على مقعدٍ صغير. كان من الشائع في تلك الفترة حرمان المشتبه فيهم من النوم لمدّة ثمانٍ وأربعين ساعة. كذلك، أخبرها بيرغومي عن ظروف اعتقال أشدّ قسوةً في الثمانينيّات والتسعينيّات عندما نُقل إلى مرسيليا. فقد كان عضوًا في مجموعة باتاييه التي اشتهرت باعتقال راينالد فيفيركورن الملقّب

بـ«البستاني»، أحد أوائل القتلة المتسلسلين في العصر الحديث. ولإجباره على الاعتراف بالمكان الذي أخفى فيه جثّة ضحيّته الأخيرة، عمد رجال شرطة مرسيليا إلى عصر رقبته بحزام لدرجة أنّه وجب إنعاشه.

طردت جوستين هذه الأفكار وتنفّست بهدوء. لم يكن الوقت مناسبًا للانهيار. كانت قد تقبّلت فكرة أنّ هذا الاحتجاز سيكون بمثابة ماراثون وأنّها ستترقّب اللحظة المناسبة للكشف عن أوراقها. لن ترميها مباشرةً. ستترك عازف البيانو يقول نسخته من الحقيقة في هذه الجولة من المراقبة، ثمّ اللعب على رهاناتٍ أكبر.

– اِطمئنّ، سيّد ديلوناي: أعتقد أنّنا عثرنا على قاتل زوجتك. ستتمكّن قريبًا من إبلاغ طفليك.

8

أوريانا دي بييترو
ما نسعى إليه

– ما أكثر ما تطمح إليه في الحياة؟
– أن أغدو خالدًا ثمّ أموت.

حوار من فيلم «À bout de souffle» للمخرج جان-لوك غودار

قبل ثمانية عشر شهرًا
16 أكتوبر 2022
باريس

1.

في الطبقة السادسة من فندق بريستول، سمحت النوافذ الكبيرة بتغلغل ضوءٍ ذهبي. كان حوض السباحة المكسوّ بخشب الساج والمفتوح على السماء أشبه بظهر مركبٍ شراعي يبحر فوق أسطح باريس. وتَعزّز هذا الانطباع من خلال لوحتين جداريّتين تصوّران، الأولى من الأمام والثانية من الخلف، سفينةً تلامس سواحل المتوسّط المتعرّجة.

لمسَت أوريانا حافّة المسبح منهيةً دورة ذهابها وإيابها العاشرة. نزعت نفسها من الماء والتقطت روب الحمّام ثمّ لجأت إلى كرسيّ استرخاءٍ خشبي مطليّ بالورنيش.

ذهبت الشمس تاركةً وراءها حمرة الغسق وبعض الضوء الخافت. كان الجوّ حارًّا عبقًا بنسيم البحر. مسحت أوريانا جبينها، ونظرت خارجًا إلى السحب الأرجوانيّة التي كانت تتبدّد خلف المباني. ماذا لو كان الموت مماثلًا؟ أرادت أن تطمئن نفسها. رحلة طويلة الأمد، وهادئة، بمنأى عن ضوضاء العالم وجنونه. تحليقٌ تأمّلي، بعيدٌ جدًّا وقريبٌ جدًّا من عالم الأحياء.

لفتت انتباهها رائحة حمضيّات مدخّنة، تلاها حفيفٌ خفيٌّ من خلف أوراق شجرة البرتقال المزروعة في أصيص. استدارت. كانت أديل كيلر هنا، تقف أمامها متأهّبةً. شعرت أوريانا بوجودها قبل أن تراها، كان ذلك شبيهًا باقتحام أختٍ توأم لعمق خصوصيّتها.

– مساء الخير سيّدة دي بييترو.

– سبق أن طلبت منكِ أن تناديني بأوريانا.

بحركةٍ من يدها، أومأت المرأة الإيطاليّة للشابّة للاقتراب، ثمّ تابعت:

– على الأقلّ، جئتِ. وهذا يثبت أنّكِ ذكيّة، رغم أنّني لم أشكّ يومًا في ذلك.

– كيف يمكنكِ أن تكوني متأكّدة لهذه الدرجة؟

– هي ميزةٌ ورثتها عن والدي: الحدس. وهذا ليس مجرّد كلام. أشعر حقًّا بما في أحشاء الناس وعقولهم. لطالما كان هذا مصدر قوّتي، حتّى إنّه أنقذ حياتي مرّة أو مرّتين عندما كنتُ مراسلةً حربيّة.

– احترسي من حدسكِ معي.

لم تستطع أوريانا قمع ابتسامةٍ طفيفة.

– تعجبينني كثيرًا عندما تتحدّينني. أسلوبكِ المتبجّح يجعلكِ لا تقاوَمين. لكن اجلسي لخمس دقائق، لديّ قصّة أخبركِ بها.

تـردّدت مـديـرة الـغـرف قـلـيلًا، ثـمّ رضـخـت أخـيـرًا وجلست على كرسيّ الاستلقاء المجاور، مستقيمة الظهر لاصقةً ركبتيها الواحدة بالأخرى.

– تفضّلي.

أخذت أوريانا رشفةً من الماء قبل مباشرة حديثها.

– تبدأ قصّتي في الأوّل من فبراير عام 1991. كنتُ في السادسة والنصف من عمري. في ذلك اليوم، حضرت والدتي، النحّاتة آنّا ماريا دي بييترو، لتقلّني بالسيّارة من المدرسة. كان بعد ظهر يوم الجمعة، والطقس جميلًا في ميلانو. كنّا قد خطّطنا للانضمام إلى والدي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الشاليه الذي نملكه في منتجع كورتينا دامبيدزو للتزلّج.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانتا الآن الزبونتين الوحيدتين في المسبح. امتزج الضجيج المنبعث خافتًا من غرفة التسخين مع هدير الماء.

– كم كنت أحبّ أن أركب السيّارة مع والدتي! سيّارة مازيراتي باللون الأحمر الزاهي. كانت تقطع الكيلومترات بأقصى سرعة، وصوت الموسيقى يصدح بأعلى مستوى. كان العصر الذهبي لموسيقى البوب الإيطاليّة: زوكيرو، رامازوتي، كوتوغنو...

كانت أوريانا تتحدّث ببطء، وعيناها نصف مغمضتين، تاركةً الوقت لذكرياتها لتطفو على السطح، على وقع أغنية «Una storia importante» تتردّد في خلفيّة أفكارها.

– وصلنا إلى بيرغامو عند الخامسة مساءً، وبعد ساعةٍ إلى فيرونا، ثمّ بادوفا، والبندقيّة، وتريفيزو حيث اجتزنا الطريق السريع. وقع الحادث بعد مسافةٍ قصيرةٍ من بلّونو، في الدولوميت، عند النقطة التي يبدأ فيها الطريق بالارتفاع مع منعطفاتٍ حادّة.

كانت أديل تنصت في صمت، بلا حراك. تكشّفت الصور في ذهنها، مرسومةً بألوانٍ دافئةٍ ومشرقةٍ كما في الأفلام القديمة بالتكنيكولور. تصوّرت السيّارة السريعة، والطريق الجبلي، والتعرّجات الضيّقة.

تابعت أوريانا:

– كنتُ في المقعد الخلفي مع دفتر ملاحظاتي، وعلبة أقلام التلوين المائيّة، وقطّتي. كان والداي قد أهدياني إيّاها بمناسبة عيد ميلادي في الصيف السابق. قطّةٌ رائعة من فصيلة سكوتش فولد، ذات فروٍ ناعمٍ وكثيف، وجسمٍ مستدير، ووجهٍ صغير مذهل. سمّيتها غوفيتو، أي البومة الصغيرة بالإيطاليّة. وكانت والدتي قد وافقت على جلبها معنا بشرط أن تسافر في قفص السفر. كرّرت على مسمعي

المرّة تلو الأخرى: «المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟». وفي كلّ مرّةٍ كنتُ أجيب: «نعم، يا أمّي».

كان الفيلم يدور في ذهن أديل بأدقّ التفاصيل كما لو كانت ذكرياتها الخاصّة. السيّارة الرياضيّة الحمراء مسرعةً على الطريق المتعرّج. الدُوار بسبب المناظر الجبليّة، الغابة الخضراء القاتمة، ثمّ تقترب الصورة من وجه آنّا ماريا التي تغنّي بأعلى صوتها وعلى وجهها ابتسامةٌ مشرقة. تستقرّ العدسة على عينيها اللتين تشردان عن الطريق للحظة لكي تنظر إلى أوريانا الصغيرة في المرآة. «المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟»، «نعم، يا أمّي».

– كان الصندوق في حضني، تابعت أوريانا. من خلال القضبان الحديديّة، تمكّنتُ من رؤية أذنَيْ غوفيتو المطويّتين، وعينيها النحاسيّتين الدائريّتين، وخطمها المتجعّد الذي يجعلها تبدو مبتسمةً دائمًا. جعلت قلبي يذوب حنانًا. أردتُ أن أداعبها وأعانقها. حاولتُ أن أقاوم بقدر ما استطعت، لكن...

– لكنّك فتحتِ القفص، خمّنت أديل.

– نعم. أردتُ أن أحمل هرّتي بين ذراعيّ. لكنّ الحماسة استولت عليها فأفلتت منّي وقفزت إلى المقعد الأمامي. بُغتَت والدتي وحاولت الإمساك بها، لكنّ القطّة اختفت تحت الدوّاسات. سحبت فرامل اليد حتى لا تسحقها، ففقدت السيطرة على السيّارة التي كانت منطلقةً بسرعةٍ كبيرة. ارتطمت سيّارة المازيراتي بجدار. حلّقت للحظة في الهواء قبل أن تنقلب في الشجيرات وتتحطّم على عمق ثلاثين مترًا أسفل المنحدر.

صديقي غوفيتو

.2

انعكست الأضواء الخافتة والمتراقصة على المرآتين راسمةً مشهدًا أشبه بمسرح خيال الظلّ على الألـواح الخشبيّة المعتّقة. ظهرت إحدى الموظفات لفترةٍ وجيزةٍ لإشعال الشموع التي فاحت منها رائحة العسل وزهر البرتقال. كانت أوريانا تستعيد المشهد الذي صدمها في طفولتها بتفاصيله.

– انقلبت السيّارة مـرّاتٍ عـدّة، وتوقّفت أخيرًا منقلبةً على سطحها. تمكّنت، رغم إصابتي، من انتشال نفسي من الهيكل الذي كان يتصاعد منه الدخان. لا يمكنني أن أنسى الصمت المطبق الذي أعقب ضجيج الحادث. نظرة أمّي الفارغة ووجهها المغطّى بالدمّ، فيما تركتها في جحيمها.

رفّت عينا أديل. رأت صور تدهور السيارة في ومضاتٍ سريعة أشعلت النار في جفنيها. محطات الراديو تتداخل، مشهد الغوص في الهاوية، والسيّارة التي اشتعلت فيها النيران، ووجه آنّا ماريا الجامد والملطّخ بالدماء، وشعرها المبعثر عبر الزجاج الأمامي.

– عندما استعدتُ وعيي كنتُ في المستشفى. عمل رجال الإطفاء ساعاتٍ عدّة لانتشال والدتي من السيّارة. كانت حالتها مأساويّة: رئة مسحوقة، وقفصٌ صدري غائر، وكسور، وحالات نزفٍ متفرّقة. تُوفّيت بعد ساعاتٍ قليلةٍ من دخولها المستشفى.

كان الليل قد حلّ. في الخارج، بدت قبّة المعهد الفرنسي وفانوسه المضاء قريبين جدًّا. على السطح الذي يطوّق الطبقة السادسة، كان صفّ كراسي الاستلقاء أشبه بسورٍ مسنّنٍ لقلعةٍ محصّنة.

– هذا المشهد هو الحدث المؤسّس لوجودي. شقّ حياتي من جذورها. كارثةٌ حطّمت جسدي أوّلًا. ثمّ تركتني أعيش لأكثر من ثلاثين عامًا مُحمّلةً بهذا السرّ الرهيب: لقد قتلتُ أمّي.

اعترضت أديل قائلةً:

– هذا ليس صحيحًا. كان حادثًا.

– حادث تسبّبتُ به أنا.

– ليس عمدًا.

– صدّقيني، الفارق بسيط. لقد عصيتُها، وبسببي، ماتت. لم أخبر أحدًا عن هذا الأمر باستثناء طبيبي النفسي. كان والدي يقدّس والدتي. وموتها كسره. بعد رحيلها، قسا قلبه، وفقد الاهتمام بكلّ شيء. واصل ممارسة أعماله، ولكن بطريقةٍ آليّة، من دون أيّ عاطفةٍ أو شغف. تزوّج بامرأةٍ بغيضةٍ وأنجب طفلًا آخر لم يعتنِ به كثيرًا. عندما أصيب بالمرض في ربيع عام 2021، قرّرتُ أن أخبره بالحقيقة. بعد ثلاثين عامًا.

– وهل كان ذلك ضروريًّا؟

هزّت أوريانا رأسها.

– تـردّدتُ لفترةٍ طويلة، لكنّ هـذا السرّ كـان يلتهمني من الداخل. احتجتُ بشدّة إلى أن يسامحني والدي. أن يغفر لي. أحيانًا كنتُ أقنع نفسي بأنّه يشتبه في ما اقترفتُه. لكنّني كنتُ مخطئة. عندما أخبرتُه الحقيقة، نظر إلـيّ، مرعوبًا ومـذعـورًا، وتعرّض لنوبةٍ أخرى. تُوفّي بعد أيّامٍ قليلة.

اندهشت أديل من التحوّل الذي اتّخذه مجرى القصّة.

– بعد جنازته، كنتُ أشعر بحزنٍ شديدٍ، فذهبت إلى ذلك الفندق في اليونان لأستريح مع طفليّ. كنتُ في الحضيض، تهاجمني أكثر الأفكار سوادًا: الانتحار، دخول مصحّ... حتّى باولو وصوفيا لم يعودا قادرين على ترسيخ الحياة فيّ. كان زوجي ملتزمًا بسلسلة حفلاتٍ موسيقيّة ومربيّتنا عادت إلى إنكلترا. طلبتُ من الفندق أحدًا لمساعدتي، وهنا ظهرتِ أنتِ، أديل. اعتنيتِ بطفليّ بطريقةٍ ممتازة. كنتِ دائمًا تجدين الكلمات المناسبة. رقيقة، لكن صارمة. مطمئِنة، لكن واقعيّة. قدومكِ أنقذني من الانهيار، وفكّرتُ فيكِ كثيرًا بعد ذلك.

– ولكن لماذا تخبريني بهذا اليوم؟

– لأنّني سأموت.

– آسفة، لكنّي لا أرى العلاقة بين الأمرين.

نهضت أوريانا عن كرسيّها لتجلس بجانب المربّية. كان حوض السباحة مغمورًا بإنارةٍ حالمة، فيما عكست شعلة الشموع المرتجفة ظلالًا مضطربة ومتحرّكة، وكأنّها تتآمر همسًا في زوايا الغرفة الأربع. حتى شخوص اللوحة الجداريّة بدَت كأنّ فيها شيئًا من الحياة.

– في كلّ مرةٍ أتيحت لي الفرصة لمراقبتكِ، كانت الفكرة نفسها تخطر في ذهني: ستكونين زوجةً رائعةً لزوجي.

دفعت الدهشة بأديل إلى الوراء قليلًا.

– ما الذي تتحدّثين عنه؟ علاقة ثلاثيّة؟

– نوعًا ما، لكن ليس كما تتخيّلين. أقترح عليكِ أن تأخذي مكاني.

.3

– آخذ مكانكِ؟

– أنا جادّةٌ جدًّا. أخبرتكِ هذا الصباح أنّني مصابةٌ بورم وأنّ حكم الموت قد صدر.

– لكن لا، لا يمكنكِ قول ذلك بهذا الشكل الحاسم. أنتِ مناضلة، ستواجهين المرض و...

قاطعتها قائلةً:

– لا علاج للورم الأرومي الدبقي من الدرجة الرابعة. في غضون شهرين أو ثلاثة سأكون قد متّ. ومن هنا اقتراحي.

– ولكن أيّ اقتراح؟

– أريدكِ أن تأخذي مكاني بجانب زوجي وتعتني بطفليّ.

نهضت أديل من الكرسي وهي تهزّ رأسها.

– لكن هذا غير معقول!

– بالعكس، سيكون مفيدًا للجميع.

– أنا لا أعرف زوجكِ. لم يسبق لي حتى أن رأيته! كيف تريدين أن...؟

– سوف تحبّينه، أنا أضمن لكِ ذلك. الجميع يحبّ أدريان.

– وهو؟

– سوف يحبّكِ أيضًا. أنتِ بالضبط من النوع الذي ينجذب إليه: شقراء، ناعمة، مراعية، وهادئة.

خطر في ذهن أديل شيء قرأته. ميلاني هاميلتون، شخصيّتها المفضّلة في رواية «ذهب مع الريح». الشخصيّة الأكثر كرمًا في التاريخ التي، قبل وفاتها مباشرةً، طلبت من تلك الأفعى سكارليت أن تعتني بزوجها وابنها.

– لماذا أنا؟

– ها قد مضت عشرون دقيقة وأنا أشرح لكِ لماذا أنتِ! أوّلًا، لديّ ثقةٌ بقدرتكِ على رعاية طفليّ. ثمّ أظنّ أنّكِ تشبهينني.

– أنا لا أشبهكِ أبدًا. ليس بيننا أيّ قواسم مشتركة!

– بل نتشارك أكثر ممّا تظنّين.

استولى دوارٌ على أديل. جعلت رائحة الشموع المسكرة والجانب السريالي الذي اتّخذته هذه المناقشة كلّ شيءٍ يدور من حولها. لماذا كانت تواصل الانخراط في هذا الجدال العقيم؟ لمَ كانت تلعب لعبة أوريانا المنحرفة؟ دفعتها غريزة البقاء إلى التراجع.

– لن أتمكّن من فعل ذلك!

– سأفعل ذلك معكِ. لا أقول لك إنّ اللعبة ستكون سهلة، لكن يمكننا الفوز بها.

– أنتِ... أنتِ تسخرين منّي.

– أنا جادّة، قلت لكِ.

كانت أديل في حالة ذهول، أسيرة شعوذةٍ لم تكن قادرة على الإفلات منها. ولاستفزاز أوريانا، ركّزت على موقف الأخيرة من الأمر.

– لمَ أنتِ متأكّدة من أنّني سوف أعجب زوجكِ؟

– لأنّني أعرفه جيّدًا. ويمكنني تزويدكِ بالمفاتيح إلى قلبه.

– وطفلاكِ؟

– يحبّانكِ أصلًا وسوف يتقبّلانكِ عندما يفهمان أنّكِ من سيسمح باستمراريّة الأسرة بعد وفاتي.

– لكن... وأنتِ؟ كيف يمكنكِ أن تتخلّي عن أغلى ما لديكِ؟

ارتسمت ابتسامةٌ خائبةٌ على وجه المرأة الإيطاليّة.

– لأنّني أنانيّةٌ ومصابة بجنون العظمة. ولأنّ اختياري للشخص الذي سأترك أغلى ما لديّ بين يديه هو وسيلةٌ للاحتفاظ به نوعًا ما.

– لكن لديكِ عائلة يمكنها رعاية طفليكِ.

– ليس لديّ أحد، كما أخبرتكِ. أمّي وأبي ماتا. أخي غير الشقيق معتوه، وزوجة أبي ساذجة وواقعة تحت سطوة من كان اليد اليمنى لوالدي، الرجل المستعدّ لفعل أيّ شيء ليصبح الخليفة مكان الخليفة. أنا أكره هؤلاء الأشخاص. إنّهم يخيفونني، وأنتِ أيضًا يجب أن تأخذي حذركِ منهم.

– وحياتي أنا، هل فكّرتِ فيها؟ لديّ الحقّ في اختيار من أحبّ، والطريق الذي أريد أن أسلكه، ومع من أريد أن أسلكه.

– كوني واقعيّة. أنت تعلمين جيّدًا أنّ ما أقدّمه لكِ هو ما يحلم به أيّ إنسان. حياة مثاليّة على طبقٍ من فضة. الحلم المنشود. أفضل من أن أخبركِ أنّك ربحتِ ثروة في اليانصيب.

– تريدين أن تتحكّمي في موتكِ، لكن أنا، لا أريد أن أتخلّى عن حياتي.

– ما هذه الإجابة الفارغة؟ حياتكِ. ما هي حياتكِ؟ وظيفة وشقّة خادمة...

– ربّما، لكنّي على الأقلّ على قيد الحياة، بينما أنتِ، على حافة قبركِ.

تنهّدت أوريانا. بدت الصفقة فجأةً أصعب ممّا كانت تحسَب. لعلّها أخطأت في اختيار أديل. وإن كان الأمر كذلك، فعليها ألّا تضيّع

المزيد من الوقت معها. لا بدّ لها من أن تغيّر استراتيجيّتها قبل أن يحرمها الورم من قدراتها. كانت تتصوّر مرضها على شكل قنبلةٍ عنقوديّة على وشك الانفجار وإطلاق مئات الشظايا. أحيانًا، تقنع نفسها بأنّها قادرةٌ على إبطاء تطوّر المرض، لكنّ ذلك لم يكن صحيحًا. في صباح أحد الأيّام، سوف تطلق القنبلة شحنتها المتفجّرة، مبعثرةً عددًا كبيرًا من القذائف القاتلة في مختلف أنحاء جسدها، وستكون تلك هي النهاية. حدّقت في عينَيْ أديل وحاولت استخدام زاوية هجومٍ جديدة.

– أتعرفين عبارة نيتشه: «الأخلاق هي غريزة القطيع الموجودة داخل كلّ فرد»؟

– لا.

– يعتقد نيتشه أنّ الأخلاق السائدة تنبع من استياء الضعيف من القويّ. للانتقام من عجزهم، سيسعى الضعفاء إلى عكس القيم وفرض رؤيتهم الخاصّة للخير والشرّ.

لمعت عينا المربّية. كانت هذه إحدى السمات التي بهرتها بشأن أوريانا. يكون الحديث عن الملابس، أو المكياج، أو آخر تصاميم حقيبة ليدي ديور، فتخبرك فجأةً عن الجمال من منظور إيمانويل كانط، أو جورج هيغل، أو أوسكار وايلد، وذلك بأسلوبٍ آسرٍ لا يمكن تجاهله. أكملت الإيطاليّة فكرتها:

– يقابل نيتشه أخلاقيّة الضعفاء هذه بأخلاقيّةٍ أرستقراطيّة. تلك التي ينشئها أفراد متفوّقون سوف يتبعون قيمهم وقواعدهم الخاصّة.

– لماذا تخبرينني بهذا؟

– لأنّه ليس لديكِ غريزة القطيع. لستِ مخلوقةً للانصياع للقوانين ورداءة الجماهير. لقد خُلقتِ لتحرّري نفسكِ من كلّ هذا. خُلقتِ لتعيشي حياةً مثل حياتي. خُلقتِ لتعيشي حياتي.

– كلماتٌ ليس إلّا.

– على العكس، الأمر ملموسٌ للغاية. أستطيع أن أغيّر حياتكِ ويمكنكِ تغيير ما بقي من حياتي.

في حوض السباحة، شوّهت التموّجات على سطح الماء التصاميم الهندسيّة للفسيفساء البيضاء والزرقاء.

– أظنّ أنّ المرض جعلكِ تفقدين توازنك وتقديركِ للأمور. لستِ صاحية، يا أوريانا.

– فكّري في عرضي.

– لقد فكّرت. الجواب هو لا.

الصندوق

«ما الذي لم تفهمه في هذه الجملة؟».

ناثان فاولز

المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟
المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟
المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟
المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟
المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟
الــمــهــمّ أن **لا** تــفــتــحــي الــقــفــص
الــمــهــمّ أن لا **تــفــتــحــي** الــقــفــص
الــمــهــمّ أن لا تــفــتــحــي **الــقــفــص**

لا

تفتحي

القفص

اللعين!

9

أديل كيلر
ما يبهرنا

«كان الليل ينقضّ على النافذة. والقطار يندفع مسرعًا. أحسستُ أنّ الحياة نفسها تهجم عليّ، وأنّني أرتمي في أحضانها، في ذلك المجهول المخملي».

نينا بربيروفا

باريس، 16 أكتوبر 2022

.1

معطفي، وشاحي، سمّاعتا الإيربودز...

غادرتُ الفندق وأنا أشعر بالدوار كما لو كنتُ أتسلّل خلسةً من أمسيةٍ شربتُ فيها حتى الثمالة. لم يكن الجوّ باردًا، لكنّ رياحًا غير متوقّعةٍ هبّت في شارع فوبور-سان-أونوريه. ضيّقتُ حزام معطفي وأسرعتُ الخطى لمغادرة الحيّ. احتجتُ إلى استنشاق نفحة هواءٍ نقيٍّ تنسيني خطّة أوريانا دي بييترو المجنونة. وأنا أنصت إلى قائمة أغاني التانغونويفو، عبرتُ الشارع لاستلام جادّة مارينيي وسرتُ على طول حدائق الشانزليزيه.

ما برنامجي الآن؟ أمسيةٌ أخرى من مشاهدة مسلسلات نتفلكس مع هرّي؟ جولةٌ مع صديقاتٍ مزعجات؟ سهرةٌ في نادٍ ليلي لا أستطيع تكبّد تكاليفها؟ أفضّل أن أواصل السير بلا هدف، تاركةً أفكاري تسابق خطواتي من دون قيودٍ أو التزامات. ليس لديّ أيّ صديقٍ حقيقي وحياتي العاطفيّة عبارةٌ عن سلسلةٍ من خيبات الأمل. ابتسمتُ بمرارةٍ وأنا أفكّر في طلب أوريانا هذا الصباح بأن أهجر حبيبي. معلوماتها ليست محدّثة. لقد تخلّيت قبل أسبوعين عن هذا الرجل الذي لم يكن في الواقع سوى علاقةٍ عابرة عاديّة، لا أهميّة لها. منذ فترة، باتت زيارة تطبيقات المواعدة عبئًا عليّ أكثر منها متعة. لقاءاتٌ لا سحر فيها. ملفّاتٌ شخصيّة رديئة تتتابع وتتواتر. لقد غزا العصرَ رجالٌ ميؤوسٌ منهم، قابلون للاستبدال، مملّون. لا مكان للأحلام، ولا للرومانسيّة، ولا للإثارة. مجرّد وقتٍ ضائع ووعودٍ كاذبة، وخطط قذرة تترك مذاقًا مقرفًا في فمك.

ما إن وصلتُ إلى ساحة كونكورد حتّى رعدت السماء. اتّخذتُ ملجأً لبضع لحظات في محطة انتظار الحافلات. من خلف اللوحة الزجاجيّة المغشّاة بالبخار، انعكست أضواء دولاب الهواء وهو يدور ناشرةً بقعًا ملوّنةً في السماء القاتمة. رحتُ أتأمّل عبر قطرات المطر مشهد الهيئات المشوّهة للمارّة وسيّارات الأجرة، والحافلات، وهي تتقاطع في رقصة باليه متواصلة. دار في ذهني فجأةً شريط يومي العجيب، لكنّني لم أرغب في التوقّف عنده.

توقّف المطر، لكنّ الرياح اشتدّت. تابعتُ طريقي، وعبرتُ نهر السين لأجول لبعض الوقت على طوله، منغمسةً في موسيقى ليبرتانغو لآستور بيازولا وأشباح باريس. نقلتني أصوات آلة الباندونيون إلى أميركا الجنوبيّة. بدا العالم من حولي ضبابيًّا وغير واقعي، كأنّني أشاهده من وراء ستار. في خيالي، تصبّغت المباني الباريسيّة بألوان

الأرجنتين وتراصفت البيوت الملوّنة على ضفاف نهر السين. غطّت جداريّات كامينيتو الشعارات القذرة التي غزت العاصمة.

2.

ما إن نزعتُ سمّاعتَيّ حتّى بطل مفعول السحر. صفقتني حفلة الأبواق وصفّارات الإنذار فجأةً وقذفتني إلى الواقع القاسي والفوضوي. قادتني خطواتي من ميناء كونتي إلى مؤسّسة «موني دو باري»، بين جسر الفنون وجسر نُف. كان المبنى، في الليل، يشبه قصر الرخام على نهر نيفا. تشكّل طابورٌ أمام المدخل حيث أعلنت ملصقاتٌ عدّة عن برنامج الأمسية:

مهرجان جاز في سان-جيرمان-دي-بري

أدريان ديلوناي – عزف بيانو منفرد

الأحد 16 أكتوبر

ساحة الشرف في مؤسّسة «موني دو باري»

ما هذه الصدفة! كما لو أنّ أوريانا سيطرت على ذهني من دون أن أدرك ذلك. تسمّرتُ مكاني، وعيناي مصوّبتان نحو الملصق. بدا أدريان ديلوناي يحملق فيّ. شعرٌ مبعثر، أنفٌ مستقيم، فمٌ مرسومٌ بإتقان، لحيةٌ خفيفة، ونظرةٌ محجوبة جزئيًا بعدستي نظّارة زرقاوين.

نظرةٌ خاطفةٌ إلى ساعتي. يبدأ الحفل بعد عشر دقائق. تردّدتُ للحظة قبل صبّ الزيت على النار. كان هذا الحدث بمثابة هديّةٍ مسمومة، والطريقة الأسرع لرمي نفسي بين مخالب أوريانا. ثمّ، كيف أحصل على تذكرةٍ في اللحظة الأخيرة؟ نظرتُ حولي بحثًا عن أحد الباعة الجائلين الذين غالبًا ما نجدهم أمام أبواب المسارح وقاعات الحفلات الموسيقيّة. جلتُ حول الحشد ولمحتُ شابًّا ملتحيًا ممتلئ

الجسم يرتدي قميصًا بمربّعات وسترةً من الجينز، يخاطب الوافدين الجدد وهو يلوّح بلافتة من الورق المقوّى: بطاقتان للبيع.

– بِكم؟ سألتُه مشيرةً إلى اللافتة.

– مجّانًا إذا أردتِ مرافقتي.

بالنظر إلى مظهرك، الاحتمال معدوم...

– أفضّل أن أدخل وحدي.

– 200 يورو، إذن.

تـردّدتُ. مكلفٌ جدًّا بالنسبة إليّ. نظرتُ إلى الرجل المعتدّ بنفسه، والمنتصب أمام جـدار رُسمت عليه مِقصلةٌ مشطوبةٌ على عجلٍ بعبارة: «ماكرون كن حذرًا، يمكننا أن نبدأ من جديد».

– حسنًا، سآخذها، بطاقتك.

اقترح عليّ تحويل المبلغ عبر تطبيق ليديا – «هكذا تحصلين على رقمي إذا أردتِ احتساء مشروبٍ بعد الحفل» – وأخرج التذكرة من جيبه. تمعّنتُ بها من كلّ زاويـة، خوفًا من أن أكـون تعرّضتُ للنصب، لكنّي عبرتُ البابَ الضخم من دون أيّ مشكلة.

على الفور، انبهرتُ بجمال ساحة الشرف، وعظمة الأعمدة، والتصاميم المثلثة أو نصف الدائريّة التي تتوّج الأعمدة، وبالمسرح المشيّد في الهواء الطلق والمضاء بشموعٍ بحجم تلك التي نجدها في الكنيسة. تملّكتني الإثـارة وأنـا ألتحق بمقعدي بين الأزواج والمجموعات التي راحت تتمركز مكانها.

بدأ الحفل في الوقت المحدّد. بدون مقدّماتٍ سخيفة، ظهر أدريان ديلوناي على المسرح على وقع التصفيق، وجلس إلى البيانو ثمّ بدأ بالارتجال. في الدقائق الأولى، واجهتُ صعوبةً في التركيز. بهرني الديكور بالكامل. غموض الليل، الهواء الدافئ، الشعلات المتراقصة، الظلال المرتعشة على الواجهات.

للوهلة الأولى، بدا من الصعب تصنيف موسيقى ديلوناي. هي مزيجٌ من الموسيقى الكلاسيكيّة، والبوب، والجاز. تجلّى الاضطراب واضحًا على وجهه، وشرع في مواجهةٍ مُحتدمة مع آلته، مشيّدًا جدارًا فوضويًّا ومتنافرًا تنبثق منه أحيانًا بضع مقتطفات لديبوسي، وشوبرت، والبيتلز، وراديوهيد.

قطّب جبينه، أخذ يدير رأسه متمايلًا على كرسيّه وكأنّه عاجزٌ عن إيجاد الوضعيّة المناسبة. تعاقب الإيقاع في موسيقاه، ثمّ ضاع، وكأنّه يبحث عن مقطعٍ يتمنّع، ولا يستجيب له. شيئًا فشيئًا، انقشع الضباب. متأرجحًا بين البراعة وفقدان السيطرة، وجد فجأةً طريقه. تحوّل جدار النوتات الفوضويّة إلى أغنية. لحنٌ بلّوريٌّ متدفّقٌ مثل ماء النبع. أحسستُ بقلبي ينعصر. أغمضتُ عينيّ وتركتُ المشاعر تجتاحني. تبادر إلى ذهني غناء حوريّات البحر في الأساطير الإغريقيّة اللاتي فتنّ كلّ من استمع إليهنّ وقدنه إلى التهلكة. وأنا طافيةٌ في عالمٍ مجهولٍ، سقطت يدٌ على كتفي. قفزتُ في مكاني وفتحتُ عينيّ.

استدرتُ، فوجدتُ أمامي أوريانا دي بييترو.

3.

لم تنتظر انتهاء الحفل لتجرّني إلى حانةٍ قديمة في شارع باك. ركنٌ باريسي نموذجي يعجّ بجدرانٍ ملبّسة بألواحٍ خشبيّة، ومرايا، وطاولاتٍ مستديرة، ومقاعد جلديّة، وكراسيَّ خشبيّةٍ بطراز بومان. على الجدران، عُلّقت مصابيح نحاسيّة وملصقاتٌ لأفلام الموجة الجديدة في السينما الفرنسيّة.

طلبت أوريانا النبيذ الأبيض وبعض المقبّلات. أزعجتها الضوضاء في القاعة فطلبت نقل الخدمة إلى الخارج. شعرتُ بأنّها تحوّلت إلى شخصٍ آخر: مسترخية، واثقة من نفسها، راضية باستعادة

السيطرة. وكانت على حقّ: فقد بتُّ أبحر الآن في مغامرتها، على استعدادٍ لمرافقتها في جنونها.

– أتعلمين؟ على مدى السنوات العشر الماضية، دفعتُ مرّاتٍ عدّة لنساء لكي يحاولن إغواء زوجي. ولا أتكلّم عن عاهرات رخيصات بـ100 فرنك، بل أجمل المرافقات الأنيقات في ميلانو ونيويورك. فتيات لا يتوقّع أحدٌ أنّهنّ يحاولن بيع أيّ شيء.

– وما كانت النتيجة؟

– لم تنجح واحدةٌ في إضعافه.

– ما كان الهدف؟

– اختبار حبّنا.

– لا بدّ من أنّه شكّ في لعبتكِ، أليس كذلك؟

– لا أظنّ ذلك.

– إن فشلت كلّ تلك النساء، فلماذا أنجح أنا؟

– لأنّك لستِ مثلهنّ. لأنّكِ فريدةٌ من نوعكِ.

– توقّفي عن تكرار ذلك.

– تعرفين بالفطرة تحقيق التوازن الصحيح، واتّخاذ المسافة الصحيحة. في داخلكِ نقاءٌ قادرٌ على إبهار أدريان.

لوّحت بيدها للنادل لتطلب شيئًا ما، فركض رجلٌ قصير القامة وحليق الرأس فورًا برشاقة حاملًا منفضة سجائر.

– لم يعد زوجكِ يحبّكِ؟

أشعلت سيجارتها وهزّت رأسها منزعجةً، كما لو أنّني تفوّهتُ بسخافة.

– سواء أحببنا ذلك أو لا، تحمل بداية الحبّ دائمًا بذور نهايته بين طيّاتها. أمرٌ محزن، لكن هذه هي الحال. مع الوقت، يتسلّل

الفتور بين الزوجين. تكسبين الراحة والاستقرار، لكن على حساب الشغف والإثارة.

نفخت سيجارتها متلذّذةً بها، تاركةً لنفسها لحظة تفكيرٍ قبل المتابعة:

– لا أذكر من قال: «كلّ شيء يضنينا بعد فترة، حتّى الحبّ». وهذا صحيح. بمرور الوقت، لا يتغيّر الحبّ فحسب، بل تستنفدين قدرتكِ على إعادة ابتكار نفسكِ وخوض تجارب جديدة.

أومأتُ برأسي، رغم أنّ كلّ هذا بدا لي مجرّدًا للغاية.

– زوجي ملحد، لكنّه يبحث عن قوّةٍ ساميةٍ ما من خلال الموسيقى. لقد حضرتِ الحفل. رأيتِ كيف يبحث عن قوّة «خارجيّة»، مطلقة، زائلة وبعيدة المنال.

أشارت مرّةً أخرى إلى النادل ليسكب لنا المزيد من النبيذ. شعرتُ ببعض الضياع، والتعب، والحماسة. أحسستُ بجفنيّ يحترقان من وهج مدافئ البراسيرو الموزّعة على التّراس.

– إنّ من يؤلّف الموسيقى، يحتاج إلى العثور في داخله على المادّة التي تطلق العنان لمشاعره. غير أنّ هذا المخزون من الطاقة الإبداعيّة لا ينضح دومًا. يأتي وقتٌ يجفّ فيه. وهذا ما يحدث لأدريان. مرّت سنوات منذ أن أصدر ألبومًا حقيقيًّا. كان آخر ألبوم عبارةً عن إعادة إحياءٍ لقطع موسيقيّةٍ نشرها سابقًا، وحفلاتٍ أقامها، وبعض الارتجالات. في أعماقه، يعتقد أنّ خزانه نفد من الوقود. وما الذي قد يكون أكثر إلهامًا وغبطةً من عيش حبٍّ جديد؟

– هل تقصدين أنّ أدريان بات مهيّأً ليقع في الحبّ؟

– لقد فهمتِ كلّ شيء، لكنّ هذا لا يكفي. لكي يقع أدريان في حبّكِ، يحتاج إلى شيءٍ آخر. لا يمكنكِ اختراق عالمه إن كنتِ لا تملكين رموز الدخول. يمكنكِ التقرّب منه، لكنّه لن يسمح لكِ بالدخول.

ابتلعتُ كأسي لتخدير نفسي أكثر. كنتُ أرغب الآن حقًّا في المشاركة في هذه المحادثة، لكنّي بحاجة أوّلًا إلى أن لا أكون صاحية.

تابعت أوريانا وهي تشعل سيجارةً أخرى:

– لا يضرب البرق عشوائيًّا. أدريان هو أوّلًا وقبل أيّ شيء كائنٌ عقلاني. ينبغي أن يراكِ جديرةً بدخول مساحته الشخصيّة.

– لكنّي لا أملك هذه الرموز والمراجع الثقافيّة التي تتحدّثين عنها.

– لهذا السبب سأعلّمكِ إيّاها. سأعطيكِ المفاتيح السرّية لقلب زوجي. الكتب، والأفلام، والموسيقى، والكلمات المناسبة، والأفكار، والآراء: كلّ ما يشكّل أساس التجاذب الاختياري بين شخصين.

– إن فهمتُ جيّدًا، تطلبين أن أكون دميتكِ.

– بل أعرض عليكِ أن تكوني الأداة التي سأربح بها زوجي للمرّة الثانية. حسنًا، هلّا نبدأ بالعمل؟

10

جوستين تاياندييه
ما نخفيه

«جوهر الإنسان يسكن في الكذب».

جونيتشيرو تانيزاكي

الجمعة 24 مايو 2024، الساعة 6 مساءً
مركز الشرطة في نيس

1.

«لقد أصغيتُ بانتباه إلى روايتك سيّد ديلوناي، وأودّ منك توضيح بعض النقاط»، أعلنت جوستين.

كانت جوستين قد استأنفت الاستجواب منذ عشر دقائق بعد استراحةٍ دامت نصف ساعة استغلّتها لشرب القهوة، وتدخين سيجارة، ودخول المرحاض، مع الحرص على تجنّب المكتب الذي كانت تقدّم منه كانديس لاشوم المواعظ. حان وقت الجولة الثانية. ستنقّح فيها قائدة الشرطة أسئلتها، وتغوص في التفاصيل، وتسلّط الضوء على التناقضات في رواية عازف البيانو.

يقوم الاحتجاز لدى الشرطة على الفلسفة نفسها التي تتّبعها لعبة التنس: لكي تفوز، لا يكفي أن تعيد الكرة إلى ناحية الخصم، بل يجب أن تضربها بقوّة لتفرضها عليه فرضًا.

«في صباح اليوم الذي تعرّضت فيه زوجتك للاعتداء، قرّرت إلغاء حفل موسيقي في لوسيرن لأنّك مصابٌ بالأنفلونزا».

لم يكلّف أدريان ديلوناي نفسه للإيماءة حتّى. كان يجلس خلف الطاولة المعدنيّة، وبدأت تظهر عليه أمارات الانزعاج. تعبٌ، جبينٌ مقطّب، وآلامٌ في الظهر. كان قد فكّ كلّ أزرار قميصه البولو، كاشفًا عن جزءٍ من صدره المشعر، ومدلّكًا رقبته كلّ دقيقتين. تابعت جوستين بإلحاح.

– كنت قد تصدّرت العناوين لهذا المهرجان. انسحابك أحرج المنظّمين وسبّب خيبة أملٍ كبيرةً لدى الجماهير.

– هذه الأمور تحدث، أجاب جازمًا.

– سيّد ديلوناي، هل يمكنك أن تخبرني كم عدد الحفلات الموسيقيّة التي ألغيتها خلال مسيرتك غير هذه الحفلة؟

– بفف، لا فكرة لديّ.

– سأعطيك الجواب: ولا واحدة. خلال ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، حرصت دائمًا على احترام التزاماتك، حتّى عند تعرّضك لأزمةٍ صحّيّة.

بحثت جوستين عن ورقةٍ وسط كومة الملفّات الموضوعة أمامها، وتابعت:

– تواصلتُ مع العازفين الذين عملوا معك سابقًا، وكذلك مع منظّمي المهرجانات التي شاركت فيها. كلّهم أجمعوا على الثناء على التزامك الجدّي بالعمل، مهما كانت حالتك البدنيّة أو العقليّة.

ثمّ قرأت الملاحظات التي أخذتها:

– في بِروجة، على سبيل المثال، في عام 2006: قدّمت عرضك بينما كنت مصابًا بالتهاب الأذن. في عام 2011، عزفت في نيوبورت رغم سقوطك في اليوم السابق وتشنّج عضلات رقبتك. في عام 2015، حظي جماهير مارسياك بسماعك تعزف على الرغم من الإغماء الوعائي المبهي الذي أصابك أثناء التدريبات.

– وما استنتاجكِ من كلّ هذا؟

– أنّه لا يمكننا إنكار كم من الغريب أن تصادف المرّة الوحيدة في حياتك المهنيّة التي ألغيت فيها حفلًا موسيقيًا في اليوم نفسه الذي قُتلت فيه زوجتك.

– لا داعي حتّى لأن أردّ.

– يمكننا أن نفترض أنّها كانت الخطوة الأولى في خطّتك: إيجاد ذريعة للبقاء في ذلك اليوم على شاطئ الريفييرا الفرنسيّة عندما أدركت أنّ أمامك فرصةً لقتل زوجتك.

تنهّد.

– والخطوات الأخرى؟

انطلقت جوستين.

– الخطوة الثانية كانت التنظيم المنهجي لحجّة غيابك. أوّلًا، إبعاد الطفلين والمربّية بإرسالهم إلى السينما.

– هما من أرادا الذهاب، قاطعها قائلًا.

– أو بالأحرى، أنت من اقترحت عليهما ذلك باندفاع، أليس كذلك؟ من السهل التلاعب بالأطفال في هذا العمر. وفقًا للمربّية، أنت من اختار الفيلم أيضًا.

– لا أعرف حتّى ما كان.

– «الفرسان الثلاثة». فيلمٌ كان يُبثّ، في ذلك التاريخ، في مدينة كان، لكن ليس في أنتيب. فيلمٌ طويل يمتدّ على أكثر من

ساعتين، مقرّرٌ عرضه في وقتٍ متأخّرٍ نسبيًّا من بعد الظهر وينتهي عند الساعة 7:15 مساءً. ومع احتساب مدّة رحلة العودة، ضمنت عدم وجود الأطفال في الأرجاء قبل الساعة 8 مساءً.

– فأذهب وأقتل زوجتي بهدوء على متن قاربٍ بينما كنتُ أعاني من حمّى بلغت الأربعين درجة...

– تمامًا.

– حاولتِ أن تشرحي لي كيف قد يكون ذلك ممكنًا قبل بضع ساعات، لكنّي أعتقد أنّك فشلتِ فشلًا ذريعًا. حتّى مع كلّ الحجج التبريريّة المعقّدة التي يمكن تخيّلها، من المستحيل عمليًّا أن أكون على متن اليخت وقت وفاتها. أتفهّم خيبتكِ، لكن عليك أن تتعايشي مع واقع الأمر.

.2

– سيّد ديلوناي، أكّدت في كلّ مرّة أنّه بعد زيارة الطبيب بقيت نائمًا بقيّة فترة ما بعد الظهر حتّى الساعة السابعة مساءً.

– وأكّد ذلك البستاني، أجاب.

ذلك البستاني اللعين... كانت جوستين تعرف أنّ شهادته شكّلت الدرع الحامية لِديلوناي. درعٌ سمحت له بسرد السيناريو القاطع نفسه بارتياحٍ تامٍّ لمدّة عام. درعٌ – وكانت تؤمن بذلك حقًّا – أدّى في نهاية المطاف إلى إقناع ديلوناي نفسه ببراءته. هو نوعٌ من الهروب شائعٌ بين القتلة: حبس أنفسهم في كذبتهم لكونها توفّر لهم راحةً نفسيّةً غير متوقّعة. في انتظار أن يتمّ فضحهم...

– فلنتحدّث إذن وبالتحديد عن البستاني. السيّد أندريه كالاندري، من مواليد 13 أغسطس 1944، أي إنّه يبلغ من العمر

تسعةً وسبعين عامًا! كان من المفترض أن يتقاعد منذ وقتٍ طويل، أليس كذلك؟

– هل لديكِ مشكلةٌ مع كبار السنّ؟ كان هو من زرع حديقة الورود ونظّمها لأجل المالك السابق في الثمانينيّات، وبناءً على طلبه يواصل الاعتناء بها. لم يعد بالنشاط نفسه، لكنّ خبرته لا تُضاهى.

– يدّعي أنّه رآك بثوب النوم بالقرب من حوض السباحة الساعة 7:10 مساءً. وهي الشهادة التي تحميك منذ البداية. تعرّضت زوجتك للاعتداء على قاربها بين الساعة 7:30 مساءً و7:45 مساءً على بعد أكثر من ستّة أميالٍ بحريّة من الساحل. لقد قلت ذلك بنفسك: إن كان كالاندري يقول الحقيقة، فمن المستحيل عمليًا أن تكون على متن اليخت وقت وفاتها.

– سعيدٌ لسماعكِ تقولين ذلك.

– لكن ما زال في الموضوع ما يزعجني. أتعرف ما هو؟

– أسلوبكِ في التحقيق، ذلك التقدّم بخطواتٍ صغيرة الذي تعتمدينه، هو أسلوب كولومبو، أليس كذلك؟

تجاهلت جوستين استهزاءه.

– لقد أعدتُ مقابلة أندريه كالاندري قبل يومين واكتشفتُ بعض الحقائق المثيرة للاهتمام. أتعلم أنّه يعاني قصر النظر؟

– أعتقد أنّ هذا هو سبب ارتدائه للنظارات.

– هذا صحيح: يضع نظّارة قديمة بعدسات سميكة جدًّا وإطار من تلك الإطارات يغطّيها الضمان الاجتماعي. برأيي، لم تعد مناسبة لنظره منذ فترة طويلة.

– أسمع دائمًا أنّ قصر النظر يستقرّ في عمرٍ معيّن بعد سنّ الرشد.

– بين كوخ الأدوات في حديقة الورود وحوض السباحة حيث يدّعي أنّه رآك أكثر من أربعين مترًا. يمكنني العثور على عشرة خبراء في طبّ العيون يؤكّدون أمام المحكمة استحالة أن يكون لمحك حقًّا من تلك المسافة مع ضعف نظره.

هزّ ديلوناي كتفيه.

– ويستطيع محاميّ أن يجدوا عشرة خبراء يقولون عكس ذلك.

طرحت جوستين ادّعاءً آخر.

– في شهادته، يدّعي البستاني أنّك كنت ترتدي «روب دو شامبر» أحمر. هو تفصيلٌ ليس إلّا، لكن لا أستطيع أن أتخيّلك مرتديًا روبًا. هل تملك واحدًا؟

– بما أنّكِ دقّقتِ حتّى في ملابسي، أتصوّر أنّكِ تعرفين أنّ الجواب لا. لا بدّ من أنّ أندريه أخطأ. قد يكون قميصًا أحمر.

– هل هذا ما كنت ترتديه في ذلك اليوم؟ قميصٌ أحمر؟

– ربّما، لا أذكر.

– لكنّ المربّية تذكر. وذلك لسببٍ وجيه، وهو أنّك ترتدي دائمًا الملابس نفسها. أنت تتبع المدرسة نفسها التي يتّبعها ستيف جوبز، أو زوكربيرغ، أو أوباما: لتجنّب إضاعة الوقت في مسائل تافهة، ترتدي كلّ يوم تقريبًا الزيّ نفسه: سروال جينز من القطن الياباني، قميص بولو كحلي، زوجٌ من حذاء ستان سميث، وسترة جلديّة باللون البنّي. تفضّل الروتين على التنويع. ومع تحرّرك من هذا العبء الذهني الصغير، يمكنك توفير طاقتك للموسيقى.

دحر ديلوناي الادّعاء.

– كنتُ مريضًا وأشعر بالبرد. قد أكون لبستُ كنزتي الضخمة باللون الأحمر الغامق، بلون فريق كرة القدم سان فرانسيسكو 49. يمكنكِ التحقّق منها في خزانة ملابسي. ربّما هذا ما رآه البستاني.

واصلت جوستين من دون أيّ انفعال.

– عندما تحدّثتُ إلى السيّد كالاندري، شيءٌ ما استرعى انتباهي. كان يرتدي ساعة كاسيو رقميّة قديمة على معصمه، وكان فيها ما هو لافت: لم تكن مضبوطةً على الوقت المناسب.

قمع ديلوناي تثاؤبه.

– ساعته متأخّرةً ستّين دقيقة. لأنّ السيّد كالاندري لم يعدّلها بعد تغيير الوقت في 26 مارس. أخبرني أنّه لا يقوم بذلك أبدًا لأنّه أمرٌ معقّد وأنّه يفضّل أن يحتسب الوقت ساعةً إضافيّةً بنفسه. وهل تعلم ماذا؟ أنا أفعل الشيء نفسه بالضبط مع ساعة الفرن في مطبخي. من وقتٍ إلى آخر، أنسى كيفيّة تعديلها وأجد أنّ الأمر لا يستحقّ العناء لأنّني سأضطرّ إلى تكرار العمليّة نفسها بعد ستّة أشهر.

– مشوّقٌ جدًّا، أيّها المحقّق كولومبو.

– نعم، مشوّق، لأنّه مع كلّ أوجه التناقض هذه، ستسقط شهادة السيّد كالاندري أمام المحكمة الجنائيّة. عذر غيابك اختفى، يا سيّد ديلوناي. البستاني لم يغادر المنزل في السابعة مساءً، بل قبل ذلك بساعة، ما أعطاك متّسعًا من الوقت لقتل زوجتك.

.3

بدا أنّ أدريان ديلوناي التقط الطعم.

– هذا كلّه غير منطقي أبدًا، لكن لنفرض أنّ البستاني أخطأ في تقدير الوقت. كيف كنتُ سأصل إلى قارب أوريانا؟

– بواسطة زورقك المطاطي الصغير من نوع Marshal lM2 بالعوّامات السوداء والفرش الأحمر. وهو مُطابقٌ تمامًا لمواصفات الزورق الذي رُصد بالقرب من يخت زوجتك.

– هل سبق لكِ أن قدتِ هذا النوع من الزوارق، أيّتها الملازم؟

– توقّف عن مناداتي بالملازم. أنا قائدة شرطة.

– إنّ زورقي المطاطي «الصغير» الذي تشيرين إليه طوله خمسة أمتار ونصف وعرضه متران ونصف. ويزن أكثر من نصف طن. هو ليس سكوتر. لا يمكن وضعه في الماء بهذه البساطة. وهو مركونٌ تحت القماش المشمّع، في مأوى القارب. ويجب استخدام رافعة كهربائيّة لإنزاله في الماء. الأمر يستغرق وقتًا ويحدث ضجيجًا.

– وماذا في ذلك؟

– أتعرفين كاب دانتيب وجوارها؟ أصحاب الملايين الذين يعيشون هناك لا يتقبّلون أيّ مصدر إزعاج. كلّهم نكديّون. من النوع الذي يتّصل بالبلديّة ليشتكي من أقلّ حسّ. وكما تعلمين، إخراج القارب يحدث ضوضاء كبيرة. لا بدّ أن يلمحني أحدهم في طريق الذهاب أو الإياب. هذا ولم أخبركِ بعد عن عمليّة إعادته إلى المأوى. فضلًا عن رياح الميسترال التي هبّت في نهاية فترة ما بعد الظهر وكانت ستجعل رحلة العودة في زورقٍ هشٍّ كذلك أشبه بمهمّةٍ انتحاريّة.

قطّبت جوستين وجهها مشكّكةً في كلامه. لم يكن ديلوناي مخطئًا في كلّ شيء، لكنّه بالغ في الكثير من الأمور.

وتابع:

– في الواقع، لا تملكين شيئًا ضدّي على الإطلاق. لا شيء. فرضيّاتٌ مبهمةٌ فقط. والأهمّ من ذلك كلّه، ليس لديكِ أدنى فكرة حتّى عمّا قد يكون دافع الجريمة.

ترك العبارة مُعلّقةً في الهواء بينهما لحظةً، قبل أن يسأل مُزيّفًا الارتياب:

– آه صحيح، بالمناسبة، لمَ قد أقتل زوجتي؟

– لأقدم دافعٍ في العالم.

– المال؟

أخذت كلمته على محمل الجدّ.

– فلنتحدّث عن المال إذا أردت. في عام 2003، تزوّجتَ أوريانا دي بييترو تحت نظام الملكيّة المشتركة في مبنى بلديّة الدائرة السابعة في باريس، حيث أعاركما والدها شقّة. الجميع يعلم أنّ كارلو لم يكن راضيًا تمامًا عن هذا الزواج. لم يكن يثق بك: فنّان بوهيمي، مدمن مخدّرات سابق...

– توقّفي عن ذكر المخدّرات. تعاطيتُها لمدّة ثمانية عشر شهرًا، وها جسمي خالٍ منها منذ أكثر من عشرين عامًا.

– المدمن مدمن، أليس كذلك؟

تجهّم أدريان.

– إدمان المخدّرات مشكلة كبيرة لا يمكن اختزالها في تعبيرٍ مُبتذل.

استعانت جوستين بالعمراني شاهدًا.

– دائمًا ما نراهم، مدمني المخدّرات، يتدفّقون إلى هنا أفواجًا أفواجا، أليس كذلك يا أشرف؟ وعلى الرغم من وعودهم، كم منهم أتمّ فعلًا رحلة إعادة التأهيل؟ بحسب ما رأيتُ أنا شخصيًّا، ولا واحد. كلّهم ينتكسون من جديد، فنجدهم في بلدة نيس القديمة أو حيّ مولان، تائهين وواهنين، يسيرون كالأحياء الأموات من دون أيّ وجهةٍ حقيقيّة.

– لحسن حظّي تلقّيتُ رعايةً عالية الجودة ودعمًا مستمرًّا من عائلتي وأصدقائي. وأكرّر لكِ، باتت هذه المشاكل من الماضي منذ زمنٍ طويل.

فرك جفنيه طويلًا. لقد فعلت هذه المناقشة فعلها. وتلك المرحلة القاتمة من حياته تشكّل جزءًا لا يتجزّأ من رحلة وجوده، لكنّه يريدها أن تبقى في الماضي ولا تظهر مجدّدًا أبدًا.

استغلّت جوستين اضطرابه وشنّت هجومها.

– حتّى عام 2021، على الورق، لم تكن ثروة زوجتك تُذكر. المنازل، والسيارات، ودار النشر الخاصّة بها: كان كلّ شيء ملكًا لوالدها الذي، أكرّر، لم يكن يثق بك. ثمّ جاءت وفاة ربّ الأسرة لتعيد خلط الأوراق. حصدت أوريانا نصيبها من الإرث. وبمجرّد وفاتها، ورثتَ كلّ شيء: الممتلكات، ولكن الأهمّ، الأصول الماليّة. ثروةٌ هائلة.

هزّ ديلوناي رأسه، وظهرت على شفتيه ابتسامةٌ طفيفة.

– لقد فاتكِ أمرٌ أيّتها القائدة. اعذريني إن بدوتُ مغرورًا، لكنّي بدون شكّ أحد عازفي الجاز الأعلى أجرًا على الساحة. أكسب رزقي منذ أن كنتُ في العشرين من عمري. لم أفتقر إلى المال يومًا، وأتقاضى اليوم ما يصل إلى 80 ألف يورو عن كلّ حفلٍ موسيقي. هذا من دون ذكر حقوق التأليف الخاصّة بي.

– أنا لا أكلّمك عن 80 ألف يورو، أنا أكلّمك عن 3 مليارات دولار. أكلّمك عن ثروةٍ تجعلك واحدًا من أغنى عشرة أو خمسة عشر رجلًا في البلاد.

لم يسمح لها ديلوناي بجرّه إلى ذلك الملعب.

– المال ليس محرّكًا لي، ولم يكن كذلك يومًا. بالتأكيد تعلمين أنّ من يريد أن يصبح غنيًّا لا يختار مهنة عازف جاز على البيانو.

– لكنّك مع هذا تدبّرت أمرك للزواج بوريثة...

– عندما وقعتُ في حبّ أوريانا، لم أكن أعلم أنّها غنيّة! لم أتّخذ أيّ قرارٍ في حياتي بناءً على معايير ماليّةٍ قطّ.

– نعم، هذا ما تقوله في المقابلات، لكنّ هذا لا يمنعك من أن تعيش حياة المليونير: تقتني الكثير من الأعمال الفنّيّة، وتشتري الساعات الفاخرة، وتقيم في القصور. وعلى الرغم من بساطة مظهرك، فإنّك ترتدي ملابس أسعارها خياليّة.

نهضت جوستين وخطت بضع خطوات للتمركز خلف المشتبه فيه. ثمّ سحبت العلامة من قميص البولو الخاص بأدريان ديلوناي لكي تُري معاونها.

– أتعلم أنّ القميص الصغير الذي يرتديه السيّد يكلّف أكثر من راتبك يا أشرف؟ قميص بولو من نسيج الفيكونيا الخفيف: أجود أنواع الصوف وأكثرها ندرةً في العالم.

استدار أدريان في مقعده ليحرّر نفسه من قبضة جوستين بينما واصلت عرضها.

– ثلاثة آلاف وتسعمئة يورو في متجر لورو بيانا. تخيّل! هذا ما يُعرف بالـ«quiet luxury»، أو الفخامة الهادئة. أنا شخصيًّا، وجدتُ صعوبةً في تصديق ذلك. لم أكن أعلم أنّ مثل هذا الأمر موجودٌ حتّى، قميص بولو بهذا السعر.

تلذّذت الشرطيّة في ذلك. كانت نفقات ديلوناي من بين العناصر التي تقرّر تسريبها إلى الصحافة. الأمر بسيط، لكنّه ينجح في كلّ مرّة. فهذه فرنسا، حيث يُعتبر كلّ نجاحٍ فردي بمثابة انتهاكٍ شديدٍ لمبدأ المساواة. الأمر سينتهي في الصحف ويشوّه صورته. لكنّ هزّ ديلوناي يتطلّب أكثر من ذلك.

– هذا ما خشيتُه منذ البداية: أنا هنا فقط لأنّه ليس لديكِ أيُّ مشتبهٍ فيهم آخرين.

.4

– منذ اللحظة التي قدمتُ فيها إلى هنا، لم تطرحي أيّ دليل. مجرّد افتراضات تافهة تعرفين أنّها لن تصل بكِ إلى أيّ مكان. تريدين أن تعطيني انطباعًا بأنّكِ تراكمين جبلًا من الأدلّة ضدّي، غير أنّه لا شيء منها ملموس. ربّما تستمتعين بوقتكِ، لكنّكِ لا تحرزين أيّ تقدّم.

استعادت جوستين مكانها خلف الطاولة. فتحت فمها للردّ، لكنّ ديلوناي باغتها:

– وماذا ستكون ذروة الاستجواب؟ بصمات أصابعي على العصا التي حصلتِ عليها من مأوى القارب؟ أتصوّر أنّه بما أنّني هنا، فهذا يعني أنّكِ ملأتِ رأسكِ بالأوهام حيالها.

انتهزت الشرطيّة الفرصة مباشرةً.

– وتلك العصا، أهي لك أم لا؟

– بالطبع، وأنتِ تعرفين ذلك. تنتمي إلى طقم أدوات المدفأة في غرفة المعيشة بمنزلنا في أنتيب. يشتمل الطقم أيضًا على مجرفة، ومكنسة، وملقط.

– ولمَ كانت في مأوى القارب؟

– لا أعرف. بالكاد أشعلتُ تلك المدفأة ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا في حياتي. لكنّني لا أجادل في أنّكِ قد تكونين عثرتِ على بصماتي عليها، بل سيكون ذلك منطقيًّا.

– لا يقتصر الأمر على بصمات أصابعك، سيّد ديلوناي.

مرّةً أخرى، بحثت جوستين في ملفٍّ أمامها، وأخرجت منه ورقةً مطبوعة. تابعت:

– وجدنا عليها أيضًا دمًا جافًّا وشعرًا لزوجتك.

التزم الصمت، فتابعت:

– ولـديّ هنا شهادةٌ من الطبيب الشرعي تؤكّد أنّ علامات الضربات التي تلقّتها زوجتك تتوافق مع حجم هذه العصا وشكلها.

أخذ ديلوناي الوقت الكافي للتفكير.

– لا تزال تشوب تفكيركِ شائبةٌ، أيّتها القائدة. وهذه الشائبة بحجم حجر المغليث.

– ما هي؟

– تعرفين جيّدًا: لو كنتُ قتلتُ زوجتي فعلًا، فلمَ أحتفظ بسلاح الجريمة؟

بدورها، التزمت جوستين الصمت.

– كان لـديّ أكثر من عامٍ للتخلّص منه. عامٌ كاملٌ لتطهيره على الأقلّ. لكن، لا، احتفظتُ به بطمأنينة في المستودع بانتظار أن تأتي لاعتقالي.

– الأمر بسيطٌ جدًّا: لقد احتفظت به كتذكار انتصار.

– ما هذه السخافة! كأنّنا في فيلم بوليسي من التسعينيّات.

– تذكارٌ يرمز إلى نفوذك المُستعاد.

قطّب جبينه.

– باعتبار أنّني كنت فقدته؟

أومأت جوستين برأسها.

– استجوبتُ الكثير من الناس عن زوجتك. لاحظتُ إجماعًا في الآراء إلى حدٍّ ما. جميعهم وصفوا شخصيّةً ناريّة، لكن خانقة. امرأةٌ لامعة، تجذب الأضواء، لكنّها أيضًا امرأةٌ مُضطربة، سياديّة، وعرضة لنوبات عنف.

اشتعل وميضٌ في عينَي أدريان. نجحت جوستين في استفزازه.

– لكن صادقَين، الجميع يعرف أنّها كانت هي من يقود السفينة. حكمتك بقبضةٍ من حديد. سيطرت على كلّ شيء: علاقتكما، عائلتكما، وحياتكما المهنيّة.

– أبدًا.

– كنت تحاول دائمًا المناقشة، وإيجاد حلٍّ وسط، وإظهار النيّات الحسنة، غير أنّ رغبات أوريانا وحدها كانت تؤخذ في الاعتبار. هي تقرّر، وأنت تنفّذ.

– هل لديكِ أمثلة؟

– أكوام. أنت لا تحبّ ميلانو، لكنّك تعيش هناك لأنّ أوريانا قرّرت ذلك. أردت طفلًا ثالثًا، لكنّك استسلمت في النهاية لأنّها لم ترغب في الحمل مرّةً أخرى. تحلم باقتناء مزرعةٍ في مونتانا، أو بالذهاب في إجازةٍ إلى تسمانيا، أو بالسفر حول العالم بالقارب، لكنّها كانت تجد نزواتك سخيفة. كنت تعيش في حالة إحباطٍ مستمرّ.

– عجيب! قبل ساعةٍ كنتِ تتّهمينني بضربها، والآن تصفينني بأنّني ضحيّة زوجةٍ مستبدّة وسامّة.

– نعم لقد أذلّتك هذه المرأة الظالمة وأشعرتك بنقص رجولتك.

– آه، ها قد دخلنا صفّ فرويد الآن: عقدة الخصاء الشهيرة.

فتحت جوستين ذراعيها في إشارةٍ منها إلى أنّ الأمر كذلك.

– لكن إن كانت زوجتي بغيضةً إلى هذا الحدّ، فما الذي منعني من تركها؟ ثروتها؟

تصفّحت الشرطيّة الأوراق التي أمامها.

– لاحظتُ تفصيلًا آخر أجمع عليه كلّ من استجوبتُه بشأنك، سيّد ديلوناي: أنت أبٌ رائع. حقًّا. تربية طفليك ممتازة. هما مهذّبان، ولطيفان، وكما قلتَ سابقًا، يشعّان بهجةً وحبًّا للحياة. ليس فيهما ذاك الجانب الذي لا يُطاق لبعض الأطفال الأغنياء. وهذا بفضلك إلى

حدٍّ كبير. فأنت تخصّص لهما الكثير من الوقت. حتّى أثناء تنقّلاتك، تتواصل معهما عبر فيس تايم للإشراف على واجباتهما المدرسيّة، وإخبارهما بقصّة، والتأكّد من أنّ يومهما يسير على ما يرام.

– لا أرى علاقة هذا بالموضوع.

– سترى. على مرّ السنين، سعيت إلى التحرّر من نفوذ أوريانا، من دون أن تجد حلًّا. أنت نوعًا ما على حقّ: زوجتك لم تسيطر عليك بفضل ثروتها بشكلٍ مباشر، بل بفضل تسخيرها لثروتها للحصول على السلطة. السلطة الكافية لحرمانك من طفليك.

بدا التأثّر واضحًا على ديلوناي.

ومض إشعارٌ على شاشة الكمبيوتر الخاصّ بجوستين. من الغرفة المجاورة، حاولت كانديس لاشوم لفت انتباهها برسالة: «الطفلان، هذه هي نقطة ضعفه!».

لاحظتُ ذلك، يا عزيزتي...

أكملت:

– أتذكّر ما قلتَه لي في بداية هذا الاستجواب: ينقسم العالم إلى قسمين: أولئك الذين لديهم أطفال والآخرين. طفلاك يشكّلان عالمك بأسره. بدونهما، أنت لا شيء. كنت تخشى أنّه إذا وقع طلاق، فستنتزع أوريانا وجيشها الصغير من المحامين باولو وصوفيا منك. وهذا، لن تتمكّن أبدًا من تحمّله.

– لم تكن فكرة الطلاق واردةً قطّ.

– آه، لا؟ إذن اشرح لي لماذا، قبل ستّة أشهر من وفاة أوريانا، حدّدت موعدًا مع الأستاذة ماريون دوبوا، المحامية النسويّة المتخصّصة في قضايا الطلاق؟

بقي ديلوناي بلا حراكٍ في كرسيّه ووجهه خالٍ من أيّ تعبير. ثمّ قال:

– تهتمّ الأستاذة دوبوا بشكلٍ أساسي بإدارة القيود الإداريّة التي تفرضها علينا البيروقراطيّة الفرنسيّة.

– لسنواتٍ عديدة، تحمّلت الإذلال والسلطة المطلقة لزوجتك. تعاني في صمت، فيما تقلّب الأفكار في رأسك. داخلك بركانٌ لا بدّ من أن ينفجر. وفي أحد الأيّام، تسنح الفرصة. وتصطفّ الكواكب. فتقرّر أن تخطو الخطوة وتقتلها. المهمّة صعبة ومتهوّرة، لكنّ الفوز بكلّ شيء يستحقّ المخاطرة بكلّ شيء. كما في لعبة البوكر. كما على خشبة المسرح عندما ترتجل أمام مئات الأشخاص. لعبة ورق ستغيّر حياتك بأسرها. وبيدك الورق الرابح. ورقٌ بقيمة 3 مليارات دولار.

في صمت الغرفة، شرع ديلوناي يصفّق بطريقةٍ مسرحيّة.

– يا له من عرض، أيّتها القائدة، لكنّكِ لن تتمكّني من جعل أحدٍ يصدّق ذلك.

– كثيرون باتوا يصدّقون بالفعل.

هزّ رأسه.

– ما زلتُ أعتقد أنّه ليس لديكِ أيّ فكرة إلى أين تذهبين بكلّ هذا. تلقين الصنّارة بطريقةٍ عشوائيّة آملةً أن تعضّ السمكة وتحصلي منّي على اعتراف.

وقفت جوستين وعلت نبرة صوتها.

– لا أهتمّ باعترافاتك، يا ديلوناي. لديّ دافع. لديّ سلاح الجريمة. لديّ بصمات أصابعك ودماء زوجتك على العصا التي استُخدمت لقتلها. لديّ حمضها النووي، هل تفهم؟ الحمض النووي ملك الأدلّة. لذا، اعترافاتك، تعرف أين تحشرها!

كان هذا صحيحًا من جهة واحتيالًا من جهةٍ أخرى. من الممكن، بالطبع، إدانة أيّ متّهمٍ بناءً على الأدلّة وحدها، غير أنّ الرهان الأكبر يكون على اعترافاته. المفتاح الذي سيبرّر ويكشف طريقة العمل،

والدافع، والدوافع الخاصّة. الضمادة التي تخفّف من اضطراب أحبّاء الضحيّة بعض الشيء أحيانًا.

– لا تملكين سوى دليلٍ ملفّقٍ، رفعتِه هنا لاتّهامي.

– أنا لا أرى حقًّا كيف أنّ دليلي ملفّق. أمّا بالنسبة إلى سؤالك عمّا إن كان اكتشاف بصمات أصابعك على العصا ذروة الاستجواب، فالجواب هو لا. ذروة الاستجواب ستكون اللحظة التي أكشف فيها لك ما صرّحت به زوجتك عندما ذهبتُ لاستجوابها في المستشفى.

11

أديل كيلر
ما ينوّرنا

«لا شكّ في وجود عالمٍ موازٍ، لكنّه موجودٌ في عالمنا هذا».

بول إيلوار

مكتبة
t.me/soramnqraa

خريف 2022
باريس

.1

الخطّة التي خشيناها سارت من دون عقبات. سلسة، طبيعيّة، كمشهدٍ من كوميديا رومانسيّة.

وقع لقاؤنا «الصدفة» في حديقة سيمبيون في ميلانو، حيث اعتاد أدريان ديلوناي اصطحاب طفليه كلّ أربعاء بعد تناولهم الغداء في مطعم لو زينزيرو.

«انظر، إنّها أديل! إنّها أديل!». تعرّف إليّ باولو وصوفيا حين لمحاني بالقرب من الجسر العائم الصغير، عند الجزء من البحيرة حيث يتخبّط البجع والبطّ. تكفّل الطفلان أمر تقديمي إلى والدهما واستحضار الذكريات المشتركة بيننا: رحلات القوارب في جزر

سيكلادس، والكوكتيلات عند غروب الشمس، ومباريات تنس الشاطئ، والضحك المجنون على مقفز الغطس في سبيليا. تأثّرتُ لمعرفة أنّني تركتُ أثرًا في ذاكرتهما وفي قلبيهما.

* * *

كان الطقس جميلًا، والهواء معتدلًا. بدا المكان ساحرًا بألوانه الخريفيّة، كأنّه لوحةٌ فنّيّة. كانت سيمبيون حديقةً على الطراز الإنكليزي، تتميّز بغطاءٍ نباتي كثيف ومتموّج. ديكورٌ منبثقٌ من قلب القصص الخياليّة ممتازٌ للتجوال من دون وجهةٍ واستقبال اللامُنتظر.

ما إن أصبح الطفلين في ضمانتي، حتّى كنت قد قطعت نصف الطريق. أنشأ باولو وصوفيا رابطًا طبيعيًّا بيننا. كانا بمثابة مغناطيسين صغيرين يسحباننا وراءهما في خطاهما، ونكاتهما، وضحكاتهما. تهنا نحن الأربعة في المسارات المتعرّجة، وأخذنا المصعد إلى أعلى برج برانكا، وزرنا الأكواريوم، وتناولنا الآيس كريم بالفانيليا والفراولة في مقهًى صغيرٍ في الهواء الطلق.

* * *

تقدّمتُ ببيادقي مُفتتحةً جولة الشطرنج، وصقلتُ محادثتي مُنتقيةً مراجعي. مراجع اخترتُها من بين تلك التي نصحتني بها أوريانا. أغنية «Parlez-moi d'amour» لسامسون فرانسوا، ورواية «Debussy» لريموند كارفر، وفيلم «Le Limier» لمانكيويتش، والرواية الشعريّة «Les Chants de Maldoror» للوتريامون، وأشعار إنريكو رافا القلقة. حفظتُ درس «التجاذب الاختياري» جيّدًا. والأهمّ من ذلك أنّني تجنّبتُ المبالغة. وجدتُ أدريان سهل المعشر: لطيفًا، ومُريحًا،

وطريفًا. كان التحدّث معه ممتعًا. أضحكنا، الطفلين وأنا. وبدا مُطمئنًّا ومُرتاحًا مثلي، وفي مزاجٍ جيّد، ولا يقاوَم.

* * *

مرّت فترة ما بعد الظهر كنسمة هواء. افترقنا وقد أصابنا بعض الدوار، بعد نزهةٍ أخيرة في متاهةٍ نباتيّة هائلة منحوتةٍ بأسوارٍ خضراء شاهقةٍ من أشجار الكرم. كانت الشمس قد بدأت تتوارى عند الأصيل على جسر الحوريات.

بعد منتصف الليل بقليل، استيقظت على صوت صليلٍ قصيرٍ لهاتفي. كانت رسالةً نصّية من أدريان ديلوناي يقول فيها:

بفضلكِ، بثّ فيّ هذا اليوم في الحديقة رغبةً في التأليف. لم يحدث لي هذا منذ وقتٍ طويل. إليكِ اللحن الذي ألهمتِني إيّاه. شكرًا.

كانت الرسالة مصحوبةً بملفّ موسيقى. عبارة عن مقطوعةٍ معزوفة على البيانو. لحنٌ لا يمكن تصنيفه، أنيق، يتنقّل بين المبهج والحزين. نغماتٌ تنقل في آنٍ واحد سحر اللحظة والحنين إلى تلك السعادة العابرة.

مقطوعةٌ سمّاها «فتاة المتاهة».

وتلك الفتاة في المتاهة كانت أنا.

.2

يوميّات أديل كيلر (نوفمبر 2022 - مايو 2023)

مقتطفات

وأخيرًا، أشعر بأنّني مفعمةٌ بالحياة!

كأنّني قمتُ من بين الأموات.

أدريان مجنونٌ بي وأنا مجنونةٌ به!

فراشاتٌ تتراقص في معدتي من المساء إلى الصباح. نيويورك، برشلونة، أثينا، بيروجيا، دبلن، لندن، سيول... أرافقه إلى كلّ مكانٍ على هوى حفلاته.

نتشارك كلّ شيء. يشعلنا اللهيب نفسه.

* * *

باتت أوريانا أكثر إلحاحًا وتطلب منّي التقارير باستمرار. أمتثل لأوامرها، لكنّني لا أخبرها بكلّ شيء. في البداية، كنتُ ألتزم بقواعد اللعبة حرفيًّا، لكن سرعان ما حرّرتُ نفسي منها. نصائحها فتحت لي الباب، هذا صحيح. وجعلت مهمّتي أسهل. لكن ما يحبّه أدريان حقًّا فيّ هو أنا. أديل. لا العناصر التي جعلتني أوريانا أتعلّمها لأجذبه. ما يحرّك أحاسيسه هو تفرّدي، وحيويّتي، وانسجامنا. كلّ ما لم تعد زوجته قادرةً على تقديمه له.

* * *

للمرّة الأولى في حياتي، لم أعد مجرّد متفرّجةٍ على قصّتي، بل مشارِكة في كتابتها بشكلٍ كامل. أخيرًا تحمل الحياة وعدًا كنتُ قد فقدتُ الأمل به. كنتُ قد حصّنتُ قلبي بقلاعٍ متينة لفترةٍ

طويلة، وقمعتُ آمالي ورغباتي. لكنّ بضعة أسابيع معه كانت كفيلةً لكي ينقشع ضباب الأفق الباهت ويكشف عن سماءٍ صافية. لقد أشرقت الشمس من جديد. وأنا مثل غيري من الناس، أستحقّ نور الشمس!

* * *

أدريان رائع. ذكيّ، وحنون، ويتميّز بحسّه الفكاهي في كلّ المواقف. لقد ألّف ألبومًا كاملًا للاحتفال بحبّنا. موسيقى أنا ألهمتُه إيّاها. وجد معجبوه ونقّاده أنّها تحفته الفنّية، وأجمل أعماله طوال مسيرته المهنيّة. عالمٌ جديدٌ ينبسط أمامنا. لدينا خطط مبهجة: إنجاب طفل، والذهاب في جولة حول العالم بالقارب، وشراء مزرعة في مونتانا، وكوخ صيّاد في خوسيه إغناسيو.

إنّ طعم السعادة خطير، ولا أنوي العودة إلى ما قبله. أنا مستعدّةٌ للقتال. بجانبه، لم أعد أخاف شيئًا. لأنّه، حيث ينمو الحبّ، لا يحلّ الظلام أبدًا.

3.

ويكيبيديا [مقتطفات]

فتاة المتاهة

فتاة المتاهة – العنوان الأصلي:
The Girl in the labyrinth – ألبوم لعازف الجاز على البيانو أدريان ديلوناي، تمّ تسجيله في نهاية عام 2022 وصدر في كانون الثاني/يناير 2023 تحت علامة Terra Nullius Records.

عن الألبوم

هو أوّل ألبوم منفرد بالكامل من تأليف ديلوناي. بفضله، حصد عازف البيانو أوّل جائزة غرامي له في فئة أفضل ألبوم موسيقى جاز.

تمّ إنتاج الألبوم بالكامل في الاستوديو المنزلي لديلوناي، وقد استوحاه من نزهةٍ مع طفليه في حديقة سيمبيون في ميلانو.

يضمّ الألبوم المتميّز باللمسة الإبداعيّة أحيانًا والمفعم بالعاطفة أحيانًا أخرى عشر مقطوعاتٍ موسيقيّة تستحضر التجوال في حديقةٍ ساحرةٍ لثنائي وطفلين. في مقابلةٍ مع صحيفة «Corriere della Sera»، أكّد أدريان ديلوناي أنّ هذا الألبوم «من تسجيلاته الأكثر شخصيّةً وحميميّة». أضاف: «نصادف في رحلة الحياة صدماتٍ بيوغرافيّة، إيجابيّةً كانت أو سلبيّة، تقطع مسيرتنا، وتشكّل تحوّلًا عميقًا، وتجعلنا ننظر إلى الوجود من خلال عدسةٍ جديدة. مشاعر تكتسح كلّ شيءٍ في طريقها وتتركنا مشوّشين. وفجأةً تتغيّر هيئة التفاصيل التي رأيناها من

قبلُ عاديّة، وتكتسب معنًى جديدًا. فجأةً، يستعيد العالم سحره، فيطرد اليأس، ويطلق فرحًا جديدًا يبثّ فينا طاقةً إبداعيّةً حسبنا أنّنا تجرّدنا منها».

حقّق الألبوم نجاحًا كبيرًا، حيث أصبح أحد ألبومات الجاز الأكثر تحميلًا لهذا العام وفاز بالعديد من الجوائز.

في النقد

«جوهرةٌ موسيقيّة»، مجلّة «جاز ماغ»

«أسطوانة صادقة وحميميّة تمسّ القلب»، صحيفة «ذا غارديان»

«سلسلة من المؤلّفات الخالدة. تحفةٌ كلاسيكيّة من اللحظة الأولى»، صحيفة «لا ريبوبليكا»

«ألبوم أنيق يفيض بالأحاسيس، يوحي في بعض الأحيان بمؤلّفات بيرت باكاراك، وغيرشوين، وسونديم»، منصّة «أول ميوزيك»

«موسيقى متقنة وبسيطة في آن واحد، تحتفظ دومًا بمساحةٍ للعاطفة والمشاعر، مُحرّكةً العازف وجمهوره على حدٍّ سواء»، صحيفة «لاكروا»

«كما هي الحال غالبًا مع أدريان ديلوناي، ننجرف في دوّامةٍ من الأحاسيس المرهفة، ولسوء الحظ، لا ننجو منها»، مجلّة «تيليراما»

قائمة التسجيلات

الرقم	العنوان	المؤلّف	المدّة
1	في الحديقة	أدريان ديلوناي	4:70
2	ثمّ وجدتك	أدريان ديلوناي	6:30
3	صوفيا وباولو عند ضفاف البركة	أدريان ديلوناي	3:77
4	الساحرة سيرسي والحوريات	أدريان ديلوناي	4:25
5	فانيليا أم فراولة؟	أدريان ديلوناي	4:51
6	فتاة المتاهة	أدريان ديلوناي	6:49
7	وداع	أدريان ديلوناي	3:35
8	أنتِ الغائبة الوحيدة	أدريان ديلوناي	4:58
9	يومٌ لا يُنسى	أدريان ديلوناي	5:02
10	أن ألقاكِ مجدّدًا	أدريان ديلوناي	2:16

الجزء الثالث

مفارقة العاشقة

12

جوستين تاياندييه
خلافة كارلو دي بييترو

المفتش بِلمون: إذن بالنسبة إليك، أهو مذنبٌ أم غير مذنب؟
المفتش غاليان: بصراحة، عندما رأيتُ الملفّ، كنتُ متأكّدًا من أنّه كذلك، لكن عندما أصبحتُ أمامه... لم أعد متأكّدًا.

مقتبس من فيلم «Garde à vue» للمخرج كلود ميلر

الجمعة 24 مايو 2024، الساعة 7:30 مساءً
مركز الشرطة في نيس

1.

عند وصولها إلى أعلى درج الخدمة، دفعت جوستين الباب الفولاذي المفضي إلى شرفة سطح مركز الشرطة. حلّ محلّ اللون الرمادي للخرسانة ضوءٌ ساطع: دفقةٌ عنيفةٌ من النور وزرقة السماء أصابتها ببعض الدوار، ولكن أيضًا بالسعادة. وأخيرًا! الهواء، والرياح، والضوء! مبهورةً بذلك النور، رفعت يدها فوق عينيها وتقدّمت نحو الدرابزين. تحت أشعّة الشمس، شكّلت أسطح مدينة نيس القديمة بلون المغرة

الحمراء سجّادةً من الحمم البركانيّة امتدّت إلى الميناء وهضبة القلعة، فيما تلألأ البحر المتوسّط في الخلف.

كان السطح مهجورًا في هذا الوقت من النهار. تسلّقت جوستين جدارًا منخفضًا من الخرسانة، تربّعت عليه ثمّ فتحت كيس مشترياتها. كانت قد غزت آلة البيع ثمّ غرفة الاستراحة مستوليةً على بعض الغنائم: زجاجة فودكا لا يزال فيها القليل، وشطيرة جاهزة، وعبوة عصير رمّان، ومكعّبات ثلج، وعلبة رقائق بطاطا مفتوحة مسبقًا. خلطت الكحول والعصير والثلج في الترمس لتحضير كوكتيل لها وسكبتها في الغطاء الذي على شكل كوب. «Happy hour» فعليّة!

أخذت رشفةً من مشروبها مع ربع حبّة من دواء ليكسوتانيل وأغمضت عينيها لبضع ثوانٍ، في استمتاعٍ تامٍّ بأنفاس الهواء النقيّ. بعدما ظلّت محبوسةً طوال فترة ما بعد الظهر، كانت بحاجةٍ إلى التخفيف عن نفسها. أسهم نسيمٌ منعش في تهدئتها. بقيت بلا حراك لدقائق عدّة، تراقب تلال المناطق النائية التي تنبثق أمام الهيئة المزرقّة لأعلى قمم جبال الألب. أوف! متى كانت آخر مرّة شعرت فيها براحةٍ كهذه؟

التهمت شطيرتها، وهي تفكّر في الاستجواب الذي أعقب اليوم الأوّل في حجز الشرطة. على عكس كلّ التوقّعات، لم يدم الاجتماع طويلًا وجرى في جوٍّ سلميٍّ إلى حدٍّ ما. تعيّن عليها طبعًا تحمّل نظريّات كانديس لاشوم والمحاضرات الاستعلائيّة لِبويغرونييه، لكن عمومًا، اتّفق الجميع على أنّ جوستين اختتمت اليوم الأوّل من المباراة مُتقدّمةً على ديلوناي بهدف. ساد شعورٌ عامّ بأنّها لن تحتاج إلى أكثر من يومٍ بعد لكسره. أمّا جوستين، فلم تدع نفسها تنجرف في الآمال والتوقّعات. كان يكفيها أنّها نجحت في الحدّ من الضرر. وعلى الرغم من حالتها النفسيّة، تمكّنت من الحفاظ على تركيزها. نسيت لبضع

ساعاتٍ مشاكلها الخاصّة: زوجها السابق الأحمق، والجرّاحة ذات الوجه الملائكي، ووزنها الزائد، واكتئابها المستشري، واللائحة تطول. حتّى إنّها شعرت بالقوّة، والطمأنينة، والنفوذ. لقد تمكّنت من الحفاظ على وضوح أفكارها والسيطرة على الاستجواب. حتّى عندما شكّت في أنّ المشتبه فيه لم يكن يقول الحقيقة، سمحت له بالإسهاب في أكاذيبه قبل أن تشدّ قبضتها مثل أفعى الأصلة العاصرة. وغدًا، سوف تخنق فريستها.

لقد أحبّت هذه المواجهة مع ديلوناي. الوقوف أمامه، استجوابه، مهاجمته، التصدّي لضرباته، ومواجهته بتناقض أقواله. أحبّت كون المواجهة لها وحدها. كانت تفضّل الاستفادة من تأثيرها عليه ومواصلة استجوابه في نهاية المساء، لكنّ الآخرين رأوا أنّ من الأفضل الانتظار حتّى اليوم التالي، ولم تعارضهم.

ففي نهاية المطاف، كانت هي أيضًا بحاجة إلى الراحة، وترتيب أفكارها، وإعادة قراءة ملاحظاتها في ضوء ما عرفته من الاستجواب عن شخصيّة عازف البيانو: مشتبه فيه غامض، يصعب اختراق ذهنه. رجلٌ يجلس معك من دون أن يكون معك حقًّا. لاعب بوكر لا تعرف هل يلعب ضدّك أم ضدّ نفسه.

أعادت جوستين تشغيل هاتفها الخلوي. أوّل من خطر في بالها: بيرغومي. كان مساعدها قد أرسل لها رسالةً نصّيّةً مقتضبةً ليخبرها بأنّه لم يحقّق أيّ نتيجة. بالطبع... اتّصلت به، لكنّها حُوّلَت إلى بريده الصوتي. تبًّا. لمَ لا يعطي إشارة حياة؟ لإيقاظه، أرسلت له محضر الاستجواب عبر البريد الإلكتروني، طالبةً منه معاودة الاتّصال بها. عثرت في صندوقها الإلكتروني على تقرير الطبيبة الشرعيّة التي تؤكّد خطيًّا ما قالته لها شفويًّا قبل قليل: إنّ شكل العصا المعدنيّة

التي عُثر عليها لدى ديلوناي «تتوافق تمامًا» مع مواصفات السلاح الذي أصاب أوريانا دي بييترو إصابةً قاتلة.

فتحت حاسوبها المحمول، ووصلت هاتفها والسمّاعات به. في العادة، لا تشاهد جوستين التلفاز، لكنّها أجبرت نفسها على تقليب القنوات والشبكات الإخباريّة. كما توقّعت، كانت الأمور تسير في الاتّجاه الصحيح. انتشرت قضيّة ديلوناي في كلّ مكان. لقطاتٌ من أرشيف عازف البيانو وزوجته تُبّث وتُعاد. كلّ القنوات نقلت مشاهد من منزلهما في أنتيب التقطتها طائرةٌ بدون طيّار، ورسومٌ حاسوبيّة ثلاثيّة الأبعاد تعيد تصوير الاعتداء على اليخت، وصور أوريانا على منصّات العرض عندما كانت طالبة. فمع تزايد قنوات البثّ، أصبحت القصص الإخباريّة والقضايا الجنائيّة بمثابة وقود لعالم المعلومات والترفيه. في فرنسا، يُسجّل ما يقرب من ألف جريمة قتل سنويًا، لكنّ عددًا قليلًا منها فقط كان يغذّي الفضول المَرَضي والعناوين الصفراء التي تستجدي النقرات في وسائل الإعلام. فالقضايا التي تبرز من بين غيرها هي تلك التي تمنح الناس شعورًا بالطمأنينة تجاه أنفسهم. من المريح دائمًا أن نرى الآخرين أكثر جنونًا واضطرابًا وانحرافًا منّا. من خلال بثّ الذعر فينا، يساعد تهوّرهم في ردع تهوّرنا. وإن كانت القضيّة على صلةٍ بأحد المشاهير أو فردٍ من العائلات الثريّة، فإنّ نسبة الاهتمام تزيد بعشرة أضعاف. يا له من شعورٍ لذيذ... أن نشمت بمصائب الأغنياء الأشرار! سقوطهم يريحنا ويمنحنا شعورًا بالانتقام والنصر من دون كلفة. صراع الطبقات بنسخته السينمائيّة المسلّية.

واصلت جوستين تقليب القنوات لمدّة ربع ساعة ثمّ فتحت منصّة إكس فظهرت هذه التغريدة:

Jazz à Balbec
@JAZZABALBEC

إلغاء حفل أدريان ديلوناي.
لقراءة البيان الصحفي:
https://bit.ly/4QTUz2K

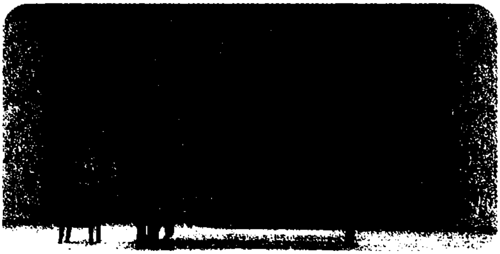

19:48 · 24/05/2024

45 Retweets **78** J'aime

قرأت النصّ المرفق بالرابط الإلكتروني ثمّ تقريرًا إخباريًّا عن القضيّة.

مهرجان «جاز آ بالبيك» يعلن إلغاء حفل أدريان ديلوناي المحتجز حاليًّا لدى الشرطة

لن يعتلي عازف البيانو أدريان ديلوناي مسرح مهرجان بالبيك. فقد أعلن المهرجان المرموق الذي سيقام من 6 إلى 12 يوليو في بيان صحافي أنّه يفضّل «كإجراءٍ وقائي» سحب الموسيقي، المعتقل حاليًّا في إطار التحقيق في مقتل زوجته، من برامجه.

وأوضح المهرجان في بيانٍ صحافي أنّ «المنظمة تؤمن بأنّ قرينة البراءة مبدأ أساسي؛ ومع ذلك، لا يمكننا أن نبقى مكتوفي الأيدي تجاه الضجّة والصدمة المتأتّيتين عن هذا الاتّهام».
وفي هذا السياق اختار المهرجان اتّخاذ «أفضل قرار ممكن بما يتماشى مع قيمه».

ممتاز. أوّل قطعة دومينو سقطت، قطعٌ أخرى ستليها في الساعات المقبلة. فليس من الممكن إيقاف آلة الطحن بعد تشغيلها في عصرٍ صار فيه الاتّهام يعادل الحكم بالذنب. ولكن ما الفرق ما دام ديلوناي مذنبًا حقًّا؟

فكّرت جوستين مرّةً أخرى في مواجهتها معه. أجل، لقد تلذّذت بمهاجمته، والالتفاف حوله، والانقضاض عليه من جديد. أربكتها نظرته إليها، وأمارات وجهه... وجه الملاك الساقط من عليائه. وكانت تتحرّق شوقًا إلى الغد، لتوجّه له أخيرًا الضربة القاضية. سترتدي ملابس مختلفةً هذه المرّة. قلّبت في ذهنها كلّ ما في خزانة ملابسها، واختارت فستانها الأحمر مع نقش الأزهار. لا يفشل هذا الفستان في لفت الأنظار أبدًا، ولا سيّما بفضل قصّته المربّعة عند الياقة، وخاصّةً إذا نسّقته مع حزامها الجلدي الأخضر الداكن ذي الإبزيمين، وحذاء طويل الساق ذي كعبٍ عال. وربّما سترتها الجلديّة.

قاطع أفكارها المتضاربة رنين هاتفها. كان المناخ قد تغيّر. والهواء قد هبّ. أصبح الجوّ باردًا، وأوشك الظلام أن يحلّ. ربّما هذا بيرغومي؟ نظرت إلى الشاشة، لكنّه لم يكن هو. كان رقمًا حفّظته تحت اسم «سيلين بوجول». فكّرت لبضع ثوانٍ، ثمّ تذكّرت: جارة والدتها. فتحت الخطّ.

– جوستين تاياندييه.

كانت الجارة في السيّارة، متّجهةً نحو لوس-لا-كروا-أوت في جنوب شرق فرنسا، حيث يملك شريكها شقّةً صغيرة، وشرعت في خطابٍ متكلّف. كانت تتّصل بها لتحذّرها من أمرٍ «بدا غريبًا»، لكنّها لا ترغب في أن تقلقها في الوقت ذاته.

هيّا يا طنط... ماذا تريدين؟

بعد آلاف المقدّمات الحذرة، أعلنت أخيرًا سبب اتّصالها. عند مغادرتها منزلها في بلدة بيوت في نهاية فترة ما بعد الظهر، لاحظت أنّ نوافذ منزل والدة جوستين كانت لا تزال مغلقةً منذ الصباح. استغربت الأمر، لكنّه لم يقلقها لدرجة أن توقف السيّارة وتقرع جرس بابها لتطمئنّ عليها، «لكن بعد التفكير في الأمر»، ربّما كان يجب أن تفعل ذلك، خاصّةً أنّها لا تجيب على الهاتف.

«ولهذا السبب قلتُ لنفسي إنّ من الأفضل أن أخبرك».

تنهّدت جوستين مع إدراكها للمسؤوليّة التي رمتها الجارة على عاتقها.

«حسنًا، سأذهب لإلقاء نظرة». أغلقت الخط.

أمّي.

اللعنة.

هذا ما كان ينقصني.

.2

أنتيب.

وقف جيوسي بيرغومي عند صندوق السوبرماركت ودفع ثمن البيرة والصحيفة اليوميّة الرياضيّة ليكيب. ثمّ ركب سيّارته المركونة في الموقف وانطلق عائدًا إلى منزله.

كان يعيش في حيّ بريغيير، في مسكنٍ بُني في الفترة التي قام فيها المطوّرون العقاريّون وشركاؤهم بذبح الكوت دازور، إذ خنقوا الواجهة البحريّة وغطّوا بطريقةٍ منهجيّة الأرض التي كانت تنبت ذات يومٍ ورودًا وأزهار قرنفل بالخرسانة.

فتح باب شقّته المؤلّفة من ثلاث غرف في الطابق الأرضي. منذ وفاة كلبه، باتت شقّة الشرطي مع عودته إلى المنزل في المساء صامتةً على نحوٍ مخيف. لم يكن المكان سيّئًا، بالرّغم من أنّه بحاجة إلى وجهٍ جديدٍ من الطلاء. ولكن ما الفائدة إن كان لا يستقبل فيه أحـدًا؟ خلع بيرغومي سترته ورفـع المصراع الألمنيوم الكهربائي قبل أن يفتح الواجهة الزجاجيّة التي تفضي إلى عشرين مترًا مربّعًا من العشب المصفرّ وشرفةٍ صغيرةٍ مغطّاةٍ بالبلاط الفخاري الريفي. هناك، جلس على كرسيٍّ وصندوق البيرة إلى جانبه وصحيفته بيده. شرب أوّل زجاجة كورونا في جرعتين طويلتين، ثمّ ابتلع الزجاجات الخمس الأخرى قبل انتهاء المساء. كان هذا المعدّل اليومي الذي يحتاج إليه للتمكّن من النوم. الحلّ الأبسط لتحقيق الانفصال بعد يوم عملٍ طويل.

وضع ساقًا على ساق رافعًا رجليه على طاولة خشب الساج، ثمّ راح يتأرجح على كرسيّه، وعيناه مغمضتان. لمَ كان يشرب حتّى الثمالة هكذا كلّ مساء؟

أوّلًا، حتى لا يُضطرّ إلى اجترار ذكرياته المؤلمة. لم يكن بيرغومي يومًا مدمنًا على الكحول كما هو اليوم، ولا الشرطي المتعفّن الذي يعتبره كلّ زملائه عديم الجدوى. عاش سنوات مجده في مرسيليا في أوائل التسعينيّات عندما كان جزءًا من مجموعة باتاييه الشهيرة، أبطال فرقة مكافحة الجرائم في ذلك الوقت. هناك، التقى بزوجته، إيرينا، ورُزق معها بابنه، آرثر. طُبعت في ذهنه صورٌ مُشرقة للسنوات

العشر الأولى من عمر الولد: الآحاد في خلجان برادو وشواطئها، والمباريات في فيلودروم، والنزهات العائليّة في حديقة بوريلي. ثمّ تمزّقت صورة العائلة. مع دخول آرثر المدرسة المتوسّطة، حاد عن الطريق وخرج عن السيطرة. في غضون بضعة أشهرٍ فقط، انزلق ابنه الحبيب من قبضته. تحوّل الطفل اللطيف والذكيّ إلى مراهقٍ عنيفٍ وبغيض. شيطانٌ لا يمكن لأيّ شيءٍ أن يصرفه عن مساره المنحرف: التخلّف عن المدرسة، وتجارة المخدّرات، والابتزاز، والسرقة باستخدام العنف. يبلغ آرثر اليوم ثلاثين عامًا من العمر، وقد قطع أيّ تواصلٍ مع والده منذ سنواتٍ عديدة. لم يكن بيرغومي يتلقّى سوى بعض أخبارٍ من هنا ومن هناك عن مساره القضائي: إداناتٌ بالجملة، واعتقالاتٌ في السجن، واحتجاز في المصحّات العقليّة. إيرينا أيضًا فقدها منذ زمنٍ طويل. هي التي كانت تتغذّى على أحلام المجد تركت وظيفتها كممرّضة ومنزلها الزوجي لتهيم خلف رجلٍ معسول اللسان فُتنت به. بحسب آخر ما سمعه عنها، كانت بائعةً في كشك بطاطس مقليّة في بولوني-سور-مير. باعت الموجود لتشتري الموهوم. **مكتبة سُر مَن قرأ**

تنهّد الشرطي وفتح عينيه. أمسك بصحيفته، وراح يتصفّح المقالات عن أولمبيك مرسيليا والدوري الفرنسي. حتّى معاناة فريق باريس سان جيرمان لم تعد تشعره بأيّ بهجة. في عطلات نهاية الأسبوع، كان يقضي وقته في إصلاح سيّارة بورش قديمة موديل 1976 كان قد اشتراها في مزادٍ علني، لكنّه كان يفعل ذلك من دون أدنى حماسة. الحقيقة أنّ الماء كان يغمر قاربه من كلّ جانب. كلّ شيءٍ بات لا يُطاق. بدءًا من نفسه، بهيئته الأشبه بهيئة كلبٍ شرس وروحه الهشّة كالكريستال. ثمّ العالم بعبثه غير المسبوق.

كان يكره هذا العصر التافه، المتعفّن حتّى النخاع. يكره هؤلاء الأحياء الأموات الذين لا حياة لهم إلّا من خلال شاشات هواتفهم. حتّى مهنته، التي كان يحبّها كثيرًا، لم تسلم. غرقت في وحول البيروقراطيّة، وحقد القضاة، وعدوانيّة شريحةٍ من السكان أجّجها اليسار المتطرّف. «الكلّ يكره الشرطة»... اكتسح شعارهم هذا الشوارع ووصل إلى الأغاني والمقالات والكتب. ومن يبالي بالأشدّ فقرًا الذين هم وحدهم يدفعون ثمن تزعزع الأمن في كلّ مرّة؟

النهاية قريبة، لحسن الحظ، هو يعلم ذلك. منذ فترةٍ طويلة وهو يعيش في الظلام، سجينًا في قفصٍ بلا قضبان. يومًا بعد يوم، كان نداء الفراغ يزداد قوّة. كان قد وضع خطّته للطريقة التي سوف يغادر بها المسرح. في صباح يومٍ منعش، سوف يفرغ رصاصةً في رأسه باستخدام مسدّسه الـMR 73 – التذكار الباقي من سنواته في مرسيليا. حتّى إنّه اختار ساحة العرض: غابة لوجي دو بين، على طريق نابليون، بالقرب من بلدة كاستيلان، حيث كان يذهب لقطف الفطر مع عائلته. سوف يشغل الخبر سطرَين في صحيفة نيس-ماتان وبالكاد تحضر جنازته حفنةٌ من الناس. في المكتب، سيسخر منه المتهكّمون في مديريّة الشرطة القضائيّة ويقولون في أنفسهم «أريح».

إيه والله، أريح. انتهت التمثيليّة.

فتح زجاجة كورونا ثانية وقرّر الكفّ عن التأسّف على نفسه. أعاد التفكير في قضيّته. بالطبع، لم يفضِ الدليل الذي تبعه في محلّ التبغ في حيّ مولان إلى أيّ نتيجة. كان يتفهّم فكرة جوستين في محاولة تحديد الشخص الذي أبلغهم بوجود العصا في مأوى القارب، لكنّها كانت مضيعةً للوقت. في حيّ ديلوناي أيضًا لم يحرز سوى فشلٍ ذريع. العديد من المالكين في كاب دانتيب لا يقطنون فيها طوال العام، ولم يكن لدى الأشخاص القلائل الذين صادفهم ما

يضيفونه مقارنةً بآخر مرّة استجوبهم فيها. الخبر الوحيد الذي فيه بعض الإيجابيّة: تلقّى رسالةً نصّية قصيرة في نهاية النهار من شخصٍ يُدعى ماتيو بوتيرو، وهو رئيس وكالة التحقيق التي تعمل لصالح عائلة دي بييترو. كتب: «Sarebbe disponibile per una telefonata stasera alle 21:00?»[1]. قبل بيرغومي الدعوة بالطبع، ورأى أنّ من الأفضل عدم البوح بشيء عن الأمر لجوستين بعد، حتى لا تعد نفسها بخبرٍ مفرح ويخيب أملها. صحيحٌ أنّ المحقّقين الإيطاليّين لا يملكون مفتاح القضيّة، لكن لعلّهم جمعوا بعض قطع أحجية البازل من جهتهم. وبقدر ما كان مُحترسًا من مكرهم، تمنّى أن يكون ذلك صحيحًا.

وضع نظّارته ليتصفّح على هاتفه تقرير الاستجواب الذي وصله من جوستين عبر البريد الإلكتروني. كان بيرغومي يكنّ للقائدة محبّةً خاصّة منذ أن أصبحت، مثله، ناجيةً من عاصفة الحياة، مُثقلةً بالجراح. قرأ الصفحات الأولى بتوجّس، لكنّ توتّره زال تدريجًا. تلك الصغيرة أظهرت قدرًا لا بأس به من الحنكة! كانت المناقشات حيويّةً ومثيرةً للاهتمام. أخذته القراءة من مفاجأةٍ إلى أخرى، ليفرج تارةً عن ابتسامة ويقطّب حاجبيه تارةً أخرى.

ومع ذلك، شيءٌ ما أقلقه: رفض ديلوناي الاستعانة بمحامٍ بينما يواجه عقوبة السجن لمدّة ثلاثين عامًا. إمّا أنّ الرجل كان يتمتّع برباطة جأشٍ غير عاديّة وغرورٍ مرضي...

وإمّا أنّه بريء.

وغير واعٍ.

[1] هل يمكننا أن نتحدّث مساء اليوم عند الساعة التاسعة؟

3.

نظر بيرغومي إلى ساعته كي لا يفوّت النشرة الإخباريّة. عاد إلى غرفة المعيشة وشغّل التلفاز. كان مذيعٌ نحيلٌ، ذو شعرٍ بنّي مُسرّح كالطاسة، وعينين ضيّقتين، يتكلّم عن أدريان ديلوناي. بقي بيرغومي لبضع ثوانٍ محدّقًا بهيئة الرجل الذي أعطى انطباعًا فريدًا بأنّه مفتونٌ بنفسه. خصلةٌ متمرّدة، تسريحةٌ قاتمة متكلّفة، نظرةٌ تتصنّع العمق، وإيماءةٌ مبتذلة على طريقة مغنٍّ رومنسي كلاسيكي يحاول أن يسحر جمهوره: كان المذيع تجسيدًا نقيًّا لنرجسيّة هذا العصر.

بعد الإعلان عن اعتقال عازف البيانو والتذكير بتفاصيل القضيّة، عرضت النشرة الإخباريّة نفوذ عائلة أوريانا دي بييترو. تغيّرت قسمات وجه بيرغومي. كانت هذه نقطة الضعف في تقرير التحقيق. جانبٌ لم تتمكّن الشرطة القضائيّة في نيس من استغلاله كما رغبت لعدم تعاون عائلة دي بييترو وشبه استحالة إجراء التحقيقات في الخارج. فمن الناحية النظريّة، وجب على شرطة ولاية ميلانو دعمهم. أمّا من الناحية العمليّة، فكانت المساعدة معدومة.

أطفأ بيرغومي التلفاز ومدّ يده إلى حقيبته ليخرج عددًا من الملفّات. وجد في أحد الجيوب شجرة عائلة دي بييترو التي كان قد رسمها، وأراد مراجعتها قبل المكالمة المنتظرة في المساء.

لم يكن الشرطي ملمًّا بالاقتصاد، لكنّه كان يدرك جيّدًا أنّ وفاة ربّ الأسرة، كارلو دي بييترو، قد أخلّت بتوازن الركائز التي قامت عليها المجموعة، إذ قُسّم رأسمال الشركة بالتساوي بين ثلاثة أطراف. ورثت أوريانا 33 بالمئة من أسهم والدها، وكذلك لورا، زوجة كارلو الثانية، وابنهما ستيفانو. كان لأوريانا وأخيها غير الشقيق شخصيّتان مختلفتان تمامًا. من دون أن ترفض أموال عائلتها، حاولت أوريانا

طوال حياتها أن تشقّ طريقها في مجالات فكريّة – الصحافة أوّلًا، ثمّ النشر – حيث أحرزت نجاحًا ملحوظًا. أمّا ستيفانو، فاشتهر بحياةٍ ماجنة وتصرّفاتٍ طائشةٍ لا تليق بوريث عائلةٍ عريقة. حاول ذلك الـ«pezzo di merda»، أو «النذل»، كما لقّبوه، أن يؤدّي دور رجل الأعمال، لكنْ تبيّن أنّه لم يرث شيئًا من موهبة والده، وراح يحرق الثروة العائليّة بسرعةٍ قياسيّة. استثمر على التوالي في الموضة وسباق السيّارات، ثمّ سعى أخيرًا إلى إنشاء منصّة تبادل للعملات المشفّرة خاصّة به.

عُرف ستيفانو بالحلقة الأضعف في الأسرة. سعيًا وراء المال، باع الـ«pezzo di merda» جزءًا كبيرًا من أسهمه بعد أشهرٍ قليلة من وفاة والده. لم يكن الشابّ المستفيد من الوصيّة سوى كيانٍ ماليٍّ مفترس بات يهدّد التوازن الهيكلي للمجموعة. بين عشيّةٍ وضحاها، انحدرت الأسرة إلى مستوًى من الضعف جعلها على وشك فقدان السيطرة على الشركة. حينئذٍ، لجأ ورثة دي بييترو إلى أتزِليو كابيتشي.

كانت قصّة كابيتشي فريدةً من نوعها. في السنوات الأخيرة من حياته، أدرك كارلو دي بييترو ألّا أحد من أبنائه قادرٌ على حمل الشعلة من بعده. فعلّق آماله بالمدير العام لمجموعته، وهو مهندسٌ بالتدريب أصله من فلورنسا. حتّى إنّه صرّح علنًا بطريقته الاستفزازيّة الاعتياديّة: «هو الابن الذي لطالما حلمتُ به، الوحيد المؤهّل لأن يخلفني في يومٍ من الأيّام». كان المهندس، في معظم الأوقات، يرتدي سروال جينز وقميصًا أبيض، ويضع نظّارة دائريّة صغيرة، ويحرص على التحلّي بأقصى درجات الكتمان. وكان يحظى بتقدير الأوساط الاقتصاديّة، يعمل بصمتٍ خلف الكواليس، ويحافظ على علاقاتٍ ودّية مع زوجة كارلو وابنته، إلى أن تمكّن سريعًا من فرض نفسه عنصرًا لا غنى عنه. بمرور الوقت، وبفضل استغلاله الذكيّ لخيارات

الأسهم التحفيزيّة للموظّفين وشرائه المدروس لبعض الحصص من السوق في الوقت المناسب، نجح في أن يملك 1 بالمئة من أسهم المجموعة باسمه الخاصّ.

مع وفاة زعيم الأسرة، عُيّن الفلورنسي في منصب الرئيس وقدّم نفسه على أنّه الضامن لوحدة المساهمين من أفراد العائلة. ولدرء عرض الاستحواذ الخارجي العدائي، أقنع لورا وأوريانا بإنشاء شركة قابضة تجمع أكثر من 50 بالمئة من الأسهم والالتزام بتجميدها لمدّة خمسة عشر عامًا. خطّةٌ تقلّل من مواردهما الماليّة، ولكن تضمن لهما بقاء السلطة في يد العائلة. لكنّ هذا الترتيب المالي المحوك ببراعة تعثّر برحيل أوريانا، التي تُوفّيت قبل أن تتمكّن من التصديق قانونيًّا على الاتفاقيّة. وبعدما ورث ديلوناي رأس مال زوجته، لم يظهر أيّ حماسة للتصديق على اتفاقيّة المساهمين هذه، ما أحدث ثغرةً في البنية الرأسماليّة للشركة.

كان بيرغومي ينهي إضافة التعليقات على رسمته عندما رنّ هاتفه. الرقم محجوب. فتح الخطّ مباشرةً بعد الرنّة الأولى.

– نعم؟

– Buonasera signor Bergomi, sono Matteo Botero della sede di Milano[2].

– Buonasera.

– Non giriamoci intorno[3]...

كان المحقّق الذي عيّنه أتزليو كابيتشي يرغب بشدّة في معرفة ما قاله ديلوناي خلال يومه الأوّل في حجز الشرطة. سأله بيرغومي هل

[2] مساء الخير سيد بيرغومي، معك ماتيو بوتيرو من مديريّة ميلانو.

[3] بلا لفّ ودوران.

لديه أيّ معلومات ليقدّمها له في المقابل. للمرّة الأولى، لم يدخل الإيطالي في مراوغة لا نهاية لها.

– Abbiamo qualcosa che potrebbe interessarle، Sarebbe disponibile a venire a Milano?[4] اعترف بنبرةٍ حذرة.

–A Milano? Quando?

– Questa será.

هذا المساء!

أشعل الاقتراح حماسةً خافتةً في جسد الشرطي العجوز. إن كان الإيطالي يعرض عليه الذهاب إلى لومبارديا، فذلك بلا شكّ لأنّ ربّ عمله، أتزليو كابيتشي، أمره بذلك. وافق بيرغومي على الموعد ودوّن العنوان – فندق إكسلسيور – ثمّ أغلق الخطّ.

لم تستغرق المحادثة أكثر من ثلاث دقائق، لكنها كانت كافية لإعادة الحياة إليه، وكأنّ عاصفةً هبّت فجأة فبدّدت الغيوم الثقيلة التي كانت تتلبّد فوق رأسه.

أعدّ لنفسه ترمسًا من القهوة، وأمسك بسترته وأغلق باب شقّته وراءه. شغّل محرّك سيّارته البورش القديمة من طراز 911 وتوجّه إلى محطّة الوقود التابعة للهايبرماركت عند مخرج الطريق السريع. ملأ خزّان الوقود ثمّ تابع طريقه عبر بوابة A8 نحو الحدود الإيطاليّة. أدخل العنوان في هاتفه ليكوّن فكرة عن المدّة التي ستستغرقها الرحلة: حوالي أربع ساعات من القيادة لاجتياز ثلاثمئة وخمسين كيلومترًا.

قاد سيّارته تاركًا نافذته مفتوحة، متلذّذًا بنسمات المساء اللطيفة. أضاءت ابتسامةٌ رقيقةٌ وجهه وهو يهمهم على أغنية توتو كوتونيو:

4 لدينا معلومات قد تهمّك. هل يمكنك القدوم إلى ميلانو؟

Buongiorno Italia, buongiorno Maria»
[5]«Con gli occhi pieni di malinconia».

4.

كان الطريق الساحلي محصورًا بين البحر المتوسّط وخطّ السكّة الحديديّة. عند الساعة 8:45 مساءً، كانت السيّارات لا تزال تتقدّم في زحمة سيرٍ خانقة. وجّهت جوستين نظرها نحو الشاطئ المرصوف بالحصى البيضاء دون أن تراه، محدّقةً بالفراغ. كان الصيّادون قد بدأوا بوضع صنّاراتهم جانبًا، وكانت عائلات أو مجموعات أصدقاء تشعل نارًا للشواء في انتهاكٍ واضحٍ للقوانين.

وصلت هاتفها بالنظام الصوتي في سيّارتها الميني كوبر وحاولت الاتّصال بوالدتها من جديد. خمس رنّات، ثمّ المجيب الآلي. شغلت مكالمة الجارة بالها، لكنّها لم تقلقها أكثر من اللازم.

والدتها... ماتيلد تاياندييه، التي تسمّيها ساخرةً «محور الكون». عاشت ذروة مجدها عندما انتُخبت وصيفةً أولى لملكة جمال كوت دازور عام 1978. بعد بضعة أشهر، تزوّجت ربّ عملها، طبيب العيون الذي كانت تعمل سكرتيرةً لديه، وتركت وظيفتها. وُلدت جوستين مباشرةً بعد ذلك. ملخّص بقيّة حياتها: رفاهيّة، سفر، عشّاق، وصديقات. رياضة كلّ يوم، حياة صحّية، حقن بوتوكس، عمليّات تجميلٍ متعدّدة، آلاف اليورو المُنْفقة شهريًّا على الملابس أو الأكسسوارات. في عام 2013، وبين ليلةٍ وضحاها، هجرها زوجها من دون سابق إنذار ليذهب ويعيش بمفرده مع كلبه في كارانتيك في خليج مورليه. لم تلمه جوستين أبدًا. هي نفسها لم يربطها بوالدتها

[5] صباح الخير يا إيطاليا، صباح الخير يا ماريا
وفي عينيّ تلمع مأساتي

أيّ ودٍّ حقيقي. كانت علاقتهما في معظم الأحيان عبارةٌ عن لامبالاةٍ مضطربة. لم تتّفقا يومًا على الرأي نفسه. كلٌّ منهما تجد حياة الأخرى مثيرةً للشفقة، وتنتقد شخصيّتها واختياراتها.

غادرت جوستين الواجهة البحريّة عند مستوى حديقة مارينلاند المائيّة ثمّ صعدت نحو بلدة بيوت، وسارت ببطء بمحاذاة مهرجان مدينة بيلون. كما في كل مرّة تمرّ بها من هنا، أثارت في نفسها رائحة غزل البنات والتشوروس وصرخات الأطفال على الألعاب فيضًا من ذكريات الطفولة. أرجعها رنين هاتفها إلى أرض الواقع.

بيرغومي أخيرًا!

– أين أنت بحقّ الجحيم؟

– في طريقي إلى ميلانو!

تبادل الشرطيّان أحداث يومهما بأدقّ التفاصيل. بعد عامٍ من العمل، وصلت قضيّتهما إلى مرحلتها الأخيرة. هذا هو الجزء الأجمل من الوظيفة. بعد أشهرٍ من الركود، واجترار الأفكار، والإحباط، فجأةً تترابط كلّ العناصر وتُفتح أبوابٌ واعدة في آنٍ واحد. كلّ عملهما المضني، كلّ جهودهما التي لم يقدّرها أحد وجدت أخيرًا غايتها. يجب ألّا يتحمّسا كثيرًا بعد، لكنّهما لم يكونا يومًا قريبَين لهذه الدرجة من الهدف. للمرّة الأولى، يقتربان من حلّ قضيّة ستبقى حديث الناس حتّى بعد عشرين عامًا. هما الآن في خضمّ جولة بوكر، وفي يديهما ورقٌ قويّ: ثلاثة أصات وملكان... ليس الفوز محسومًا بعد... لكنّ الاحتمالات لمصلحتهما.

من دون أن يغرقا في نشوة النجاح، سمح جوستين وبيرغومي لنفسيهما بلحظةٍ صغيرةٍ من الرضى عن الذات. واسى أحدهما الآخر، وشجّعه، ثمّ شتما الجميع معًا. الكلّ نال نصيبه: كانديس لاشوم، بويغرونييه، القضاة، زملاؤهما في قسم الشرطة القضائيّة. قريبًا جدًّا

سيتمكّنان من سدّ الكثير من الأفـواه. «سوف نمسح بهم الأرض، هؤلاء الأوغاد».

أنـهت جوستين الـمحادثـة مـع وصولـها إلـى بـيوت. كانت والدتها تعيش على طريق فالبون، بعد البلدة القديمة مباشرةً، على تقاطع طريقٍ يفضي إلى مجمّعٍ سكني غير نظامي مكوّن من خمسة منازل. ركنت سيّارتها تحت شجرة زيتون وسارت حوالي ثلاثين مترًا حتّى بوّابة الفيلا العائليّة. صدقت الجارة: النوافذ كلّها مغلقة. قرعت الجرس، ومن دون الانتظار طويلًا، تسلّقت البوّابة لتدقّ على باب الفيلا.

– ماما؟

دارت حـول المنزل حتّى حـوض السباحة والكابينة. نظرت عبر النوافذ، فلم ترَ أيّ شيءٍ مريب. لكنّها توجّست شرًّا. لقد عاشت هنا حتّى بلغت الثامنة عشرة من عمرها وكانت تعرف كلّ المداخل. توجّهت نحو إحدى النوافذ الكبيرة التي لم تكن تُغلق بإحكام وتمكّنت من فتحها باستخدام طرف سيخٍ عثرت عليه بالقرب من الشوّاية.

– ماما؟

دخلت غرفة المعيشة، ثمّ جالت في المطبخ، وغرفة النوم، والحمّام في الطبقة السفليّة. هناك، وجدت والدتها، جامدة، على الأرض، جريحة الرأس، محاطةً ببركةٍ من الدماء.

13

جوستين تاياندييه
لدغات الحقيقة

«سهلٌ أن نحبّ الناس الذين يحيون في ذاكرتنا؛
الصعوبة أن نحبّهم وهم يحيون بجانبنا».

جون أبدايك

اليوم نفسه

مركز أنتيب خوان-ليه-بين الطبّي

الساعة 10 مساءً

لكلّ أفقٍ ضوءٌ شاحب يخترقه صخب الأصوات، والتنهّدات، والحسرات المكبوتة. هواءٌ مثقلٌ بالتوتّر، والإرهاق، والتعب.

غصّت غرفة الانتظار في وحدة الطوارئ بالموجودين. كم كان عدد المرضى؟ خمسون؟ ستّون ربّما. متكدّسون في مساحةٍ صغيرة. نقّالات في كلّ مكان، وكائناتٌ أشبه بالأموات الأحياء متهالكة على الكراسي فيما يقف من لم يجد مقعدًا محمومًا وواهنًا. أمّا الآخرون فلا يزالون ينتظرون دورهم، مصطفّين أمام الممرّضة المختصّة بالتقييم الأوّلي والفرز. مشهد فوضى بتنا نراه كلّ ليلة في مستشفيات فرنسا. وفي كلّ مرّة، السؤال عينه يطرح نفسه: كيف وصلنا إلى هنا؟

كانت ماتيلد تاياندييه جالسةً على نقّالة، ونصف رأسها ملفوفٌ بضمادةٍ ضخمة. بعدما وجدتها جوستين مرميّةً على أرض حمّامها، اتّصلت برجال الإطفاء الذين وصلوا في غضون خمس دقائق. وفور إنعاشها وتقديم الإسعافات الأوّليّة لها، نقلوها إلى قسم الطوارئ. غير أنّ المستشفى اعتبر حالتها غير طارئة، فأزيحت نقّالتها إلى زاويةٍ من دون أيّ اعتبار. شاء من شاء وأبى من أبى.

نفد صبر جوستين. فعادت مجدّدًا نحو الممرّضة عند مكتب الاستقبال:

– والدتي مشقوقة الرأس، صاحت بها.

– أعرف. سيأتي طبيبٌ لفحصها قريبًا، لكن عليها التحمّل والصبر، مثل سائر المرضى.

بدت الفتاة غارقةً في لوحة المفاتيح. كانت تضغط على مفتاح الإدخال بطريقةٍ ميكانيكيّة المرّة تلو الأخرى محدّقةً في شاشة الكمبيوتر بقلقٍ شديدٍ كما لو أنّ عفريتًا على وشك أن يخرج منها وينقضّ عليها.

– لكنّها تنزف! صرخت جوستين.

ردّت مقدّمة الرعاية بانزعاج:

– الجرح تحت السيطرة. أتفهّم قلقكِ، لكنّ حالة والدتكِ ليست من الحالات ذات الأولويّة.

– يبدو أنّكِ لم تنظري جيّدًا. فروة رأسها ممزّقة على طول عشرين سنتيمترًا، كما لو أنّ أحدًا من قبيلة الإيروكوا حاول سلخها وهي حيّة.

– لا أظن أنّ تشبيهًا كهذا لائقٌ في عام 2024.

– لا أكترث البتّة لما ترينه لائقًا. انقلي والدتي إلى غرفة ريثما يأتي أحدٌ ويخيط جرحها!

– لا أسرّة شاغرة لدينا. كوني منطقيّة.

– أمامكِ قائدة شرطة، قالت جوستين وهي تسحب بطاقتها المهنيّة.

– حتّى لو كنتِ أميرة موناكو، الأمر سيّان.

– أنا...

– سخيفة، قاطعتها الممرّضة.

فهمت الشرطيّة بمرارة أنّها خسرت الجولة، فلم تلحّ، وعادت لتجلس بجوار والدتها ممتعضةً، مُنكَّسة الرأس.

بعدما قضت عشر ساعات منتقعةً في بولها وبرازها، لم تكن السلطانة الوالدة – بعيدًا عن مملكتها – في أفضل حالاتها. بدون مكياج، وملامحها متعبة، ووجهها ملطّخ بالدماء، فقدت ماتيلد تاياندييه كلّ أثرٍ لجلالتها بوجهها العاري من مساحيق التجميل، الكاشف عن ملامحها المتعبة، والملطّخ بالدماء، فضلًا عن الضمادة الضخمة التي غطّت رأسها، كما لو أنّها تُوّجَت بقطعةٍ عملاقةٍ من حلوى المرينغ. مجرّدةً من زينتها، بدت عجوزًا واهيةً ومرهقة.

– أيمكنني استعارة هاتفكِ؟ سألت ابنتها.

– لماذا؟

– لأستخدمه كمرآة.

– الأفضل ألّا تري نفسكِ بهذا الشكل، صدّقيني.

– أنتِ تخيفينني.

– أنتِ التي أخفتني. اللعنة! ألم يكن بإمكانكِ الانتباه أكثر؟ الجميع يعلم أنّ الأرضيّة زلقةٌ في الحمّام.

هزّت ماتيلد كتفيها.

– كانت الأرض مبلّلة، ماذا أفعل؟ سقطتُ فشقّت الحافة الحادّة للخزانة رأسي كالخنجر. كان حظّي عاثرًا.

تنهّدت جوستين. لم ولن يجمعها شيءٌ واحدٌ مشترك مع والدتها يومًا، لكن عندما هجرها رومان ليعيش مع الطبيبة الجرّاحة، أصيبت بإحباطٍ شديدٍ لدرجة أنّها لم تجد غيرها لتتشبّث به حتّى لا تغرق. مرّاتٍ عدّة، أوشكت أن تربط حبلًا فوق الدرج المؤدّي إلى قبو منزلها. لتشنق نفسها به. كانت الصورة واضحةً ودقيقة في ذهنها. وكان التنفيذ سهلًا جدًّا. لم يكن لدى جوستين أصدقاء حقيقيّون، ولا أقارب آخرون. جلّ ما لديها حبوب الليكسوتانيل، ومضادّات الاكتئاب، وأمّها. صارت، في اللحظات العصيبة، ولتجنّب تحويل الصورة المُتخيّلة واقعًا، تستقلّ سيّارتها وتعود إلى بلدة بيوت، حيث تقضي سهرتها تبكي وتتجادل مع ماتيلد، قبل أن تنام في غرفة نومها من فترة المراهقة. لم تكن المرأتان تتواصلان سوى بالمشاجرة، لكن، على الأقلّ، أبعدت هذه المواجهات الأفكار السوداء عنها. على أيّ حال، في جنوب البلاد، يُعدّ الصراخ وسيلةً للحوار مثل أيّ وسيلةٍ أخرى.

الساعة 11 مساءً

– أعتقد أنّ حوضي مكسور، قالت ماتيلد متجهّمة.

– فلننتظر الطبيب. لا تبكي قبل أن تتألّمي.

– قبل أن أتألّم؟ أنا أتألّم كثيرًا!

تنازلت جوستين عن الرّد وابتلعت استباقًا حبّة أدفيل، قبل أن يستولي عليها الصداع النصفي تمامًا. لا يزال الألم في الوقت الحالي خفيفًا، يذهب ويعود، لكنّها عرفت أنّه إذا هبّ الإعصار، فإنّ الساعات القليلة المقبلة ستكون صعبة.

– وأنتِ؟ كيف حالكِ؟ سألت ماتيلد.

– بخير، بخير.

تردّدت في قول المزيد، ثمّ تابعت:

– قابلتُ رجلًا ظريفًا اليوم.

أثار هذا الاعتراف اهتمام ماتيلد.

– حقًّا؟ أهو وسيم؟

أظهرت جوستين لوالدتها صورةً لِديلوناي على هاتفها.

– لا بأس أبدًا! أين قابلتِه؟

– خلال عملي.

– وماذا يفعل في الحياة؟

– عازف جاز على البيانو.

– هل خطّطتما للّقاء مرّةً أخرى؟

– نعم، سنقضي النهار معًا غدًا.

– هل هو متزوّج؟

– نعم، حسنًا... لا، زوجته ماتت.

– مؤسفٌ لها، لكن جيّد لكِ!

– ليس تمامًا، ماما.

– أوف، لماذا؟

– لأنّه هو من قتلها.

– تفصيلٌ مزعجٌ فعلًا، اعترفت ماتيلد.

منتصف الليل

فركت جوستين ذراعيها وساقيها محاولةً التخلّص من ذلك الإحساس بالوخز. منذ أسابيع وهذا الشعور المزعج يضايقها: وكأنّ حشراتٍ صغيرة تزحف على جلدها. مبلبلة الفكر، نهضت لتحرّك ساقيها. عبرت القاعة وخرجت إلى ساحة المستشفى بحثًا عن هواءٍ نقيٍّ، لكنّ الجوّ كان مثقلًا، ورطبًا، ومحمّلًا برائحة الهيدروكربونات القذرة. اتّكأت على

الدرابزين الذي يحيط بالباحة. وقف حوالي عشرة رجال يستمتعون بالتبوّل على النباتات الخضراء التي تطوّق مدخل المستشفى. زمّت جوستين عينيها. لقد جاءت إلى هنا من قبل وتعرف هذا الوضع جيّدًا. كان نصفهم من المشرّدين من منطقة فونتون، والنصف الآخر من مرضى مركز الطبّ النفسي والإدمان الذين لم يعودوا إلى غرفهم أو هربوا خلسةً وسط جوٍّ عامٍّ من اللامبالاة. بدوا جميعهم في حالة سكرٍ أو انتشاء. «La Cour des Miracles»[1] بنسخة القرن الحادي والعشرين. التقطت هاتفها عاجزةً عن مقاومة تصفّح الإنستغرام. كما في كلّ مساء، كانت الطبيبة الجرّاحة تكافئ متابعيها بسلسلة ستوريات تنشر فيها لحظاتها السعيدة. شعرت جوستين بغصّةٍ في حلقها وهي تمرّر الصور التي تعرض يومًا شاعريًّا جديدًا في بقعةٍ ساحرة. رحلةٌ بالقارب، وجبةٌ في مطعم على الشاطئ، واسترخاءٌ على الرمال. بدت ألوان جزيرة كورسيكا البهيّة والمشرقة في تناقضٍ تامٍّ مع السواد الذي في داخل جوستين. حتّى اليوم، لا تطيق بهجة طليقها. وما زاد من مرارة الأمر أنّ رومان ظهر وكأنّه استعاد شبابه. خسر حوالي عشرة كيلوغرامات من وزنه، وبدا جذلًا أنيقًا بملابس سباحةٍ برتقاليّة زاهية وقميصٍ من الكتّان الأبيض، ومتوهّجًا بجانب شريكته الجديدة وطفله. كما لو أنّه نقل إلى جوستين كلّ الوزن الزائد الذي فقده. **حقير، نذل، مغفّل، مغرور، حثالة، وضيع، بلا دم، قذر، لقيط، نتن، جبان، ضعيف، فاشل.** تدفّق دمٌ أسود في عروقها. كانت مشاهدتها

[1] مصطلح فرنسي يعني حرفيًا «ساحة المعجزات»، ويشير إلى أحياء الفقر في باريس القديمة، حيث كان يسكن العاطلون من العمل القادمون من الأرياف الذين كانوا يتسوّلون في المدينة خلال النهار ويتظاهرون بأنّهم مصابين بإعاقاتٍ وأمراضٍ لكسب الصدقات، ثمّ يعودون إلى هيئتهم الطبيعيّة بمجرّد عودتهم إلى هذه الأحياء في المساء، وكأنّ «معجزةً» حدثت فيها. توسعت هذه المناطق خلال عهد لويس الرابع عشر، وألهمت لاحقًا أعمالًا أدبيّة كـ«البؤساء» و«أحدب نوتردام» لفيكتور هوغو.

لهذه الصور اليوميّة كفيلةً بأن تبثّ فيها في كلّ مرّة شعورًا خالصًا بالكراهية. جنونٌ يفوق الغضب. رغبةٌ في الإبادة لم تعرفها من قبل، وتحتاج من بعدها لوقتٍ طويلٍ لكي تهدأ. وكانت في بعض الليالي لا تفلح حتّى في ذلك.

في بداية انفصالهما، كانت دموعها تنهمر بسرعة. وكان بإمكانها النحيب الليل بطوله إلى أن تتمكّن من النوم، مرهقةً، ومطهّرةً لبضع ساعات من غضبها وألمها. لكن، منذ فترة وجسدها جافّ من الدموع المخلّصة. فقد تراكمت الكراهية في داخلها من دون وسيلةٍ لتصريفها. وهو وضعٌ لا يمكن أن يستمرّ إلى الأبد، وكانت تعرف ذلك. لم يعد شيء عقلاني في سلوكها، وأفكارها، وقراراتها.

وصلت سيّارة إسعاف مسرعة، صاخبةً بصفّارة الإنذار، وساطعةً بأضواء التحذير الزرقاء. وضعت جوستين سمّاعات الأذن وشغّلت الموسيقى. كان نظام إلغاء الضوضاء في سمّاعات الإيربودز يعمل بمثابة فلتر سحري يعزل صاحبها عن العالم وينقله إلى واقعٍ خفيّ. أغلقت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا. كما في كلّ مرّة تستمع فيها إلى مقطوعة «فتاة المتاهة»، تحفة أدريان ديلوناي المأخوذة من الألبوم الذي يحمل الاسم نفسه، بثّت فيها النغمات الأولى رعشةً من رأسها إلى أخمص قدميها. تبدأ المقطوعة بمقدّمةٍ بطيئة وحزينة تولّد على الفور جوًّا من الغموض. ثمّ يتبدّد التوتّر. يتكرّر نمط إيقاعي بمقياسٍ مزدوج، فيولّد نبضةً مُطَمئنة. ضربات قلبٍ منتظمةٌ مغلّفة بنغمةٍ مفعمةٍ بالحنين. لحنٌ ملؤه الغموض، تارةً يمزّق قلبك، وتارةً أخرى يدفعك إلى المضيّ قدمًا. ثمّ يستعيد ديلوناي عبر بقيّة المعزوفة هذا اللحن الأساسي، مضفيًا عليه زخارف، وتطريزات، وتقلّبات متنافرة أصبحت بصمته المميّزة. وينهي المقطوعة بعودةٍ إلى الوتيرة البطيئة التي بدأ بها.

الانطباع الذي تولّده نهاية المقطوعة أكثر هدوءًا وإشراقًا. أحبّت جوستين هذه المعزوفة لأنّها شعرت بأنّها تحكي قصّتها. فتاةٌ ضائعةٌ في متاهة الحياة، تتصارع مع أفراحها، وأحزانها، وشياطينها... إنّها هي، تتمسّك بخيط أريادني من الميثولوجيا اليونانيّة القديمة، على إيقاع لمسة عازف البيانو الناعمة والرقيقة التي بشّرت بطلته بلمحة أملٍ في مستقبلٍ أكثر تفاؤلًا.

قطعت شرودها الذهني صورة شخصٍ يرتدي بدلة غوص، يصعد إلى سطح قارب. لم يحاول الرجل، الذي كان يضع غطاءً واقيًا للرأس، إخفاء وجهه. كان أدريان ديلوناي.

تقدّم نحوها مهدّدًا، وبيده بعصا معدنيّة.

– سأريكِ، أيّتها العاهرة! صرخ وهو يضربها بها.

قفزت جوستين وقلبها يخفق بشدّة. علقت صرخةٌ في حنجرتها. سيطر عليها الخوف، فخلعت السمّاعات وذهبت لتنضمّ إلى والدتها في الداخل.

استولى على فكرها الرجل، والفنّان، وكلّ ما كان...

الساعة 1 فجرًا

تواصلت حركة المدّ والجزر.

رقصة الباليه المتقطّعة نفسها للقمصان البيض المتعبة.

صوت الصنادل المجرجرة على الأرضيّة المطاطيّة.

طوفان المرضى المصعوقين.

ركّاب ينتظرون طائرةً لن تقلع أبدًا.

الساعة 2 فجرًا

– أمّي؟

– نعم؟

– ما أجمل لحظة في حياتك؟

– هه؟

– أكثر لحظة أشعرتكِ بالسعادة.

– لمَ تسألين؟

– من باب الفضول، ليس إلّا.

لم تأخذ ماتيلد وقتًا طويلًا للتفكير:

– همم... يمكنني أن أقول صيف عام 1978.

– عندما شاركتِ في مسابقة ملكة الجمال؟

– نعم، لكن ليس هذا السبب الوحيد. كنتُ أعيش في خوان-ليه-بين، وكان الطقس صيفيًا طوال العام. كنت في العشرين من عمري. يافعة، وحرّة، وكان الجميع يقول إنّني أشبه بريجيت باردو. كنّا نستمع إلى ZZ Top، رود ستيوارت، وABBA.

توقّفت هنيهةً، تاركة الذكريات تتدفّق من جديد.

– كان كلّ شيء ممكنًا. يا ليتني أستطيع العودة إلى ذلك الزمن. ما أندم عليه حقًّا هو أنّني لم أدرك حينئذٍ أنّني كنتُ أعيش أجمل سنوات عمري.

– «ليت الشباب يزداد حكمةً، ليت المشيب يزداد قدرةً...».

– نعم...

تردّدت جوستين، وانتقت عباراتها بدقّة قبل أن ترفع صوتها، محتدمةً، لتفصح عن مكنونات قلبها.

– ما زلتِ لا تفكّرين سوى بنفسك، وتحسبين نفسكِ محور الكون، أليس كذلك؟ أتساءل كيف يمكنكِ أن تكوني أنانيّةً لهذه الدرجة.

– ما الذي أصابكِ؟ ما الذي تتفوّهين به؟

– ألم يكن بإمكانك اختيار ذكرى معي أو مع أبي؟ ألا تستطيعين حتّى التظاهر بأنّ تلك الذكريات تهمّكِ؟

– اللعنة! لا تسألي إن كنتِ لا تريدين سماع الردّ!

– لقد فعل أبي الصواب برحيله. لا بل كان يجدر عليه الذهاب قبل ذلك! لقد دمّرتِ حياته.

– لقد فعل زوجكِ الصواب برحيله أيضًا. أنا مندهشة حتّى أنّه انتظر كلّ ذلك الوقت.

– أنتِ تفقدينني صوابي، أمّي.

– لا يمكنكِ تحمّل الحقيقة، جوستين. مهنتكِ كلّها تتمحور حول إيجاد الحقيقة، لكنّ الحقيقة لن تساعدكِ على التعافي، بل على العكس.

الساعة 3 فجرًا

جلست جوستين متربّعةً على مقعدٍ بلاستيكي صلب، وفتحت حاسوبها المحمول. أرسل لها بيرغومي بريدًا إلكترونيًّا مرفقًا به شجرة عائلة آل دي بييترو التي أضاف عليها تعليقاته.

كانت تعلم أنّ معاونها قد أصبح مهووسًا بهذه القضيّة. كان بيرغومي مقتنعًا بأنّ أحد اللاعبين الأساسيّين فيها هو أزيليو كابيتشي، اليد اليمنى السابق لوالد أوريانا الذي خلفه في منصب رئيس الشركة. فقد فرض المهندس السابق نفسه بسرعة البرق لدرجة أنّه أصبح «العرّاب» الجديد. أطلقت جوستين بحثًا على غوغل، وتصفّحت مواقع المجلّات الاقتصاديّة التي تناولت بالتفصيل استراتيجيّة كابيتشي. كان الإيطالي قد تمكّن من إدارة الشركة بامتلاكه 1 في المئة من أسهمها فقط، مطوّرًا هيكليّة ذكيّة لتحصين رأس مال العائلة. وكانت الصحف تقارن بين وضعه ووضع شركة

Hermès الفرنسيّة، التي تمكّن ورثتها، عام 2010، من الإفلات من محاولة الاستحواذ التي شنّتها مجموعة LVMH، عملاقة السلع الفاخرة. لكنّ رفض أدريان ديلوناي توقيع اتفاقيّة المساهمين، رغم أنّ زوجته صدّقت عليها من حيث المبدأ قبل وفاتها، كان سببًا في تقويض خطط كابيتشي وإغراق الشركة في حالةٍ من الاضطراب.

بعد الانتهاء من الصحافة الاقتصاديّة، انتقلت جوستين إلى صحافة المشاهير حيث ظهر اسم رجل الأعمال مرّاتٍ عدّة في الأشهر الأخيرة. ففي شهر ديسمبر/كانون الأوّل الماضي، نشرت مجلة «Chi» صورًا لكابيتشي ولورا دي بييترو، أرملة كارلو، يدًا بيد في فندق في سان-بارتيليمي، ثمّ استحضرت صحيفة شعبيّة أخرى شائعات الزواج. فكّرت جوستين وهي تفرك جفنيها: هل من تأثير يمكن أن تحدثه هذه العلاقة الرومانسيّة المفترضة على قضيّتها؟ كانت عيناها تحترقان، وكان صداعٌ نصفيٌّ يترصّدها والتعب قد بدأ يغلبها. نظرت خلفها: نامت والدتها أخيرًا، متهالكةً على النقّالة. جرّت جوستين نفسها نحو آلتي البيع. كان دماغها لا يزال يشتغل، لكن عبثًا في الوقت الراهن. حدّقت في الآلة فترةً طويلة، ثمّ ابتاعت شطيرةً إيطاليّة وعبوة سان بيليغرينو بالليمون لتبقى في الأجواء الإيطاليّة.

الطفلان...

تجمّدت وهي تستردّ الفكّة. ماذا سيحدث لو أدين ديلوناي بقتل زوجته؟ من هذه الناحية، كان القانون واضحًا. سوف يُستبعد عازف البيانو تلقائيًّا من التركة وسيتعيّن عليه إعادة كلّ الممتلكات والعائدات التي ورثها وتُنقل هذه الأخيرة عندئذٍ إلى طفليه. لكنّ باولو وصوفيا لا يزالان بعيدَين كلّ البعد عن سنّ البلوغ. وإذا قضى ديلوناي خمسة عشر أو عشرين عامًا في السجن، فسوف تُمنح حضانة الطفلين لوصيٍّ (أو وصيّةٍ) يعيّنه مجلس العائلة.

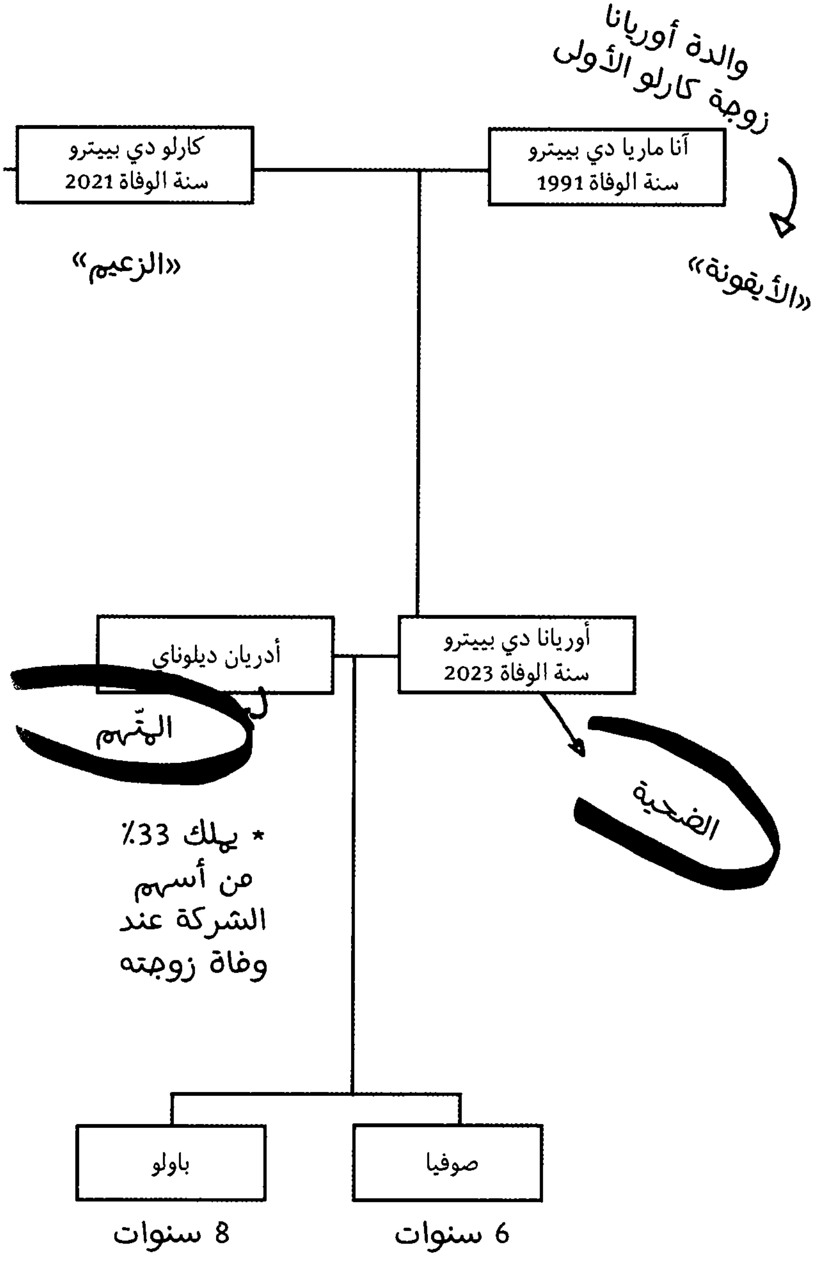
والدة أوريانا
زوجة كارلو الأولى
آنا ماريا دي بييترو
سنة الوفاة 1991
«الأيقونة»
كارلو دي بييترو
سنة الوفاة 2021
«الزعيم»
أوريانا دي بييترو
سنة الوفاة 2023
الضحية
أدريان ديلوناي
المتّهم
* يملك 33٪
من أسهم
الشركة عند
وفاة زوجته
صوفيا
6 سنوات
باولو
8 سنوات

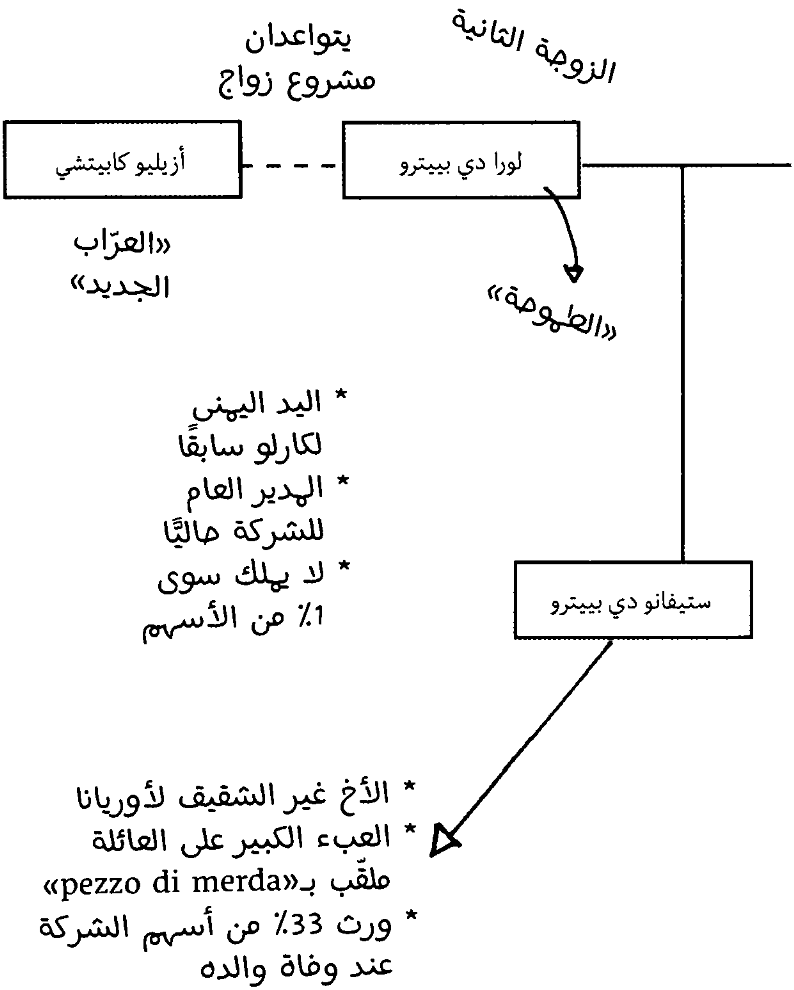
الزوجة الثانية
يتواعدان
مشروع زواج
لورا دي بييترو
أزيليو كابيتشي
«الطموحة»
«العرّاب
الجديد»
* اليد اليمنى
لكارلو سابقًا
* المدير العام
للشركة حاليًا
* لا يملك سوى
1٪ من الأسهم
ستيفانو دي بييترو
* الأخ غير الشقيق لأوريانا
* العبء الكبير على العائلة
ملقّب بـ«pezzo di merda»
* ورث 33٪ من أسهم الشركة
عند وفاة والده

لكن من قد يكون؟

عادت جوستين للجلوس أمام حاسوبها وبحثت في ملفّاتها للتحقّق من بعض المعلومات. من جانب الأمّ، الجدّان متوفيّان، وكانت تعلم ذلك. من جانب الأب... الأمر نفسه. لقيت والدة ديلوناي حتفها في عام 1999، مقتولةً بالرصاص أثناء مشاجرة مع زوجها. أمّا والده فرانسوا فقد تُوفي في السجن في بوسطن عام 2018. ولم يكن لدى أدريان ديلوناي إخوة أو أخوات. كان لأوريانا أخٌ غير شقيقٍ لكنّها لم تحبّه يومًا ولم يوحِ بمظهر الأب البديل. ها هي دائرة الاحتمالات تتقلّص. من بقي ليتولّى حضانة الطفلين؟

زوجة الأب، لورا دي بييترو، وشريكها، أزيليو كابيتشي، الذي نصّب نفسه رئيسًا جديدًا للعائلة...

سرت قشعريرةٌ في جسد جوستين. إذا ثبت أنّ ديلوناي مذنبٌ بقتل زوجته، فإنّ كابيتشي سيضرب عصفورين بحجر واحد. سوف يستعيد طفلَي أوريانا، وباعتباره مدبّرًا لثروتهما، يمكنه أخيرًا إنجاز اتفاقيّة المساهمين التي تضمن له السيطرة المطلقة على إمبراطوريّة دي بييترو.

شعشعت جوانب مظلمةٌ فجأة. لهذا السبب إذن عيّن كابيتشي جيشًا من المحقّقين الخاصّين! لا لتطهير شرف عائلة ليست عائلته، بل للعثور على أدلّة من شأنها أن تجرّم ديلوناي. أمعنت الشرطيّة التفكير. هل كان كابيتشي هو مَن أبلغ الشرطة بوجود العصا في مأوى القارب؟

ممكن.

كانت عينا جوستين تدمعان من شدّة النعاس. أغمضت جفنيها. كان الألم يسري في جسدها كلّه – ظهرها، ورقبتها، وكتفها – وقد تغلغل الصداع النصفي إلى جمجمتها كخيط رصاصٍ

منصهر. كانت تحلم بحمّامٍ ساخن، وتقليم أظافرها، وطلبيّة بقيمة 2000 يورو من متجر سيزان، وأسبوع من العلاج بمياه البحر في أوجيني-ليه بان.

كانت تحلم...

مكتبة
t.me/soramnqraa

الساعة 4 فجرًا

كانت تحلم...

الساعة 5 فجرًا

كانت تحلم...

الساعة 6 صباحًا

كانت تحلم...

14

جوستين تاياندييه
فتاتان في متاهة

«لا أحد يقع في الحبّ إن كان [...] راضيًا بما لديه وبما هو عليه. فالحبّ يولد من تراكمٍ ثقيلٍ من الإحباط يتّصف باستحالة العثور في الحياة اليوميّة على ما يستحقّ العناء».

فرانشيسكو ألبيروني

.1

السبت 25 مايو/أيّار 2024

مركز مستشفى أنتيب خوان-ليه-بين

الساعة 7 صباحًا

اقتلعها الألم من نومها. وخزٌّ حادّ وقويّ يطنّ في مؤخّر رأسها ويمتدّ أسفل كتفها. كانت جوستين تلهث وتتصبّب عرقًا عند رقبتها وإبطيها. يا للعار... أدارت رأسها. لم تعد والدتها هنا.

اللعنة!

قفزت جوستين من مكانها وزمّت عينيها، مجيلةً النظر في كلّ زاويةٍ حولها. لقد فرغت غرفة الانتظار، ولا أثر لِماتيلد. هرعت إلى

مكتب الاستقبال. كانت الممرّضة متجمّدةً حتّى الآن خلف شاشتها، تواجه صعوبةً في إنهاء ليلتها: عينان حمراوان ومنتفختان، مكياج سائل، شعر متلبّد.

– هل رأيتِ أمّي؟

– لا.

– لا؟

تنهّدت الممرّضة ساخطةً.

– لا بدّ من أنّ طبيبًا اعتنى بها، على ما أتصوّر.

– أنا لا أطلب منكِ أن تتصوّري. أنا أسألكِ أين هي.

لقد طالت هذه المهزلة بما فيه الكفاية. أدركت جوستين أنّها لن تأخذ منها المزيد، فرجعت أدراجها ودفعت المصراعين اللذين انفتحا على منطقة الرعاية. جالت في كلّ الممرّات، غارزةً رأسها عبر كلّ الأبواب حتّى بلغت أخيرًا غرفةً كان أحد المتدرّبين فيها ينهي خياطة جرح والدتها.

أوف...

عرّفت عن نفسها وأغلقت الباب خلفها، ثمّ جلست على كرسيٍّ بانتظار نهاية الإجراء. ولأنّ المساحة لم تكن كبيرة، استطاعت رؤية جمجمة ماتيلد بوضوح. لم يكلّف الرجل نفسه عناء مراعاة خصوصيّة المريضة. ولخياطة الجرح، جزّ صفًّا من شعرها بعرض سنتيمترين، من الجبهة باتّجاه مؤخَّر العنق. مذبحة حقيقيّة. بعد هجوم الإيروكوا، جزّ شعرٍ على طريقة الرهبان البوذيّين... تقريبًا.

– ثمانٍ وعشرون غـرزة! أعلن الطبيب، معتزًّا بنفسه. يجب تغيير الضمادة كلّ مساء. كنتِ محظوظة جـدًّا. الجرح سطحي، لم يتخطّ فروة الرأس.

– صرت أشبه فرانكنشتاين، وتراني محظوظة؟ ردّت ماتيلد غاضبة.

مذعورًا، توجّه الطبيب بالكلام إلى جوستين.

– لم يتعرّض ورك والدتكِ لأيّ كسر أو التواء. ونظرًا إلى فقدانها الوعي لفترة طويلة، أجرينا تصويرًا بالرنين المغناطيسي للرأس، وننتظر النتيجة.

– تمام.

– سأعود لرؤيتكِ عندما أحصل عليها.

ما إن بقيت وحدها مع والدتها حتّى ألقت جوستين عليها اللوم لعدم إيقاظها، فأجابت ماتيلد وهي تهزّ كتفيها: «لم أرد أن أكون أنانيّة».

– لا، أنتِ فقط أردتِ أن أشعر بالذنب.

وصلتها رسالةٌ نصّيةٌ جعلتها تخفض عينيها نحو شاشتها. رسالةٌ مقتضبة من بيرغومي: «سأكون في منزلكِ حوالي الساعة الثامنة صباحًا. لديّ معلوماتٌ جديدة».

– اسمعي، سأبحث لكِ عن ممرّضة تأتي إلى منزلك كلّ يوم وتغيّر لكِ الضمادة. وسأرسل سيّارة أجرة لتقلّك بمجرد أن يُسمح لكِ بالخروج...

– ... لكن؟

– لكن الآن، عليّ العودة إلى العمل. الأمر طارئ.

– ولا يمكنك تأجيله ساعة؟

– لا، عليّ إنهاء استجواب مهمّ للغاية في مقرّ الشرطة.

– عند السابعة والنصف صباحًا؟ يوم السبت؟

– كان عليّ أن أكون الآن في المكتب.

– ألا يمكنكِ أن تطلبي من زميلٍ لكِ أن يحلّ محلّك؟

– هذه القضيّة الأهمّ في مسيرتي المهنيّة.

– أهمّ من والدتك.

– اللعنة، لن تتغيّري أبدًا! ثارت جوستين غضبًا، ثمّ خرجت وأغلقت الباب وراءها.

بقيت ماتيلد وحدها، ورفعت عينيها إلى السماء.

– ويقولون إنّني أنا الأنانيّة.

.2

الساعة 7:45 صباحًا

من خلف مقود سيّارتها الصغيرة، خفضت جوستين السرعة استعدادًا لاستلام الطريق الضيّق الذي يرتفع بين أشجار الزيتون والجدران الحجريّة التقليديّة المشيّدة من دون إسمنت. على مرتفعات بلدة بيوت، ربط درب ليه فينياس بين عددٍ من الهضاب التي عُمّر فيها، على مرّ العقود، شتّى أنواع المساكن، من البيوت الريفيّة التاريخيّة إلى المنازل البيومناخيّة، مرورًا بالفلل الاستثنائيّة للمهندسين المعماريّين. ركنت سيّارتها أمام فيلّا بروفنساليّة مجدّدة ذات إطلالةٍ جميلة على القرية والهضاب المنحدرة. كم أحبّت هذا المنزل. صادف انفصالها هي ورومان تمامًا مع إنهائهما تسديد القرض بعد عشرين سنة. كافحت جوستين للاحتفاظ بالمنزل الزوجي، لكنّها سرعان ما ندمت على ذلك، إذ صار المكان، المشبّع في كلّ زواياه بذكرياتهما المشتركة، مصدرًا للمعاناة. متاهة – مرّة أخرى! – لم يكن من السهل التحرّر منها.

صعدت مجموعة من الدرجات، وفتحت الباب الأمامي، ثمّ اندفعت مباشرةً نحو الحمّام في الطابق العلوي. **مملكةٌ كاملة لأستحمّ فيها.** خلعت ملابسها، متفاديةً انعكاس صورتها في المرآة، ودخلت الكابينة ثمّ فتحت صنبور الماء الساخن. بقيت بلا حراك

لحظةً طويلةً تحت تدفّق المياه الحارقة، خائرة القوى. كان دماغها في انسجامٍ تامٍّ مع جسدها: معطوبًا، منهكًا، وغير قادرٍ على معاودة العمل. خفّف الماء الساخن من قبضة الصداع النصفي بعض الشيء. جلست على الأرض، مسندةً ظهرها إلى الجدار الرخامي، وقد غلبها النعاس فاستسلمت له. **عودةٌ إلى الحالة الجنينيّة...** فكّرت في سرّها. وكانت هذه آخر فكرةٍ راودتها. بعد فترةٍ ما – خمس دقائق أو ربّما نصف ساعة – استعادت وعيها قليلًا وتمكّنت من إجبار نفسها على التحرّر من سباتها. أجبرتها أخيرًا دفقة مياهٍ جليديّة على القفز خارج الدش.

جفّفت نفسها، ثمّ أمسكت بمقصٍّ وخفّفت بعض الخصلات من شعرها أمام المرآة. في غرفة ملابسها، التقطت الفستان الأحمر، والحزام، والحذاء الطويل الساق، والسترة الجلديّة. لم تتعجّب أبدًا عندما لبست الفستان فاتّضح ضيقه عند الوركين. للحظة ظنّت أنّها قد تكون قادرةً على توسيعه من خلال فتق القماش وشدّه. بحثت عن طريقةٍ لفعل ذلك على هاتفها، لكنّها تراجعت فورًا. لم تكن لديها الأدوات، ولا الوقت، ولا المهارات. في حالةٍ من الغضب، انتزعت الثوب، فتمزّق عرضًا. أطلقت صرخةً مدوّية، موجّهةً لكمة لوسادتها. يا له من يومٍ واعد...

حاولت استعادة هدوئها قبل أن تختار فستانًا آخر من غرفة الملابس، أقلّ إثارةً، لكن على مقاسها. أنهت ارتداء ملابسها، ووضعت المكياج ثمّ نزلت إلى المطبخ.

سكبت الماء للتسخين في الغلّاية. نظرةٌ سريعة إلى الساعة: أصبحت 8:20 صباحًا! أجرت ثلاث مكالمات حتّى تمكّنت من العثور على ممرّضةٍ مستعدّة للذهاب إلى والدتها. تناولت حبّة أدفيل أخرى،

ثمّ عصير الليمون، وشاي أخضر جنمايشا. إلى أن سمعت هدير محرّك وزمّور سيّارة. بيرغومي!

حملت فنجان الشاي وخرجت إلى الشرفة. كان معاونها كعادته يرتدي سترته التي لم ترَ المكواة قطّ. بدا التعب واضحًا على وجهه، بيد أنّ شرارة الشباب شعّت من عينيه. نظرة مراهقٍ أعدّ مقلبًا وراح يتلذّذ بالعواقب المُنتظرة.

– لقد أوقعنا به! نادى وهو يتسلّق الدرجات لينضمّ إليها عند العتبة.

– ادخل، سأعدّ لكَ القهوة.

– أحذّركِ: معلوماتي من العيار الثقيل.

كان يحمل في يدٍ مجلّدًا من الكرتون، وفي اليد الأخرى كعكة بانيتوني في علبةٍ من الصفيح المعدني. كانت حماسته معدية. جلس إلى طاولة المطبخ يقطّع البريوش فيما جوستين تحوم حول ماكينة صنع القهوة.

– وصلتُ إلى ميلانو حوالي الساعة الواحدة فجرًا، باشر بالحديث. واحزري من كان ينتظرني في صالة الفندق؟

لم يجعل التشويق يدوم طويلًا، فأفصح قائلًا:

– أزيليو كابيتشي بشحمه ولحمه!

أحسّت جوستين بقشعريرة تسري في رقبتها. إن كان كابيتشي تحمّل عناء المجيء، فهذا يعني أنّ الأمر كان مهمًّا.

– لقد كنتِ على حقّ: صعق اعتقال ديلوناي الإيطاليّين. أرادوا معرفة كلّ ما قاله عازف البيانو أثناء احتجازه لدى الشرطة. هل فعلتِ شيئًا لشعركِ؟

– حافظ على تركيزك، أرجوك.

– أخبرتُهم أنّني حصلتُ على محضر الشرطة الكامل لليوم الأوّل من الحجز. وفي المقابل، أعطوني هذا.

فتح غلافًا من الورق المقوّى مزيّنًا بشعار فندق إكسلسيور، ثمّ أخذ منه حزمةً من أوراقٍ ممزّقة من دفتر.

– ما هذا؟ سألت جوستين وهي تضع قهوة الإسبريسو أمامه.

أعاد بيرغومي سرد القصّة من البداية.

– هل تتذكّرين أين هو اليخت الذي قُتلت على متنه أوريانا دي بييترو؟

– أعادت العائلة قارب لونا بلو إلى جنوة.

– إلى ميناء رابالو، على وجه التحديد. أحضروا فريقًا خاصًّا من العلماء لأخذ العيّنات من دون العثور على شيء غير ما وجدناه من ناحية المادّة الوراثيّة أو بصمات الأصابع؛ لكنّهم...

توقّف لأخذ رشفةٍ من القهوة.

– لكنّهم...؟

– لكنّهم وضعوا يدهم على هذه، قال ملوّحًا بالأوراق الأربع الممزّقة والمثبّتة معًا. عُثر عليها داخل نظام التهوية في المقصورة. وهو نظام يعمل بمثابة مضخّة هواء. وبحسب الخبراء، هي ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها أمرٌ كهذا.

أثار هذا الإعلان غضب جوستين التي ضربت على الطاولة براحة يدها.

– كيف فوّتنا ذلك؟ سنظهر الآن كالمغفّلين من جديد!

ارتسم على محيّا بيرغومي عبوسٌ مذعنٌ لكنّه سرعان ما طرده بقضمة بانيتوني.

– وما هذه الأوراق؟ استعجلته سائلةً.

– مقتطفات من مذكّرات.

– مذكّرات أوريانا؟

– حسنًا، لا. مذكّرات امرأة تُدعى أديل وهي ليست سوى... عشيقة أدريان ديلوناي.

– ماذا؟ صرخت جوستين. دعني أرَ!

انتزعت الأوراق من يديه. كانت الصفحة باللون الوردي الفاتح، لا خطوط فيها، مغطّاةً بـ«خطّ يد أنثوي»، مرتّبٍ ومزخرف. لم تكن يوميّات على وجه التحديد، بل لقطات مزيّنة هنا وهناك بصورة لأدريان في نيويورك، وتذكرة حفل موسيقي، وزهرة إديلويس مجفّفة ومحفوظة بغلاف بلاستيكي.

على وقع خفقان قلبها، أخذت جوستين تتصفّح الأسطر المخطوطة بالحبر الأزرق.

.3

باريس – نوفمبر /تشرين الثاني

للمرّة الأولى في حياتي، لم أعد مجرد متفرّجة على قصّتي، بل مشاركة في كتابتها بشكلٍ كامل. أخيرًا تحمل الحياة وعدًا كنتُ قد فقدتُ الأمل به. كنتُ قد حصّنتُ قلبي بقلاعٍ متينة لفترةٍ طويلة، وقمعتُ آمالي ورغباتي. لكنّ بضعة أسابيع معه كانت كفيلةً لكي ينقشع ضباب الأفق الباهت ويكشف عن سماءٍ صافية. لقد أشرقت الشمس من جديد. وأنا مثل غيري من الناس، أستحقّ نور الشمس!

ميلانو – ديسمبر / كانون الأوّل

أدريان رائع. ذكيّ، وحنون، ويتميّز بحسّه الفكاهي في كلّ المواقف. لقد ألّف ألبومًا كاملًا للاحتفال بحبّنا. موسيقى أنا ألهمتُه إيّاها. وجد معجبوه ونقّاده أنّها تحفته الفنّية، وأجمل

أعماله طوال مسيرته المهنيّة. عالمٌ جديدٌ ينبسط أمامنا.
لدينا خططٌ مبهجة: إنجاب طفل، والذهاب في جولةٍ حول العالم بالقارب، وشراء مزرعة في مونتانا، وكوخ صيّادٍ في خوسيه إغناسيو.
إنّ طعم السعادة خطير، ولا أنوي العودة إلى ما قبله. أنا مستعدّةٌ للقتال. بجانبه، لم أعد أخاف شيئًا. لأنّه، حيث ينمو الحبّ، لا يحلّ الظلام أبدًا.

نيويورك – قبل أسبوع واحد من عيد الميلاد

في الطبقة الثالثة والعشرين، مسترخيةً في حوض الاستحمام في غرفة الفندق، رحت أتأمّل في كلّ ما عشناه منذ لقائنا الأوّل. للمرّة المئة، أعيد عرض فيلم لحظاتنا السحريّة، وسفراتنا، ومداعباتنا، ولحظاتنا الحميمة.
أعيد إلى مسمعي صوته وهو يقول لي إنّني ملكته، وملهمته، وعاهرته، وجوهرته، وأعجوبته. أعيد صوته في أذنيّ وهو يكرّر لي إنّه لم يحبّ أحدًا غيري. أنّه سيقدّم لي ما أستحقّ: قصور، وذهب، وزهور، وبحر من الزمرّد، وينبوع من اللؤلؤ، وكوكبة لا تشعّ إلّا في سمائنا. هذا الحبّ يتسرّب إلى عروقي كتيّارٍ كهربائي يحرقني، ويرويني، ويجدّدني. تيّار لم يعد بإمكاني العيش من دونه.

مدينة سول الكبرى – يناير / كانون الثاني

جمّد البرد القطبي المدينة وأغرقها بالسحر والغموض. كنّا نرتعش تحت معطفينا وندف الثلج تتطاير حول وجهينا. يدًا بيد، والقلب خالٍ من الهموم، رحنا نجول بين المعابد، والمساكن

الملكيّة، والبيوت التقليديّة في منطقة بوكتشون. أصبحنا جسدًا واحدًا، واتّقدت شفاهنا بالرغبة. نحن نعيش في بعدٍ آخر.

لسوء الحظ، كان أدريان ينغلق أحيانًا، ويغيب، ويدخل في عالمٍ من الصمت. من المقرّر أن يعزف مساء الغد أمام جمهور من ثلاثة آلاف شخص. لكنّ هذا ليس ما يضايقه. أعرف مصدر عذابه: هو يخشى أن تكتشف زوجته خيانته وتطلب الطلاق. يرتعب من فكرة أن تحرمه أوريانا من طفليه. كم أودّ أن أخبره أنّ هذا لن يحدث! آه يا حبيبي، لا داعي لأن تقلق. سنربّي باولو وصوفيا معًا ولن تنفصل عنهما أبدًا!

برشلونة – أبريل/نيسان

قوبل أدريان بتصفيقٍ حارٍّ على مسرح أوديتوري. بهَرَ الجميع وأسر القلوب بشِعره وعرضه المبدع. أخبرني قبل الحفل أنّه سيعزف لأجلي. صفّقت له مئات النساء، لكنّني أنا التي يحبّ.

أنا، أنا، أنا...

أنا، أديل.

فتاة المتاهة.

4.

جفّ فمها وارتعشت يداها. وجدت جوستين صعوبةً في إبعاد عينيها عن الاسم الذي اكتشفته لتوّها على الورقة.

أديل.

هكذا إذن. كان لِأدريان ديلوناي عشيقةٌ شابّة. علاقةٌ سرّية تمكّن من إخفائها عن الشرطة طوال فترة التحقيق.

أديل.

انتهى الأمر، لقد حصلا عليها أخيرًا: المعلومة الحاسمة التي بحثا عنها طوال الوقت لفكّ تشابك التحقيق. المعلومة التي قدّمت الدافع للقتل ووجود تواطؤ محتمل.

كان لهذا النصر مذاقٌ مريرٌ في فم جوستين. مثل عاشقةٍ خائبة، اضطرّت إلى الاعتراف بأنّ عازف البيانو كان في نهاية المطاف كبقيّة الرّجال. لكن هل سبق لها أن شكّكت في ذلك؟

– لمَ لم نحصل سوى على هذه الصفحات الأربع؟ سألت بيرغومي وهي تخرج نفسها من أفكارها. أين الباقي؟

– لا نعلم، للأسف.

– هل نحن متأكّدون من أنّها ليست كتابات أوريانا؟

– واثقون. لقد استأجر كابيتشي اثنين من خبراء الخطّ نفيا هذه الفرضيّة نفيًا قاطعًا.

أديل.

أغمضت جوستين عينيها. رأت الصورة أمامها. فتاةٌ شقراء ذات بشرةٍ شاحبة. فمٌ ورديّ، وعينان فاتحتان كبيرتان. فتاةٌ ليست بالضرورة فاتنة، لكنّها متميّزةٌ وعفويّة. فتاةٌ من الظلّ راقها النور. فتاة خطيرة.

– ما السيناريو الذي يدور في رأسك، جيوسي؟

كان الشرطي قد نهض ليعدّ فنجان إسبرسو آخر.

– شيءٌ من هذا القبيل: أبدت أوريانا دي بييترو ارتيابًا حول زوجها. اشتبهت في لقاءاتٍ جنسيّة هنا وهناك أو في وجود علاقة غراميّة مكرّسة مع امرأة تصغرها سنًّا. شعرت بالخطر واستأجرت محقّقًا لتأكيد شكوكها، فحدّد هويّة أديل الشهيرة واستولى على مذكّراتها.

– لكن، أربع صفحات فقط؟

– هذا ما لا أجد إجابةً له. قد تكون أوريانا امتلكت المذكّرات الكاملة ومزّقت هذه الصفحات كدليل لإرباك زوجها. أو ربّما أراد المحقّق أن يتذاكى على أوريانا ويطالبها بمزيدٍ من المال ليمرّر لها الباقي.

– وربّما لم يعطك كابيتشي كلّ شيء.

– هذا ممكن، رغم أنّني أشكّ في ذلك.

– ومن ثمّ؟

قطّب بيرغومي حاجبيه وأخذ وقته للتفكير.

– حسنًا... علم أدريان بشكوك زوجته وتوقّع أن تضعه تحت الأمر الواقع وتخبره بنيّتها الطلاق. وهذا ما دفعه إلى التحرّك والتخلّص منها في أسرع وقتٍ ممكن، رغم أنّ المخاطرة كبيرة.

– بالتواطؤ مع عشيقته؟

– ما زال يتعيّن تحديد ذلك.

عضّ شفته للحظة قبل أن يطرح فرضيّةً أخرى.

– ماذا لو كانت هي التي وشت بوجود العصا لدى ديلوناي؟ تخيّلي: بعد وفاة أوريانا، تجادل الثنائي وانتهى الأمر بهجر ديلوناي لها. ولكي تنتقم، أبلغت أديل الشرطة عنه.

هزّت جوستين رأسها. قد لا يكون هذا ما حدث بالضبط، لكنّ الفكرة تتبلور في الاتّجاه الصحيح، مطابقةً لكلّ العناصر التي جمعاها حتى الآن.

– ماذا وجد الإيطاليّون عن هذه الفتاة؟

كشّر بيرغومي وقال:

– حسنًا، باستثناء اسمها الأوّل، لا شيء.

– أتمزح؟ هم قالوا لك ذلك؟

أومأ الشرطي إيجابًا.

– هذا هراء. لديهم معلومات، لكنّهم لا يريدون إعطاءها لنا.

– الأمر ليس مؤكّدًا. ديلوناي شديد الحذر، ونحن نعلم ذلك. لقد تعقّبناه لمدّة عام ولم نكتشف الكثير أيضًا.

– لديهم معلومات، أكّدت جوستين. لكن لا يهمّ، سنجدها بأنفسنا. وأنت الذي سوف تتقصّاها. هذه الصفحات الأربع مليئة بالأدلّة. أقامت الفتاة في الفنادق نفسها التي أقام فيها ديلوناي خلال جولته. تواصل معهم، وأعدّ قائمة بكلّ الأماكن التي نزل فيها عازف البيانو. سأستنطقه خلال الحجز، لكنّي بحاجةٍ إلى معلومةٍ دسمة لأهزّه.

– حسنًا، قال بيرغومي.

أخذت جوستين هاتفها لتصوير الصفحات في مذكّرات أديل. اجتاحت شاشتها إخطارات برسائل ومكالمات فائتة من بويغرونييه، والعمراني، وحتى إحدى القاضيَتين.

لقد تأخّرت، والزحمة الصباحيّة لن تساعدها أبدًا.

التقطت سترتها من مسند الظهر على الكرسيّ وأبلغته قائلةً: «يجب أن نعثر على هذه الفتاة، جيوسي، وبسرعة».

غادر الشرطيّان المنزل، كلٌّ بسيّارته.

جلست جوستين في مقعدها وقادت السيّارة في الممرّ الخاصّ. لقد قام بيرغومي بعملٍ جيّد. كانت هذه الوثيقة لا رجعة فيها ولم يكن لديها أدنى شك في أنّهما سيحدّدان هويّة أديل بسرعةٍ كبيرة.

لقد انتهى أمر ديلوناي.

15

أوريانا دي بييترو
قوانين الجاذبيّة

«قفزت من أعلى الهاوية، ثمّ في اللحظة الأخيرة، شيءٌ ما تدخّل والتقطني في الهواء».

بول أوستر

قبل عام واحد، مايو/أيّار 2023

لوغانو، سويسرا

1.

بدا فرانسوا شابوِي ضائعًا.

منتصبًا خلف مكتبه، كان مدير مركز كارل-جاسبرز الطبّي يكافح لإخفاء حيرته.

– ما المشكلة الآن؟ سألت أوريانا.

منذ أكتوبر/تشرين الأول وهي تسافر كلّ شهرين إلى لوغانو لإجراء التحاليل ومراقبة تطوّر المرض. وقد طال الفحص الروتيني هذه المرّة، وكان عليها – بناءً على طلب شابوِي – أن تعرّج على المستشفى الإيطالي، وهو الأكبر في لوغانو، للخضوع لفحوصٍ إضافيّة.

– لقد نما الورم، أليس كذلك؟

لم تكن مفاجأة لأوريانا. فقد أضنتها الأسابيع الثلاثة الماضية. كانت منذ لحظة استيقاظها تشعر بإرهاقٍ شديد، كما أنهكها صداعٌ متواصل، ونـزفٌ متكرّرٌ في الأنـف، حتّى إنّها عانت من صعوبة في هضم الكميّة القليلة من الطعام التي استطاعت ابتلاعها. وفي كثيرٍ من الأحيان، خلال النهار، كانت شراراتٌ صفراء تتراقص أمام عينيها وتشوّش رؤيتها، ما حوّلها إلى شبه عمياء.

– هل نما الورم؟ كرّرت سؤالها.

بقي تشابوِي جامدًا مثل عملاقٍ مذهول، ملفوفًا ببلوزته المخطّطة. كان شعره متطايرًا في كلّ الاتّجاهات، ووجهه مغطًّى بقناعٍ من الطين على وشك أن يتفتّت، فيما لمعت عيناه بلهبٍ كشف عن دهشةٍ أكثر منه عن قلق.

– لا، لا، تلعثم أخيرًا. اجلسي أوريانا، قال لها وهو يرمي بنفسه على كرسيّه.

– ماذا إذن؟ سألت الإيطاليّة، منزعجةً بعض الشيء.

– على العكس تمامًا.

– ماذا تقصد على العكس؟

– تراجع الورم. لقد تلاشى.

– ما الذي تقوله؟

أشار الطبيب إلى الملفّات الطبيّة الموضوعة أمامه.

– أنا أيضًا ظننتُ في البداية أنّ ثمّة خطأً ما. لكن بعدما ضاعفنا الاختبارات، هنا وفي المستشفى في إيطاليا: الأشعّة المقطعيّة، والتصوير بالرنين المغناطيسي، والخزعة... كلّ شيءٍ يشير إلى شفاءٍ مذهل.

– هل تعني أنّ الورم تقلّص؟

– لا بل أفضل من ذلك، لقد اختفى!

– أتمزح؟

– لقد اختفى، كرّر كلامه.

– كليًّا؟

أومأ شابوِي بالإيجاب. كان قد استعاد اتّزانه.

– عادت فحوصكِ إلى وضعها الطبيعي ولم يعد التصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني يظهر أيّ علامةٍ على وجود ورمٍ في المخّ.

متشكّكةً في صحّة الأمر، حافظت أوريانا على ملامح باردةٍ ونظرةٍ ثاقبة.

– كيف يكون هذا ممكنًا؟ لم نفعل شيئًا: لا عمليّة، ولا علاج كيميائي، ولا غيره.

رفع شابوِي كتفيه وبسط ذراعيه، موجّهًا راحة يديه نحو السماء:

– حالات الشفاء التلقائي نادرة، لكنّها تحدث.

– نادرة؟

– حالة أو حالتان من بين مئة ألف مريض ربّما.

– وكيف نفسّر ذلك؟

– الجهاز المناعي الخاصّ بكلّ مريض، وخصائصه الجينيّة والهرمونيّة، وعدوى حادّة أخرى من شأنها أن تحفّز مستوى الخلايا الليمفاويّة و...

– ولكن ما سبب التعب الذي أشعر به؟ قاطعته بالسؤال. لم أكن يومًا منهكةً بهذا الشكل في حياتي كلّها.

– أمر طبيعي: كان جسمكِ يسخّر كلّ قواه لمحاربة المرض.

– هل يمكن للورم أن يعود؟

– لا أحد يعرف، أوريانا. هي المرّة الأولى التي أرى فيها هذا في حالة الورم الأرومي الدبقي من الدرجة الرابعة، لكن في الوقت الحالي، يجب أن نكون سعداء.

بدلًا من أن تشاركه فرحته، رفعت نبرة صوتها.

– كنت قد بلّغتني بالأسوأ على الإطلاق!

– أوريانا، هذه أخبارٌ جيّدة!

– أخبار جيّدة؟ زعقت به. لقد توقّعتَ لي أن أصاب بالشلل، وألّا أعيش أكثر من شهرين. طلبتَ منّي أن أسرع وأرتّب أموري قبل أن أموت!

– هذا ما كان ينبغي أن يحدث. لا يمكن لأيّ عاقلٍ أن يتصوّر أنّ...

نهضت أوريانا من مقعدها وأمسكت بمعطفها. لمنعها من المغادرة، زرع شابوِي جسده الضخم أمام الباب.

– انتظري، علينا التكلّم في شيءٍ آخر.

– في ماذا؟

– تعرفين جيّدًا في ماذا.

دفعته وتوجّهت نحو الباب مزمجرةً:

– لا أريدكِ في حياتي بعد الآن.

.2

الحديقة، أشجار الزيزفون، شجيرات الكستناء، غناء الطيور العذب. مجرى الطبيعة المعتاد اللامبالي بحياة البشر.

كانت أوريانا تعيد المشهد نفسه الذي عاشته قبل ستة أشهر عندما علمت أنّ ورمًا ينمو في دماغها. تهالكت على أحد المقاعد المواجهة للبحيرة. لا يزال مبكرًا جدًّا لتتمكّن من أن تشعر بأدنى

قدرٍ من الراحة. منذ فترةٍ طويلة وهي تعيش حالةً من الذعر. لقد أرعبتها فكرة موتها الوشيك. لم تشعر يومًا بضعفٍ مماثل. حتّى عند اختطافها من قبل جماعة إسلاميّة مع ثلاثة صحافيّين آخرين خلال عملها مراسلةً حربيّة في سوريا. منذ ستّة أشهرٍ وهي تحمل الموت أينما ذهبت. كان جسدها يتحلّل، وعرقها ينشر رائحةً نتنة وأنفاسها رائحة العفونة، وأسنانها تؤلمها ألمًا رهيبًا.

ظهرت لها رؤًى لم تعد تفارقها أبـدًا. أثـار هـذا الـورم الذي كان يكبر في رأسها ويضغط على دماغها اشمئزازها. ودّت لو تفتح جمجمتها وتقتلعه بكلتا يديها. تسارعت دقّات قلبها. وجدت صعوبة في تصديق أنّها شُفيت. أنّها لم تعد تربّي ذلك الوحش في داخلها.

من الناحية النفسيّة، كانت قد وصلت إلى الحضيض. لا بل إلى أسفل منه.

أرادت في كثيرٍ من الأحيان وضع حدٍّ لهذا العذاب. وخلال الأشهر الأخيرة، لم تهجرها يومًا فكرة الانتحار، لكنّها بقيت عاجزةً عن اتّخاذ الخطوة رأفةً بطفليها. لن تُحمِّل باولو وصوفيا التعايش مع هذا العبء الإضافي. فالانتحار فعلٌ رمزي عنيفٌ جدًّا قادرٌ على إحداث شرخٍ في النسب العائلي. أقوى من الموت بعشر مرّات. حـدادٌ لا يكتمل، وشعورٌ خفيٌّ بالذنب، وريبةٌ من الحياة تنتقل بصمتٍ من جيلٍ إلى جيل. كانت تريد أن تتفلّت من الآلام الدنيويّة، لكن ليس بترك الأرض تشتعل وراءها.

سبق أن تصوّرت كافّة السيناريوهات التي من شأنها أن تخفي أيّ أثرٍ لرغبتها في الموت: تدحرج سيّارتها في حادث، إلقاء نفسها من أعلى منحدر أثناء نزهة جبليّة منفردة، افتعال حادثٍ منزلي. لكن... شتّان ما بين الرغبة والفعل. غارقةً في حالةٍ من اليأس، أوشكت أن تزور بيرند شولزر، وهو ألمانيٌّ من أمٍّ إيطاليّة كان ينتمي إلى التنظيم

الجديد للألوية الحمراء. لقد تعرّفت إلى هذا الناشط السابق في الفترة التي أجرت فيها أبحاثًا لكتابها الاستقصائي المخصّص للأشكال الجديدة للإرهاب. اليوم، أصبح شولزر يعمل بموجب عقود «خاصّة». وفكّرت أنّها إذا افتقرت إلى الشجاعة لقتل نفسها، فربّما يفعل آخرٌ ذلك عنها. لكنّ هذه الفكرة أيضًا بقيت مجرّد فكرة. هل كان جبنًا أم حدسًا بما كان سيحدث؟ لا يهمّ، ففي كلّ الأحوال، ها قد عادت الأمور مجدّدًا إلى نصابها.

ما زال قلبها ينبض بلا هوادة. كانت أحاسيسها قويّةً جدًّا ومختلطةً بغضبٍ شديد. استذكرت نفسها في ذروة ضعفها خلال لقاءاتها مع أديل كيلر. بقيت السافلة الصغيرة تشاهدها تتألّم أسبوعًا وراء أسبوع، وهي تخبرها – بابتسامةٍ على شفتيها وبريقٍ في عينيها – عن مغامراتها مع أدريان. كيف أدخلت أوريانا الشيطان إلى منزلها؟ لماذا خطرت لها هذه الفكرة السخيفة بأن تؤدّي دور محرّك الدمى؟

منذ بضعة أيّام وهي فاقدة الاتّصال بأديل. كانت الفتاة تتهرّب منها، تسعى لتستقلّ بذاتها، وتستعيد حريّتها، ولم تعد تُظهر لها أيّ احترام. طبيعي. أصبحت خادمة غرفة النوم هي الطاغية الآن.

أغمضت أوريانا عينيها. كم تحتاج إلى دعم عائلتها، هنا والآن! أعادتها اللحظات إلى أيّامها السعيدة في شاليه كورتينا دامبيدزو. رأت باولو وصوفيا يرقصان حول المدفأة فيما أدريان يعدّ وصفته الشهيرة للّازانيا الخضراء مع جبنة البارميزان.

لقد خرّبت كلّ شيء، ودمّرت – تقريبًا – كلّ شيء. أذلّت نفسها. ووضعت مفاتيح مستقبل عائلتها في يد الشيطان.

اللعنة... أشعلت سيجارة وأعادت استعراض جلستها مع شابوِي. لقد اختفى الورم أوريانا! يجب أن نكون سعداء! سيجارةٌ أخرى. بدّد تناغم الحلقات الدخانيّة والتأثيرات الخادعة للنيكوتين

ارتعاشاتها. لقد اختفى الورم. وقفت لتتنشّق هواء المساء، تاركةً جمال المكان يغمرها. لقد اختفى الورم. وشيئًا فشيئًا، بدأت بتقبّل وضعها الجديد. لقد شُفيت. أصبحت على استعدادٍ تامٍّ للهجوم المضادّ.

غادرت الحديقة للانضمام إلى سائقها. فتح إدواردو لها الباب وجلست، صامتةً، في المقعد الخلفي لسيّارة المرسيدس.

– نعود إلى ميلانو؟ سألها.

تردّدت أوريانا. هذه المرّة، لا مجال للخطأ.

– لا، اتّجه نحو كانتون فود.

– لوزان؟

– مونترو.

تـردّدت من جـديد. لقد تكشّفت خطّةٌ في رأسها. كانت على وشك استعادة السيطرة على الوحش الذي خلقته، وردع أديل واسترجاع زوجها، فاتّخذت قرارها الحاسم:

– خذني إلى جان-كلود زيغلر.

رجعت إليها ابتسامتها، وعنادها.

وعزمت على طرد الذئب من الحظيرة.

16

أديل كيلر
الذئب في الحظيرة

«اتبع قلبك دائمًا، لكن خذ عقلك معك».

ألفريد أدلر

باريس، في اليوم التالي
ضاحية سان-جيرمان

.1

كانت الحانة، عند ملتقى شارع الجامعة وشارع بري-أو-كليرك، تنضح بجوّ سان جيرمان الأدبي العتيق. كانت أوريانا قد أعطتني موعدًا هنا لإخباري بأمرٍ مهمٍّ لم تودّ التحدّث عنه عبر الهاتف. وصلتُ قبلها، مبكّرةً بعض الشيء، لأتشبّع من المكان. لا شيء غير عاديّ في هذا الموقع الذي نقل بأسلوبٍ بارعٍ رقيّ الدائرة السادسة. استحضرت الأرضيّـة الفسيفسائيّة الانعكاسات الرماديّة والزرقاء للأسطح الإردوازيّـة، فيما حاكت المقاعد المخمليّة الرمليّة اللون واجهات المباني الهوسمانيّة الكريميّة. ذروة الأناقة بالفعل.

جلستُ إلى طاولةٍ إزاء الواجهة الزجاجيّة المؤطّرة بالحديد المطاوع وطلبتُ فنجانًا من الشاي، تركتُه يبرد قليلًا فيما أتأمّل المارّة

والزبائن في المرايا الكبيرة ذات القوالب المصنوعة من الجصّ. أخرجتُ مذكّراتي وحاولتُ التعبير عن الانزعاج الذي سكنني. في أحشائي، أنذرت لسعةٌ باردةٌ بنذير شؤم. شبحٌ يخيّم على سعادتي. وكأنّني سندريلا أمام عربتها قبل ثانية واحدة من منتصف الليل.

رأيتُها قادمةً من بعيد - معطف ترنش من ماركة بيربيري، وشاحٌ مربّع من الحرير، نظّارةٌ شمسيّة، حقيبة سفرٍ من الجلد المعتّق - وأدركتُ على الفور أنّ شيئًا ما قد تغيّر. استعادت أوريانا مشيتها الواثقة، ورأسها المرفوع، وأناقتها كعارضة أزياء لإعلانات العلامات التجاريّة الفاخرة التي نراها في مواقف الحافلات. عادت لها عنجهيّتها. دخلت المقهى كما لو كانت في منزلها، وعبرت الديكور المصنوع من خشب الجوز باتّجاه طاولتي.

- مرحبًا أديل، قالت وهي تجلس على المقعد المقابل.

وضعت حقيبتها بجانبها، وطلبت كوبًا من شاي بوير، ثمّ خلعت معطفها. رغم نحافتها، بدت لي في حالٍ أفضل.

- إذن، الحياة جميلة؟ تبدين متعبة.

كانت قد استعادت نبرتها المزعجة المصبوغة ببعض الازدراء. أردفت:

- حسنًا، نحن بحاجة إلى التحدّث يا أديل. لديّ أخبارٌ جيّدة.

- أتشعرين بتحسّن؟

- بل أفضل من ذلك: لقد **شُفيت**.

- حقًّا؟

- أنا نفسي أجد صعوبةً في تصديق ذلك.

لم أكن أتوقّع هذه الضربة، لكنّني عرفتُ أنّها تقول الحقيقة. رأيتُها عندما كانت تتأوّه، محدودبةً على رجليها ويديها للتقيّؤ في

المرحاض. رأيتها تبكي، وتُحتضر، وتبحث عن ألف طريقةٍ لقتل نفسها. لكن، هذا الصباح، بدا كلّ هذا بعيدًا جدًّا.

– قلتِ إنّك ستموتين.

– أخفي فرحتكِ، يا جميلتي.

طوال تلك الأشهر التي كانت تُحتضر فيها، كنتُ أنا أشعر بأنّني مليئةٌ بالحياة، وجميلة، ومشرقة. وكأنّ طاقتينا تعملان وفق مبدأ الأواني المستطرقة. وكأنّني استغللتُ مرضها لاستنزاف شريان حياتها. فكّرتُ للحظة في البروفيسور كويريل من سلسلة هاري بوتر، يانوس ذي الوجهين، الذي أُجبر على مشاركة جسده مع اللورد فولدمورت.

– لكي نحتفل، أحضرت لكِ هديّة، قالت وهي تضع على الطاولة حقيبة الجلد الفينيسي التي كانت لمعتها المتماوجة تستحضر بريق الطلاءات الفاخرة المُستخدمة في الحرف اليابانيّة. تفضّلي، افتحيها.

سحبتُ السحّاب لأكتشف في الحقيبة عشرات الرزم من الأوراق النقديّة من فئة 50 يورو.

– لمَ تعرضين عليّ المال؟

– كتعويض، قالت وهي تأخذ رشفةً من الشاي. ثلاثمئة ألف يورو نقدًا، من الصعب تعقّبها، وصافية من الضرائب.

– تعويض عن ماذا بالضبط؟

– عن جرّكِ إلى هذه القصّة.

وضعت أوريانا فنجانها على الطاولة ورسمت وجهًا أرادته متعاطفًا.

– لم تكن فكرةً جيّدة أن ندخلكِ إلى حياتنا وأنا أعتذر.

تلقّيتُ هذه الكلمات ببرودة الثلج. ولكي أطمئن نفسي، بحثتُ عن صورتي في المرآة. شعري الأشقر، اندفاعي، إشراقتي.

– ماذا تريدين منّي أن أفعل بهذا المال؟

– انطلقي في بداية جديدة. أنت تستحقّين ذلك.

كم أنّكِ طيّبة، سيّدتي....

– إذن، هذا ما أساويه بالنسبة إليكِ: 300 ألف يورو.

– راتبٌ لخمسة عشر عامًا، ليس بالقليل.

– لطردي من حياتكِ...

تنهّدت أوريانا.

– الآن بعدما شُفيت، سأستعيد زوجي وطفليّ، وهذا أمرٌ مشروع.

– وإن لم أوافق؟

– سواءٌ وافقتِ أو لا، انتهت اللعبة هنا، هكذا هو الواقع.

– تسرّني استعادتكِ صحّتكِ، لكن إن كنتِ تعتقدين أنّني سأعيد لكِ مكانكِ، فأنتِ مخطئة.

شعرت المرأة الإيطاليّة بصبرها ينفد.

– هل تعتقدين حقًّا أنّني سأسمح لكِ بسرقة حياتي وأقف مكتوفة اليدين؟

– أنا لم أسرق منكِ أيّ شيءٍ أبدًا، أنتِ التي جئتِ إليّ. لقد قدّمتِ حياتكِ لي.

أطلقَت ضحكةً عصبيّةً، وبحثَت عن زاويةٍ جديدةٍ للهجوم.

– أنتِ بنفسك قلتِ إنّ هذه الفكرة ليست منطقيّة، أتذكرين؟

– كان ذلك من قبل. لقد فات الأوان الآن. نحن الاثنتين ذهبنا بعيدًا جدًّا.

ارتفعت النبرة.

– أنتِ لا تعرفين ما أنا قادرة عليه.

– ولا أنتِ، على ما أظنّ.

– كوني منطقيّةً، أديل. خذي المال واختفي.

– وإلّا؟

ساد صمتٌ طويل. رشفة شايٍ منّي ومنها. ثمّ عدتُ إلى الجبهة.

– أتعرفين النظريّة القائلة بأنّ المرأة تصبح عجوزًا بالنسبة إلى الرجل متى تجاوزت عمر والدته عندما كان مراهقًا؟

هزّت أوريانا رأسها.

– لا، لكنّ هذا غباء. إن كانت هذه الحجّة هي كلّ ما وجدتِه لطمأنة نفسكِ...

– مع هذا، عليكِ أن تعتادي على الأمر: لم يعد أدريان يكنّ لكِ أيّ مشاعر. هو يحبّني أنا.

رفعت أوريانا كتفيها وقالت:

– لم تتمكّني من دخول حياته إلّا لأنّني أعطيتكِ الرموز والمفتاح.

أومأتُ برأسي معترضة.

– لا، لا يمكنكِ فهم ما نعيشه. هو يحبّني **لأنّني نفسي**. لمن أنا عليه فعلًا.

– حسنًا، لكنّكِ لا شيء. فتاةٌ ساذجة ليس إلّا. سوف يرميها عندما يعلم أنّ ما أعجبه فيكِ هو صفاتٌ لم تمتلكيها حتّى.

– أنتِ الآن من تحاول طمأنة نفسها.

– هذه العلاقة كلّها خطأ بخطأ. ليست قائمةً سوى على الأكاذيب. كلّ ما أحبَّه فيكِ هو **أنا**.

– وأنتِ؟ هل تعتقدين أنّه سيسامحكِ على خداعكِ له بهذه الطريقة؟

لم تتنصّل من الإجابة وقالت:

– سوف يغضب منّي على المدى القصير، هذا أمرٌ مؤكّد. لكنّي أملك ما لن تملكيه يومًا: أنا أمّ طفليه. سنبقى دائمًا مرتبطَين، مهما حصل.

– سوف نرى.

– لقد رأينا وانتهى الأمر. كوني ذكيّة. اقبلي اقتراحي وافرحي بالخروج من اللعبة بصفقةٍ جيّدة.

نهضت وارتدت معطفها مهدّدةً.

– أعطيكِ يومَين لتختفي. وإلّا فسأكشف الحقيقة لِأدريان. سأدعكِ تدفعين الفاتورة، لديكِ ما يكفي الآن.

واختفت.

.2

نزلتُ إلى الحمّام ومعي الحقيبة التي تحتوي على النقود. ها أنا أترنّح على الحبل، على وشك الانهيار، محاصرةً في الزاوية، مُجبرةً على العودة إلى حالتي البائسة. كان حزامٌ من القلق يعصر معدتي. أقفلتُ على نفسي في إحدى الكبائن، وجلستُ على المرحاض، رأسي بين يديّ.

ما العمل الآن؟

كوَت ذكريات الأسابيع القليلة الماضية عينيّ. حمّى لحظاتٍ بهيجة عشتُها مع أدريان. حفلةٌ حسبْتُ أنّها لن تتوقّف، فجاءت محادثةٌ من عشر دقائق مع أوريانا لتهدم كلّ شيءٍ مثل بيتٍ من ورق. امتزج في داخلي الغضب بالخوف. هي لا تملك الحقّ في تدمير سعادتي الجديدة. بدأ ينفد منّي الأوكسجين، شعرتُ بالبرد، وبالحرّ. دوّختني رائحة المنظفات. راح قلبي ينبض بشدّة. في لحظة، عشتُ كلّ الحالات: غضب، إحباط، استسلام.

ما العمل؟

فكّرت في كلّ الفرضيّات. هل أتحدّث مع أدريان عن الأمر بنفسي لقطع الطريق أمام زوجته؟ أم أنتظر؟ على أمل ألّا تنفّذ أوريانا تهديدها؟ كان عقلي يدور في الفراغ. لا فكرة حاسمة تلوح في الأفق.

أمرٌ واحدٌ مؤكّد: عليّ التصرّف. وبسرعة. من دون المماطلة وانتظار أن تحلّ المشاكل نفسها. المجابهة. عدم تجاهل العقبة. بل مواجهتها.

لكن ما الذي أصاب معدتي ورأسي؟ ما مكانتي في هذا العالم؟ أيّ حقٍّ لي؟ ومن يقرّر ذلك؟

منذ فترةٍ طويلة وأنا أقنع نفسي بأنّني أحبّ التقدّم في الظلّ. لكنّ ذلك كان وهمًا. حيلةٌ جبانة كنتُ أخفي بها ضعفي. لقد أتعبني الظلّ. وأطفأني. أتوق إلى الضوء. ليس الضوء الاصطناعي من الشاشات، والمصابيح، وأجهزة العرض. بل ضوءٌ خريفي وريفي ناعم. ضوءٌ يشعّ من عينَي الرجل الذي يحبّني. ضوء غروب الشمس المنعكس على المحيط أثناء رحلةٍ بالقارب.

بدأت فكرةٌ تتبرعم.

صددتُها، بدايةً.

لا، لقد فقدتُ صوابي.

لا أريد.

لا أعرف.

ثمّ شيئًا فشيئًا، تبدّد القلق. بدا البديل واضحًا. إمّا العودة إلى الظلّ وإمّا المخاطرة بالخروج منه إلى الأبد. لأنّ للضوء ثمنًا. فهو يستوجب القدرة على تجاوز حدود الذات، وتبديل المعتقدات، والتحوّل إلى منطقةٍ خطرة. يستوجب امتلاك الشجاعة، والموارد العقليّة، للتجرّؤ على المخالفة. وهذه هي الطريقة الوحيدة لكي يستجيب القدر.

استرجعتُ حديث أوريانا معي عن نيتشه. «الأخلاق من غريزة القطيع. لكنّكِ لستِ جزءًا من القطيع». أتذكّر قولها لي: «لستِ مخلوقةً للانصياع للقوانين ورداءة الجماهير. لقد خُلقتِ لتحرّري نفسكِ من هذا. خُلقتِ لتعيشي حياتي».

حفّزتني تلك الكلمات المُستذكرة وأعطتني الإجابة عن أسئلتي. عليّ أن أتخلّص من أوريانا دي بييترو.

نهضتُ وفتحتُ الباب. وأمام مرآة الحمّام، أكّدتُ بصوتٍ عالٍ: «سأقضي على أوريانا دي بييترو».

ثمّ أيضًا: «سأقتل أوريانا».

تحلحل شيءٌ ما بداخلي. شعرتُ بالخفّة، بالجاهزيّة، عازمةً تمامًا على العمل، مصمّمةً على تزويد نفسي بالوسائل اللازمة لتحقيق طموحي.

.3

صعدتُ الدرج باتّجاه القاعة الرئيسيّة. دفعتُ الفاتورة، وارتديتُ معطفي، وعدّلتُ وشاحي قبل أن أجمع أغراضي عن الطاولة المصنوعة من الكوارتزيت.

وفيما كنتُ أتناول مذكّراتي لأضعها في حقيبتي، لاحظتُ أنّ صفحاتٍ عدّة قد مُزّقت منها.

17

جوستين تاياندييه
كلمات أوريانا دي بييترو الأخيرة

«لا بدّ من الاعتراف بأنّ الحقيقة لا تُطاق، وأنّ الإنسان ليس مهيّأً ليتحمّلها؛ لا بل يتهرّب منها كما يتهرّب من الطاعون».

إميل سيوران

السبت 25 مايو/أيّار 2024
مركز الشرطة في نيس
قبل الساعة 12 ظهرًا بقليل

1.

بدأ اليوم الثاني من الاعتقال في جوٍّ مشحونٍ من التوتّر.

كان يومًا هبّت فيه رياح الميسترال فأدّت إلى اشتعال حريقٍ بين فيلنوف-لوبيه وكانيي-سور-مير. انتشر في المنطقة حوالي خمسين رجل إطفاء للسيطرة على اندلاع النيران التي، وإن لم تؤدِّ إلى وقوع إصابات، دمّرت هكتارات عدّة من الأراضي المزروعة وأعاقت حركة المرور على الطريق السريع A8 لساعتين كاملتين. وإذ تأخّرت جوستين في مغادرة المنزل، علقت في زحمة سيرٍ خانقة.

تواصلت مع بويغرونييه من السيّارة لإبلاغه عن تأخّرها. وما إن تصاعدت اللهجة حتّى همّت جوستين بالدفاع عن نفسها ورشقته بالتحقيق الذي أجراه بيرغومي في إيطاليا واكتشاف مذكّرات عشيقة ديلوناي. وعلى ضوء هذه العناصر الجديدة، أخطر رئيس فرقة الجرائم إحدى القاضيتين ودعا إلى اجتماعٍ لرسم التوجّهات الكبرى لمتابعة الاستجواب. عندما وصلت أخيرًا إلى مركز الشرطة حوالي الساعة 11 صباحًا، كان بويغرونييه يستشيط غضبًا ولم يجد ما هو أفضل من توبيخها أمام الجميع. ومنذ تلك اللحظة، وجوستين تكبح جماح غضبها. كان الوقت يلعب ضدّهم ولم تفهم ضرورة هذه المجادلات الجديدة. عاقدةً العزم على فعل ما يدور في رأسها، أمضت الاجتماع في إرسال رسائل نصّية إلى بيرغومي تحثّه على متابعة التقصّي عن أديل تلك.

عند الظهر تقريبًا، سُمح لها أخيرًا بالذهاب إلى غرفة الاستجواب. بدا أدريان ديلوناي في حالٍ مزرية. وجهٌ متعب، عينان مطوّقتان بهالاتٍ سوداء، إفرازات متجمّدة على الجفنين من النوم، شعرٌ مبعثر. كان يدلّك أسفل ظهره، فيما تبلّل قميصه البولو الذي كلّفه 3 آلاف يورو بالعرق. كان أمير الجاز أشبه بمتشرّد من محطة قطار نيس-فيل. وكان هذا شائعًا. فغالبًا ما ينتج عن اليوم الثاني من الاحتجاز لدى الشرطة ردّ فعلٍ عنيفٌ لدى الأفراد الذين يُحقّق معهم، خاصّةً من اعتادوا على الاستحمام كلّ صباح وتنظيف أسنانهم ثلاث مرّات في اليوم.

جلست جوستين وفتحت حاسوبها المحمول أمامها.

– مرحبًا، سيّد ديلوناي. كيف حالك هذا الصباح؟

لا إجابة. ولا حتّى نظرة.

– تفتقد طفليك، على ما أظنّ؟ سألت وهي تجلس أمامه.

لا تجاوب. ولا حتّى فورة غضب. وهو أمرٌ مقلقٌ بعض الشيء، إذ لا ينبغي خسارة تجاوبه.

– سيكون من الصعب عليهما رؤية صورتك تتصدّر عناوين وسائل الإعلام كافّة، استفزّته قائلةً.

هذه المرّة، توّجه إليها عازف البيانو بحركةٍ حملت ما يكفي من المعاني، رافعًا إصبعه الأوسط بوضوحٍ في وجهها. ابتسمت له. ها قد عاد التواصل بينهما.

نظرة إلى شاشتها: كانديس لاشوم تمطرها بالرسائل منذ أن تفوّهت بالكلمة الأولى، وتلومها على عدوانيّتها.

همّت جوستين بالردّ عليها، بيد أنّها قرّرت التراجع. كان الإرهاق والتوتّر جزءًا من اللعبة. وكان كلّ واحدٍ منهما يترقّب اللحظة التي يفقد فيها الآخر رباطة جأشه وينهار أمام مشاعره. ركّزت كلّ قواها لإيجاد الكلمات المناسبة. اللحظة التي كانت تنتظرها وتخشاها منذ البداية قد حانت. بتواطؤ القضاة، والمحامين، ورجال الشرطة أنفسهم، نسفت الصحافة الفرنسيّة سرّيّة التحقيق. في القضايا التي تحظى بتغطيةٍ إعلاميّةٍ واسعة، كانت التفاصيل تتسرّب إلى الصحف تقريبًا في اللحظة ذاتها التي تُكشف فيها. وتفاديًا للظهور كالحمقى، تمكّن فريق التحقيق من إقناع المدّعي العام بمنع تسريب عنصرٍ بالغ الأهميّة عُثر عليه أثناء التحقيق: اعترافات أوريانا دي بييترو قبل وفاتها مباشرةً. كما أنّ المحضر لم يُدرج في الملفّ عمدًا، لسببٍ أساسي يقتضي منع ديلوناي أو محاميه من الاطّلاع عليه. فقد شكّل هذا الجزء أكثر من ورقةٍ رابحة في جعبتهم، كان بمثابة برميلٍ من النتروغليسرين. قنبلةٌ كانت، لسوء الحظ، عرضةً للانفجار بين أيديهم.

– هل واجهتِ صعوبة في الاستيقاظ، أيّتها القائدة؟ سأل ديلوناي مستعيدًا فجأةً روحه القتاليّة. أين كانت حفلة الليلة الماضية؟

– عذرًا، لكنّ حالك ليست أفضل من حالي أبدًا.

– أنا نمتُ في زنزانة، على نصف مقعد، وأنتِ؟ سألها مرّةً أخرى بتهكّم. هل أسرفتِ في الشرب؟ هل أنتِ سكرانة، أيّتها القائدة تاياندييه؟

– أمضيتُ ليلتي في المستشفى، يا أحمق. حطّمت والدتي رأسها بسقوطها في الحمّام. خيّطوا جمجمتها بثمانٍ وعشرين قطبة، لذا... تعلم أين يمكنك دحش دعاباتك.

زاد ردّها، الذي لفظته بنبرةٍ هادئةٍ، من تشنّج الأجواء. على الفور، ومض تنبيهٌ جديدٌ على شاشة جهاز الكمبيوتر. هذه المرّة، جاء التحذير من بويغرونييه نفسه: «هذا يكفي، تاياندييه. ابتلعي إهاناتكِ إذا أردتِ مواصلة هذا التحقيق!».

أخذت جوستين نفسًا عميقًا واستعادت هدوءها.

– لندخل في صلب الموضوع، سيّد ديلوناي.

قامت بتوصيل قرصٍ صلبٍ بجهازها الماك بوك وفتحت ملفًّا قبل أن توضح:

– سنناقش ما حدث في 14 أيّار 2023. بعد تسعة أيّامٍ من تعرّض زوجتك للاعتداء، خرجت من الغيبوبة لفترةٍ وجيزةٍ في وقتٍ متأخّرٍ من الصباح. كان الدكتور بارتوليتي، رئيس قسم الجراحة في مستشفى سيمون-فيل، هو الذي اتّصل بنا بعد الظهر بقليل ليعلن لنا الخبر. كان نهار الأحد، لكنّني كنتُ في الخدمة. وكنتُ أنا من استقبل مكالمة الطبيب الذي سمح لي بالحضور والاستماع إلى أقوال مريضته.

توتّر ديلوناي مع استحضار هذه الواقعة.

– وهكذا، ذهبتُ إلى زوجتك مع الملازم العمراني الحاضر معنا هنا، تابعَت مشيرةً إلى الوكيل المسؤول عن تدوين المحاضر الجالس بجوارها والذي كان يسجّل سير الاستجواب على حاسوبه.

عند ذكر اسمه، أبعد الشرطي نظره للحظة عن شاشته، بشيءٍ من الخجل الممزوج بالسرور.

– طلبتُ خصّيصًا من الطبيب ألّا يعلمك بما حدث ما لم أتحدّث مع السيّدة دي بييترو، اعترفت جوستين فوتّرت الجوّ أكثر.

متّكئًا على كرسيّه، لم يبدِ ديلوناي أيّ تأثّر. كشفت جوستين قصّتها.

– كنتُ أعرف عن زوجتك ما تمكّنتُ من قراءته عنها في الصحافة. وكنتُ قد رأيتُ بعض الصور لها. متألّقةٌ دائمًا، أنيقةٌ في كلّ الأوقات، متزيّنة بأفخر الملابس: راقية في كلّ الظروف. امرأةٌ تتمنّى كلّ النساء أن يشبهنها، حقًّا. فضلًا عن مسيرتها الرائعة.

توقّفت قليلًا ثمّ تابعت بتحدٍّ جديد.

– أتساءل كيف يكون شعور أن تكون متزوّجًا بأيقونة. أن تستيقظ كلّ صباح بجانبها. هل يبقى الأمر مربكًا بعد خمسة عشر أو عشرين عامًا من الزواج؟ هل يبطل السحر بعد فترة؟ هل هو أمرٌ خانق؟ هل يفرض عليك أن تبذل جهدًا مضاعفًا ومستمرًّا لترتقي إلى مستواها؟

طافت الأسئلة في الهواء. تابعت جوستين:

– في العشرين عامًا من مسيرتي المهنيّة، رأيتُ عددًا لا بأس به من الجثث أو الإصابات البالغة. لا يمكن لأحد أن يعتاد على هذا المشهد أبدًا، لكن مهما قيل، نصبح أقلّ تأثّرًا مع الوقت. ومع ذلك، في ذاك اليوم، عندما دخلتُ غرفة زوجتك، يمكنني أن أقول إنّني

لم أشعر بالراحة أبدًا. فالصورة التي كوّنتُها بذهني عن السيّدة دي بييترو اصطدمت بواقعٍ... لا يُحتمل.

2.

قرّبت جوستين كرسيّها من الطاولة.

– كانت زوجتك مشوّهة، واصلت وهي تحملق في عينَيْ ديلوناي. شهد وجهها وعنقها على العنف المدمّي الذي تعرّضت له. وكان أنفها وفكّها مكسورَين، وجلدها متورّمًا. فقدت النظر في إحدى عينيها ومعه العديد من أسنانها.

صُعق ديلوناي في مقعده. كان شاحب الوجه، متجمّد الملامح، مقوّس الظهر.

– كانت جلسة استماعٍ مُرهقةً للغاية. قمنا بتصويرها وأريد أن أعرض لك مقتطفًا منها.

أدارت شاشة الكمبيوتر نحوه وضغطت على الزرّ لبدء الفيديو.

[مستشفى سيمون-فيل – الأحد 14 مايو/أيّار – الساعة 1:49 ظهرًا]

غرفة مستشفى غارقةٌ في ضوءٍ ذهبي مائل إلى النحاسي في بداية فترة العصر. أشعّة الشمس تتسرّب من تحت الستائر شبه المُسدلة. تُظهر اللقطة وجه امرأةٍ مصابة بجروحٍ خطرة، جالسةً نصف جلسةٍ على السرير. في الخلفيّة، يمكن رؤية جزءٍ من شاشة جهاز المراقبة. كان صوت أوريانا دي بييترو، التي بدا من الصعب التعرّف إليها، مخنوقًا بسبب الأنبوب المعدني الذي أُدخل إلى قصبة رئتها لمساعدتها على التنفّس.

جوستين: أعدنا تشغيل الكاميرا، سيّدة دي بييترو. هل تسمحين بذلك؟

توافق أوريانا بإيماءةٍ صغيرةٍ من رأسها.

جوستين: أخبرني الطبيب أنّكِ قادرة على الإجابة عن أسئلتي، لكنّني لا أريد الضغط عليكِ.

أوريانا (بصوتٍ أجشّ ولكن ضعيف): لا بأس.

جوستين: لن أطيل عليكِ، أعدكِ. في هذه المرحلة، أريد فقط أن أعرف بالمختصر ما حدث معكِ على متن القارب.

أوريانا: كنتُ مستلقيةً على السطح المفتوح عندما...

جوستين: هل تتذكّرين الوقت؟ هذا التفصيل مهمٌّ جدًّا.

أوريانا (بعد لحظةٍ من التفكير): ربّما... ربّما كانت الساعة 7:45 مساءً.

جوستين: ماذا حدث؟

أوريانا: سمعتُ صوتًا. شعرتُ فجأة بأنّني لم أكن وحدي. نزلتُ إلى الأسفل. في البداية، لم أر شيئًا، غير أنّ الشعور بوجود تهديدٍ أمسى أقوى.

تلتقط أنفاسها. كانت كلّ جملةٍ وكلّ كلمةٍ تجهدها.

أوريانا: اتّجهتُ إلى الناحية الأخرى من القارب، فلمحتُ زورقًا مطّاطيًّا راسيًا في الخلف. في تلك اللحظة، تملّكني الخوف حقًّا. حاولتُ العودة إلى السطح، لكنّ الأوان كان قد فات. ظهر أمام عينيّ شخصٌ مسلّحٌ بعصًا معدنيّة.

كان كلامها متقطّعًا، تتخلّله ثوانٍ طويلة من الصمت والتنهّدات.

جوستين: من كان، سيّدة دي بييترو؟ أتعرفينه؟

كان الطبيب واقفًا بجانبها، يمدّها بقناعٍ لاستنشاق الدواء.

تستنشق أوريانا بضع جرعاتٍ لتوسيع المجاري الهوائيّة، ثمّ تحاول الاستئناف.

أوريانا: كان يرتدي بدلة غوص سوداء. نظر في عينيّ وقال: «سوف تموتين وكلّ أموالك لن تتمكّن من ردعي». وضربني بعصاه المعدنيّة.

فيما تسترجع المشهد، لاح الرعب على وجه أوريانا.

جوستين: أكرّر سؤالي، سيّدة دي بييترو. أتعرفين من هاجمكِ؟

أوريانا (وهي تصرخ): نعم، نعم... كان زوجي...

جوستين: هل أنتِ متأكّدة؟

أوريانا: كان هو، أدريان!

جوستين: أتعرفين دوافعه؟ أتعلمين لماذا هاجمكِ؟

أوريانا: ربّما لأنّ... لأنّ...

تدفع أوريانا نفسها للخلف على سريرها والذعر في عينيها، وتبدو كأنّها تعاني ضيقًا في التنفّس.

يشير الطبيب إلى الممرّضة ويتوقّف الفيلم.

.3

واجهت جوستين صعوبةً في كبت انفعالاتها. كيف يمكن لرجلٍ أن ينقلب إلى عنفٍ وحشيٍّ بهذا النحو؟ وبدمٍ بارد! في كلّ مرّة أعادت فيها مشاهدة الفيديو، كانت تقول لنفسها إنّه، مع القليل من الحظّ، كان من الممكن إغلاق القضيّة أسرع. لم تكن أوريانا دي بييترو في وضعٍ يسمح لها بإعادة جلسة الاستماع في ذلك اليوم. عادت جوستين إلى المستشفى في اليوم التالي، لكنّ المرأة الإيطاليّة كانت قد دخلت

مرّةً جديدةً في غيبوبةٍ لم تخرج منها بعد ذلك أبدًا. تُوفّيت بعد ساعاتٍ قليلةٍ من دون أن تكشف الحقيقة كاملةً.

مسندًا ذقنه إلى قبضته المشدودة، تلقّى ديلوناي ضربةً قاضيةً تركته في حالة ذهولٍ وعجزٍ عن النطق بكلمةٍ واحدة. قرّب وجهه من الشاشة وعيناه مغرورقتان بالدموع، وأعاد تشغيل الفيديو من دون استئذان أحد. نظر في عينيّ وقال: «سوف تموتين وكلّ أموالك لن تتمكّن من ردعي» [...] كان زوجي [...] كان هو، أدريان!». جمّدت المشاهد الدم في عروقه. قفز مع كلّ ردٍّ كما لو كان جسده يتلقّى رصاصاتٍ من مسافةٍ قريبة.

ما إن توقّف الفيلم حتّى سالت على خدّيه دمعتان. أغمض عينيه وبقي متهالكًا على كرسيّه. بلا حراك، ينتحب كالأطفال. حبست جوستين أنفاسها. ها هي، اللحظة الحاسمة. اللحظة التي ترصّدتها منذ بداية الاعتقال. نقطة التحوّل التي قد تغيّر كلّ شيء. رازحًا تحت مشاعره وتراكم الأدلّة، كان عازف البيانو ينهار.

استعادت جوستين جهاز الكمبيوتر وانتقلت إلى تطبيق المراسلة الداخلي للقسم. كرّرت كانديس لاشوم نصيحتها متحمّسةً لاستغلال الموقف: «أريه صورة لطفليه». لم تجد جوستين الفكرة ذكيّةً جدًّا، لكنّ خبيرة السلوك أصرّت: «أريه إيّاها! الآن! أنتِ على بعد خطوةٍ من الضربة القاضية».

– أعتقد أنّ الوقت قد حان للبوح بالحقيقة، سيّد ديلوناي.

فتحت ملفًّا من الورق المقوّى وأخرجت صورةً لطفلَي الثنائي، باولو وصوفيا، يبتسمان فيها أثناء رحلة تزلّج.

– أخبرنا بما حدث. افعل ذلك لتريح ضميرك، وتكريمًا لذكرى زوجتك، وقبل كلّ شيء، من أجل طفليك.

مدّت الصورة لعازف البيانو الذي دفعها بعيدًا بعنف.

اللعنة.

كان الفخّ أوضح ممّا ينبغي، وكانت تعرف ذلك. لهث ديلوناي بأنفاسٍ قصيرةٍ متقطّعة، محاولًا لملمة دموعه. واغتنم الفرصة ليمسحها بكمّ قميصه البولو.

– هل معكِ سيجارة؟ سألها.

– في وقتٍ لاحق. سنأخذ استراحة حوالي الساعة الواحدة ظهرًا.

أصرّ ديلوناي على مطلبه.

– ممنوع التدخين هنا، أكّد العمراني مشيرًا إلى كاشف الدخان.

إذا أشعل عازف البيانو سيجارة، فسينطلق إنذار الحريق ويصل رنينه إلى أرجاء الطابق كلّه. ولم يكن الوقت مناسبًا لذلك أبدًا.

– دعاني أخرج إذن!

مكتبة سُر مَن قرأ

لتجنّب حنقه أكثر، قدّمت جوستين له علبة سجائر.

– حسنًا، يمكنك إشعال سيجارة، قالت بنبرةٍ حاسمة وهي تتسلّق كرسيّها ثمّ الطاولة المعدنيّة لفكّ غطاء جهاز الاستشعار وإزالة البطاريّة.

ثمّ جلست مجدّدًا، غير متأكّدةٍ من السلوك الواجب اتّخاذه بعد ذلك.

أخذ ديلوناي يدخّن وهو في حالة تركيزٍ شديدة. نجح في التغلّب على مشاعره. لمع بريقٌ في عينيه، لكنّه لم يكن بريق الاستعداد للاعتراف. عرفت جوستين جيّدًا ما كان يفكّر فيه ولم ترغب في منحه وقتًا للتعمّق في أفكاره أكثر من ذلك. هزّته من جديد.

– لا تترك هذه المشاهد مجالًا للشكّ، سيّد ديلوناي. لدينا الآن أدلّةٌ دامغةٌ ضدّك. سلاح الجريمة الذي يحمل بصماتك، واتّهامات زوجتك التي لا لبس فيها، وعذر غيابك الذي أصبح باطلًا الآن... اعترافك ستكون فيه رفعةٌ لك.

– وأنتِ أيضًا، أيّتها القائدة، ستكون في قيامكِ بعملك الاستقصائي وعدم التفوّه بالهراء رفعةٌ لكِ.

تسبّبت إجابة عازف البيانو بهبوطٍ مفاجئٍ لحرارة الغرفة، كما لو شُغّل المكيّف على أقصى درجة برودة. زمّت جوستين عينيها. حالت حلقات الدخان التي طوّقت جزئيًا وجه عازف البيانو دون قدرتها على رؤيته.

– تحتفظين بهذه المشاهد منذ عام، أوضح ديلوناي. لو كنتِ تعتقدين أنّها تعكس ذرّةً من الحقيقة، لظهرتِ أمام منزلي في الدقيقة ذاتها، ولما انتظرتِ كلّ هذا الوقت لاعتقالي.

– لم يُفبرَك هذا الفيديو إن كان هذا ما...

– لا، ليس هذا ما ألمّح إليه.

– ماذا إذن؟

– ما أعنيه هو أنّ زوجتي لم تكن في حالةٍ تسمح لها بالإدلاء بشهادة. كانت مشحونةً بالمسكّنات، والمورفين، والأدوية على أنواعها. أدويةٌ تشوّش حكمها على الأمور وتؤثّر على ذكرياتها. من الواضح جدًّا أنّها كانت تهذي.

– أليست هذه حجّةً واهنة بعض الشيء؟ أجد شهادتها دقيقةً للغاية.

– هل تودّين أن نستعرض الشريط معًا مرّةً ثانية؟ البداية هي التي تهمّني. تعلمين، تلك اللحظة التي تقولين فيها: «أعدنا تشغيل الكاميرا، سيّدة دي بييترو. أتسمحين بذلك؟».

– وما في ذلك؟

– لقد قلتِ: «أعدنا تشغيل الكاميرا»، ما يعني أنّكِ شغّلتِها من قبل ثمّ أطفأتِها.

– لا أرى ما الذي...

– لا بل ترين جيّدًا. أظهرتِ لي الجزء الثاني فقط من التسجيل. لكنّي أشعر بالفضول لما قالته لكِ زوجتي قبله.

رمق العمراني جوستين بنظرةٍ قلقة. حاولت الشرطيّة إخفاء ارتباكها مدركةً في تلك اللحظة أنّها وضعت نفسها في الموقف الذي كانت طوال الوقت تحاول تجنّبه. وبعد لحظةٍ طويلةٍ من العزلة النفسيّة، أكّدت لِديلوناي وجود لقطاتٍ للحظات سابقة.

– أرغب في رؤيتها.

– لا يحقّ لك أن ترغب في شيء. أنت محتجزٌ لدى الشرطة، لست في ستاربكس تطلب القهوة.

– إذن لن أجيب عن أيٍّ من أسئلتك. وهذا الاستجواب انتهى.

فكّرت للحظة في التمسّك بموقفها، لكنّها كانت تعرف أنّ ديلوناي لن يكون متعاونًا. على مضض، استعادت حاسوبها وشغّلت تسجيل فيديو جديدًا.

[مستشفى سيمون-فيل – الأحد 14 مايو/أيّار – الساعة 1:24 ظهرًا]

جوستين: اسمحي لي بأن أقدّم نفسي، سيّدة دي بييترو، أنا القائدة جوستين تاياندييه من مديريّة الشرطة القضائيّة في نيس ومعي ضابط الشرطة أشرف العمراني الذي يعمل معي. قسمنا مسؤول عن التحقيق في محاولة القتل التي كنتِ ضحيّتها. هل تشعرين بأنّك قادرة على الإجابة عن أسئلتي؟

أوريانا (بصوتٍ ضعيف): أنا... سأحاول.

جوستين: أتتذكّرين ظروف الاعتداء عليك؟

أوريانا: الاعتداء؟

جوستين: الاعتداء الذي حصل على متن قاربك.

تلهث أوريانا لالتقاط أنفاسها كما لو أنهت للتوّ سباقًا.

أوريانا: كان أحدٌ على متن اليخت. ظهر خلفي وضربني. ثمّ، لا أذكر شيئًا.

جوستين: هل تمكّنتِ من رؤية وجهه؟

أوريانا: وجهه... ربما... لم أعد أعرف... حدث كلّ شيء بسرعةٍ كبيرة... أنا... أنا أختنق...

(صوت الطبيب): يجب أن نتوقف عن الاستجواب بينما نقوم بالعلاج بالرذاذ لتوسيع المجاري الهوائيّة.

4.

بأعصابٍ باردة، سحق أدريان ديلوناي عقب سيجارته في الكوب الورقي أمامه. كانت لحظة الحقيقة تبتعد وأدركت جوستين أنّها ربّما أضاعت فرصتها.

18

أديل كيلر
حالة الطوارئ

«القاتل مثل التاجر، يجني ثروته في حالة الطوارئ».

بيير لوميتر

كومبري سانت-مارين، 4 مايو/أيّار 2023
جنوب فينيستير

1.

استأجرتُ سيّارةً من وكالة سيكست في محطة مونبارناس وغادرتُ باريس عند الساعة الواحدة فجرًا. معتمدةً على نظام الجي بي إس، قدتُ سيّارتي غربًا طوال الليل. أخذتُ الطريق السريع المؤدّي إلى شارتر، ثمّ لومان، قبل أن أواصل الطريق نحو منطقة بريتاني. توقّفتُ أوّلًا في مدينة رين حيث ملأتُ خزّان الوقود، ثمّ تابعتُ إلى كيمبر واجتزتُ جسر كورنواي.

وصلتُ إلى كومبري سانت-مارين عند الساعة السابعة صباحًا، ووجدتُ بسهولة مكانًا لركن السيارة أمام الكنيسة، ثمّ نزلت نحو الميناء. كانت الشمس تشرق في مشهدٍ جديرٍ ببطاقةٍ بريديّة لشبه جزيرة بريتاني. شاطئٌ عائلي صغير، وميناءٌ على شكل حدوة حصان،

وترّاساتٌ بأسماءٍ تحاكي عالم السفن: مقهى دو لا كال، كريبري لا ميزين، حانة دو باك.

تقدّمتُ ببضع خطواتٍ على الرصيف البحري. على الرغم من أنّني بقيتُ ستّ ساعات متواصلة على الطريق، لم أشعر بذرّة تعب. كانت أفكاري واضحة وعزيمتي قويّة. حتّى دفتر مذكّراتي رميتُه في سلّة مهملاتٍ عامّة، متحرّرةً من كلّ ما يخصّ حياتي السابقة. لم تعد امرأة الظلّ ترغب في العودة إلى هناك بعد الآن. أديل كيلر ماتت. أفسحوا المجال لأديل ديلوناي!

لم تكن المقاهي قد فتحت أبوابها بعد، فجلستُ على مقعدٍ في مواجهة مصبّ النهر أتأمّل رقصة القوارب على إيقاع المدّ العالي. كان الضوء جميلًا وفي حركةٍ مستمرّة، مكسوًّا بلمعةٍ ناعمة كأنّه مُصفّى عبر قشرةٍ لؤلؤيّة. نسيم البحر ورائحة اليود رسّخا خطّة الهجوم في رأسي، وكأنّها بروفة عامّة قبل المعركة.

.2

بعد نصف ساعة، كنتُ أعبر عتبة مقهى لابري دو مارين الواقع في مبنًى قوطيّ الطراز. سقفٌ من الألواح القرميديّة الرماديّة، وواجهةٌ تقليديّة من الحجارة المصقولة والمكسوّة بطبقةٍ ورديّة اللون: وكأنّ المكان انبثق من رواية لبيار لوتي.

هذا هو المكان الذي اعتاد بيرند شولزر أن يأتي إليه كلّ صباح، حين يفتح المقهى أبوابه، لتناول قهوته بصحبة كلبه. عرفتُه من النظرة الأولى. كان قابعًا في زاويةٍ بالقرب من النافذة، يتصفّح صحيفة ويست-فرانس. شعرٌ شائب جزئيًّا مصفّف إلى الوراء، نظّارةٌ بلاستيكيّة سوداء سميكة، وصدرٌ مشدودٌ مربّع. جسم ستّيني مفتول العضلات لا بدّ من أنّه يقوم بمئة تمرين ضغطٍ في اليوم. ذكّرني،

باستثناء انطوائه على نفسه، ببعض الرجال الأكبر منّي سنًّا الذين صادفتهم عبر تطبيقات المواعدة. رجالٌ يأملون اصطياد فتاةٍ شابّة بعرض عضلات معدتهم، وأسنانهم المصفوفة، وشعرهم المزروع.

في إحدى محادثاتنا على شرفة جناحها في فندق بريستول، حدّثتني أوريانا طويلًا عن مسلك الناشط اليساري المتطرّف السابق هذا الذي كانت تفكّر في الاستعانة به. على الرغم من كنيته الألمانيّة، أمضى شولزر فترة شبابه كلّها في إيطاليا. ولفهم مسيرته، وجبت العودة إلى نهاية التسعينيّات حين عادت الألوية الحمراء إلى الظهور لفترةٍ وجيزة، بعد اختفائها من المشهد السياسي الإيطالي. امتدادًا للفكر الفلسفي الذي ساد خلال سنوات الرصاص في إيطاليا، نفّذت مجموعة إرهابيّة اغتيالاتٍ لشخصيّات عدّة من بينها مستشارون وزاريّـون وشرطي. فجرى آنـذاك الحديث في الصحافة عن التنظيم الجديد للألوية الحمراء (Nuove Brigate Rosse). ومع انصرام زمن الصراع المسلّح، فكّكت الشرطة الشبكة وصدرت أحكامٌ صارمة بحقّ أعضائها الرئيسيّين.

وفي كلّ مرّة، كان بيرند شولزر، الملقّب بـ«Anguilla rossa»، أي الأنقليس الأحمر، يفلت من شباك العدالة كالشعرة من العجين. بعد عام 2005، لم يُسمع عنه شيء، إلى أن تعقّبته أوريانا أثناء إجرائها تحقيقًا صحافيًّا حول الروابط الحديثة بين الإرهاب والجريمة المنظّمة. كان قد بدأ حياةً جديدة في فرنسا بهويّة مزوّرة. لم تنجح أوريانا في إقناعه بالإدلاء بشهادته من أجل كتابها، إلّا أنّها تأثّرت بمسار هذا الثائر السابق. ومع مرور الوقت، تنحّت مثله العليا التي كان يقتدي بها في شبابه جانبًا لتحلّ مكانها عقليّة تاجرٍ صغير. صار شولزر، في رغبةٍ منه في أن يعيش مرتاحًا مادّيًّا، ينفّذ عقودًا في

أوساطه ولصالح عملاء ميسورين من حول العالم كانوا يتناقلون اسمه في ما بينهم من تحت الطاولة.

طلبتُ كوب شاي، ثمّ توجّهتُ للجلوس مع الألماني. كنتُ أشعر بأنّني مختلفةٌ عن الأمس، تملأني ثقةٌ راسخة، وكأنّني أعيش الآن نسخةً جديدةً من ذاتي.

رفع شولزر عينيه عن صحيفته، وحدّق فيّ من دون أن يرفّ له جفنٌ من خلف نظارته، فيما كان يربّت رأس كلب صيدٍ يشخر بصوتٍ عالٍ عند قدميه. وضعتُ حقيبة بيرلوتي أمامه قبل أن أجلس قبالة النافذة. من دون أن يظهر أيّ ردّ فعل، انتظر حتّى فتحتُ السحاب، قبل أن ينظر إلى الداخل ويكتشف الأوراق النقديّة.

– 200 ألف يورو. أوراق نقديّة من فئة 50 يورو، نظيفة ولا يمكن تعقّبها.

– هل تريدين شراء سيّارتي الرينو 4؟ آسف، لكنّها تعني لي الكثير وهي ليست للبيع، ولو بهذا المبلغ.

– أنا هنا لشراء خدماتك.

فلّك زرًّا إضافيًّا من أزرار سترته المصنوعة من جلد الغزال.

– أقوم بأعمال البستنة هنا، وهناك. أستطيع أن أزرع لكِ زهرة الكوبية الجميلة، والكاميليا، والغار الوردي.

– كنتُ أفكّر أكثر في عمليّة تشحيل.

نظر الألماني حوله. علت قرقرة ماكينة القهوة، ثمّ خرخرة آلة الإسبريسو وسط سحابةٍ من البخار. بالقرب من البار، وقف سكّيران وقد بدآ يشحنان نفسيهما بالكحول.

– من؟ سأل أخيرًا.

– هي، أجبتُ وأنا أسلّمه ظرفًا يحوي صورًا عدّة لأوريانا دي بييترو.

رفض شولزر أخذ الظرف، فتركتُه أمامه إلى جانب فنجان قهوته.

– أين؟

– «أين» يعتمد على «متى».

نظر إليّ بتعب، ثمّ خطا الخطوة التي كنتُ أدفعه ليخطوها.

– متى؟

– غدًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هزّ رأسه حاسمًا.

– غدًا مستحيل.

– إمّا غدًا أو لا.

حكّ شحمة أذنه، متأمّلًا الظرف لوقتٍ طويلٍ قبل أن يقرّر فتحه. تصفّح أوّلًا التعليمات القليلة التي تركتها لتسهيل مهمّته، ثمّ نظر إلى الصور واحدةً تلو الأخرى، مبديًا مفاجأة كبيرة عندما تعرّف إلى أوريانا.

– تريدين منّي أن أقتل هذه المرأة؟

– أريدك أن تقتلها غدًا.

أشار إلى الحقيبة المليئة بالنقود وقال:

– «غدًا» ليس بالسعر نفسه.

الجواب الذي توقّعتُه بالضبط. وضعتُ كيسًا من الخيش على الطاولة فيه بقيّة المبلغ.

– إليك 100 ألف يورو إضافيّة. هذا عرضي الأخير.

تجمّدت ابتسامةٌ على شفتيه. بقي شولزر يتظاهر بالتردّد، لكنّني كنتُ متأكّدة من أنّه سيقبل. المال السهل تأثيره لا يُقاوَم.

– وما الذي يؤكّد لي أنّ هذا ليس فخًّا؟

– لا شيء، لكنّه أمرٌ يستحقّ المخاطرة.

أنهى قهوته بجرعةٍ واحـدة، طقطق بلسانه، ورمـى مكعّبًا من السكّر لكلبه.

– عليكِ فهم شروطي جيّدًا. بمجرّد أن أقبل هذا الاتّفاق، لا مجال للتراجع.

– أعرف جيّدًا ما أفعله.

– بعد أن تعبري عتبة هـذا المقهى، لن تتمكّني من تغيير رأيكِ. سأنفّذ مهمّتي حتّى النهاية، ولن تستطيعي استعادة هذا المال إلّا على جثّتي.

– لن أغيّر رأيي أبدًا.

أومأ شولزر برأسه، مسرورًا.

– شيءٌ أخير، قلتُ.

– تفضّلي.

– لا تكن لطيفًا.

– ماذا؟

– أريدها أن تتعذّب. لا أريد أن يفاجئها الموت. أريـدك أن تعطيها الوقت الكافي لتراه قادمًا. أريدها أن ترتعب.

19

جوستين تاياندييه
فريسة حقائقها

«الإنسان فريسة دائمة لحقائقه».

ألبير كامو

السبت 25 مايو/أيّار 2024
مركز الشرطة في نيس
قبل الساعة 1 ظهرًا بقليل

1.

أوشكت جوستين أن تنهار.

كان أدريان ديلوناي جالسًا قبالتها ينتظرها أن تكمل استجوابها. ومن خلف حاسوبه، كان العمراني يترقّب، وأصابعه مهيّئةٌ على لوحة المفاتيح. في الغرفة المجاورة، وقف بويغرونييه، وكانديس لاشوم، والرقيب غارسيا يتساءلون عن سبب عدم استئناف الجلسة.

أغلقت جوستين جفنيها للحظة. كانت عيناها تحترقان كما يحصل لها أحيانًا عندما لا تنام جيّدًا. عادةً، تبقي في جيبها قطرة للعين لتسكين الألم، لكنّها غيّرت سترتها فنسيتها في المنزل.

اللعنة.

حفّت الجزء الخلفي من رقبتها. أصابها هذا الفستان بالحكّة. كان عليها أن تقصّ كلّ الملصقات كما تفعل عادةً. الموادّ المستخدمة، والقياس، وطريقة الاعتناء، ومكان التصنيع، كلّها مترجمةٌ إلى خمس وعشرين لغة: كانت تكره هذه الامتدادات الورقيّة التي تُخيّط في كلّ لباسٍ والتي لا فائدة منها. ثمّ كانت أيضًا تتضوّر جوعًا. فهي لم تأكل أيّ شيء منذ تلك الشطيرة المقرفة في المستشفى. أصيبت بنوبةٍ مفاجئة من التعب منعتها من التفكير وتذكّرت أنّها أيضًا لم تأخذ أدويتها التي بقيت في سترتها.

اللعنة. اللعنة.

ها هي محرومةٌ من أدويتها. ومع إدراكها لهذا الأمر، تضاعف قلقها. كانت تشعر بالحرّ، وتتعرّق كما لو أنّ دمها يغلي في جسمها. خلعت سترتها ونهضت لتشغيل مكيّف الهواء. كانت تتضوّر جوعًا لدرجة أنّها فكّرت في اقتراح استراحة. لكن لا، سيكون ذلك من الغباء، وسوف يلومونها على قطع الاستجواب في ذروته. لكنّ أفكارها استمرّت في الانجراف إلى الطعام. المذاق المدخّن واللذيذ لبرغر بيغ تيستي، أو صلصة الخردل للرويال ديلوكس، أو ببساطة برغر رويال تشيز الساخن والطريّ. اللعنة، توقّفي!

– هل أنتِ بخير، يا قائدة؟ سأل العمراني.

لا، لم تكن بخير. لم تكن على ما يُرام أبدًا: كانت ذابلة، مهمّشة، منفصلةً عن الواقع. والعالم من حولها فقد اتّساقه. تساقطت قطراتٌ من العرق على جبهتها. أخذت رشفةً من الماء. كان هذا الشعور الشنيع بالوحدة يستولي عليها في أسوأ الأوقات. أدويتها، تحتاج إلى أدويتها. ولإعادة الاتّصال بالواقع، أمسكت بهاتفها الخلوي واستحثّت بيرغومي.

هل من أخبار عن أديل؟

لا، لا شيء حتّى اللحظة.

قلت لك أن تقصد الفنادق!

هذا ما فعلته، جوستين! من أجابني لا يعرف شيئًا عن الفتاة.

يبدو أنّها لم تحجز أيّ غرفةٍ باسمها.

هل عاينتَ مكالمات عازف البيانو؟

لا تظهر فيها. قد يملك هاتفًا ثانيًا، الكثيرون يفعلون.

استغلّت جوستين وجود هاتفها في يدها، وفعلت بالضبط ما كانت تحظره على نفسها. فتحت تطبيق إنستغرام لتحطّ فورًا عند حساب الطبيبة الجرّاحة. كانت الأخيرة قد نشرت سلسلةً جديدةً من الصور ظهرت فيها مع رومان وطفلهما وقت الفطور. شعرٌ متطايرٌ في الهواء، ابتسامات، أسنانٌ بيضاء، نظّارةٌ شمسيّة. في الخلفيّة، يمكن رؤية غابة صنوبر، وجزءٍ من البحر، وقطعةٍ من السماء الزرقاء. كان التعليق على المنشور واضحًا وصريحًا: «يومٌ آخرُ في النعيم»، تتبعه مجموعةٌ من الهاشتاغات الغبيّة: #مع_العائلة #ممتنة #وقت_عائلي #أجواء_الربيع #وقت_الراحة #أحبائي #كورسيكا #جزيرة_الجمال #كالا_روسا #بورتو_فيكيو #أجمل_مكان

فكّرت جوستين في قول بروست: «المدهش في سعادة الآخرين هو أنّنا نؤمن بها»، وتخيّلت صدى الهاشتاغات الخاصّة بحياتها: #حياة_لعينة #يوم_مقرف #فشل_ذريع #وجع #يوم_مناسب_للموت #مكتئبة

أغلقت التطبيق، وبما يشبه غريزة البقاء، حشدت كلّ طاقتها للعودة إلى اللعبة.

.2

– حسنًا، قالت وهي تنظر إلى ديلوناي. أودّ الآن أن نتحدّث عن شخصٍ عزيزٍ على قلبك.

أملت، من دون أن تكون متأكّدة، أن تكون وظائفها الأساسيّة قد عادت للعمل. بنظرةٍ متوتّرة، سلّمها العمراني الملفّ الذي حوى نسخًا من الصفحات الأربع للمذكّرات.

– أودّ لو نتحدّث عن أديل.

– أديل؟

قطّب عازف البيانو حاجبيه. بدا نصف مندهشٍ ونصف منزعج. أضاف:

– أيّ أديل؟ المغنّية؟

– لا، لا أعتقد أنّها هي.

– من إذن؟

– أديل، عشيقتك.

هزّ رأسه ورفع عينيه نحو السماء.

– ألم تتعبي من اختراع...؟

قاطعته بالبدء بقراءة مقتطفات من اعترافات العاشقة الغامضة.

– أدريان رائع. ذكيّ، وحنون، ويتميّز بحسّه الفكاهي في كلّ المواقف. عالمٌ جديدٌ ينبسط أمامنا.

نهضت، ودفعت كرسيّها للخلف، مواصلةً القراءة، وهي تجول حول الطاولة وتطلق الكلمات كالأسهم.

– لدينا خطط مبهجة: إنجاب طفل، والذهاب في جولةٍ حول العالم بالقارب، وشراء مزرعةٍ في مونتانا، وكوخ صيّادٍ في خوسيه إغناسيو.

بحث ديلوناي بنظره عن العمراني، وفتح ذراعيه في إشارةٍ إلى عدم الفهم، لكنّ جوستين لم تتوقّف.

– لا أنوي العودة إلى ما قبله. بجانبه، لم أعد أخاف شيئًا. للمرّة المئة، أعيد شريط ذكرياتي من لحظاتنا السحريّة، وسفراتنا، ومداعباتنا، ولحظاتنا الحميمة.

– لكن...

– أسمعه من جديد وهو يقول لي إنّني ملكته، وملهمته، وعاهرته، وجوهرته، وأعجوبته. هذا الجزء هو المفضّل لديّ.

– هذا يكفي! ما الذي تتحدّثين عنه بحقّ الجحيم؟

– عن مذكّرات عشيقتك. لقد عثرنا عليها على متن قارب زوجتك. لقد كشفت أوريانا أمرك، سيّد ديلوناي.

في حالة ذهول، أدار عازف البيانو رأسه يمينًا ويسارًا، غير قادرٍ على اللحاق بجوستين.

لكنّ جوستين تابعت، مثل صقر الشاهين الذي ينقضّ على فريسته بمخالبه الحادّة.

– أسمع صوته وهو يكرّر لي إنّه لم يحبّ أحدًا غيري... أنّه سيقدّم لي ما أستحقّ.

– توقّفي!

– هو يخشى أن تكتشف زوجته خيانته وتطلب الطلاق. يرتعب من فكرة أن تحرمه أوريانا من طفليه. كم أودّ أن أخبره أنّ هذا لن يحدث!

– توقّفي، قلتُ لكِ!

– آه يا حبيبي، لا داعي لأن تقلق. سنقوم بتربية باولو وصوفيا معًا ولن تنفصل عنهما أبدًا!

– لا أعرف من تكون هذه المرأة!

– رغم أنّها تعرفك جيّدًا، على ما يبدو.

– أحضريها أمامي، سترين أنّني أقول الحقيقة.

عادت جوستين إلى مقعدها. أمعنت النظر في أدريان وقالت بحزم:

– بتنا الآن نملك دافعك وهو ليس بجديدٍ على الإطلاق، سيّد ديلوناي. الدافع الكلاسيكي على مرّ القرون: قتل الزوجة للتمتّع بحياةٍ جديدة.

– هذا هراء.

– فضحتك زوجتك، ورأيتَ أنّك على وشك خسارة كلّ شيء، فحاولت قلب الطاولة. لم يكن قرارًا سهلًا على ما أظنّ، لكنّ قتل أوريانا حلّ مشاكلك كلّها. استبدلت الزوجة العجوز بأخرى أصغر سنًّا، وورثت أموالها، والأهمّ من ذلك كلّه، احتفظت بطفليك، قرّة عينك.

تركت بعض الوقت يمرّ، ثمّ أكملت:

– لا شكّ في أنّكما كنتما تفكّران في إنجاب طفلٍ ثالثٍ للسماح للسيّدة ديلوناي الجديدة بأن تصبح أمًّا. باختصار، كان السبيل الأفضل إلى الحياة التي حلمتما بها: بيت الصيّاد، المزرعة في مونتانا، السفر حول العالم بالقارب...

خفض عازف البيانو رأسه. غرزت جوستين المسمار أكثر.

– لقد خسرت، يا ديلوناي. ستصدر القاضية الحكم بحقّك وتزجّك في السجن. ستمثل أمام المحكمة الجنائيّة، وهناك سيتولّى المحلّفون نهشك. لا تعوّل على قرينة البراءة، ولا على القناعة الشخصيّة للمحلّفين. لن ينقذك أحد. خطّتك كانت جريئة، لكنّها

أظهرت كم أنّك رجلٌ سيّئٌ بالفعل. سوف تتعفّن في السجن، ولن ترى طفليك يكبران، ولن يستمع أحدٌ إلى معزوفات قاتلٍ مثلك، سوف...

– أنا، قاطعها فجأة. أنا!

3.

خيّم صمتٌ جديدٌ على الغرفة. شعرت جوستين بجسدها كلّه يرتخي. لقد نجحت أخيرًا. ها هو يعترف.

– هل أنتَ من قتل زوجتك؟ سألته.

رفع ديلوناي رأسه، مكتوف اليدين.

– لا، أنا من أجريتُ المكالمة.

– أيّ مكالمة؟

– لإبلاغكم عن سلاح الجريمة في مأوى القارب.

يا لهذا التحوّل...

– لا أفهم، قالت بانزعاج.

قرّب عازف البيانو كرسيّه محدثًا صريرًا مزعجًا.

– قبل بضعة أشهر، أعادت دائرتكم بعض الأغراض التي كانت على متن القارب والتي كانت تعود لزوجتي.

تنحنحت جوستين. هي تتذكّر هذه العمليّة. لم تكن الأغراض التي وُجدت في اليخت كلّها مهمّةً قضائيًا. فرزها فريقها ولم يحتفظ إلّا بالتي كانت ذات أهمّيةٍ واضحة في التحقيق.

تابع ديلوناي:

– وكان من بين هذه الأغراض، منديلٌ ملطّخ بالدم.

توقّف للحظة للتأكّد من أنّه يحظى بكامل انتباهها.

– فخطرت في بالي فكرةٌ مجنونة. أخذتُ إحدى شعرات زوجتي من فرشاة شعرها وبلّلتُ المنديل لتخفيف بقعة الدم. وهذا

ما سمح لي بترك أثرٍ من الهيموغلوبين على العصا المعدنيّة الخاصّة بالمدفأة عندنا. ثمّ اتّصلتُ بكم.

أطلقت الشرطيّة تنهيدةً عميقة.

– أنت حقًّا تعتبرنا أغبياء...

شبكت ذراعيها تاركةً نفسها تنزلق في كرسيّها، وأضافت:

– ما الذي تحاول قوله لي؟ أنّك لفّقت أدلّةً كاذبة لتجريم نفسك؟

– نعم.

– ولأيّ غرض؟

– لاستكمال التحقيق وفهم ما حدث لزوجتي.

احتجّت جوستين قائلةً:

– لم نتوقّف يومًا عن البحث.

عبس ديلوناي وتصلّب وجهه.

– كوني صادقة: على مدار عامٍ من التحقيق، لم تتقدّموا قيد أنملة. خاطرتُ بأن أُعتَقل لإحداث ضجّةٍ إعلاميّةٍ على أمل أن يحدث شيءٌ ما في النهاية. شهادةٌ جديدة، دليلٌ جديد، نظرةٌ أخرى على القضيّة من شأنها أن تكشف عن مسارٍ جديدٍ. فعلتُ ذلك أوّلًا وقبل كلّ شيء من أجل طفليّ. كي لا يسمعا كلّ يومٍ في المدرسة أنّني قتلتُ والدتهما. كي لا يفكّرا حتّى في هذا الاحتمال. منذ وفاة أوريانا، تغيّرت نظرتهما إليّ. انقطعت الثقة بيننا. هما يحاولان عدم إظهار ذلك، لكنّني أعرف. هما خائفان منّي وهذا أمرٌ لا يُطاق.

رفضت جوستين أن تلين.

– لا أصدّق أيّ كلمةٍ تقولها.

استعادت تقرير الطبّ الشرعي. قرأت الخطوط الرئيسيّة مرّةً أخرى كما لو أرادت طمأنة نفسها. كانت العصا، الذي حُدّدت

رسميًّا على أنّها تخصّ عائلة ديلوناي قد تفاعَلت مع اللومينول عن طريق التوهّج. وسُحبت عيّنةٌ دقيقة من الهيموغلوبين تطابقت مع التوصيف الجيني لأوريانا. صحيحٌ أنّ التقرير كان يصف عيّنةً ملوّثة، دمًا جافًّا، ومخفّفًا، غير أنّ هذا كان طبيعيًّا بعد مرور عامٍ على الأحداث. بغية تشويشه أكثر، قرّرت جوستين أخذ ديلوناي على محمل الجدّ.

– ما الدليل الذي لديك على ما تقول؟

ظهر ديلوناي يدقّق في السؤال كما لو أنّه لم يفكّر فيه من قبل.

– بائع السجائر الذي اشتريتُ منه البطاقة المسبقة الدفع للاتّصال بكم، سوف يتعرّف إليّ بالتأكيد.

صحّحت له:

– استجوبناه مرّتين أمس. يبيع الرجل هواتف تُستخدم مرّةً واحدة وبطاقات SIM لزبائن مشبوهين يفضّل أن ينسى وجوههم.

– لا بدّ أنّني أظهر على أشرطة فيديو المراقبة في الشوارع المحيطة.

– يُعدّ حيّ مولان محور الاتّجار بالمخدّرات في نيس. من الواضح أنّ قدمك لم تطأ المكان قطّ. وإلّا لعلمت أنّه لا كاميرا تدوم أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة. ونظرًا إلى تدميرها المتواصل، تخلّت البلديّة عن تركيب أخرى محلّها.

حكّ ديلوناي جبهته.

– يمكنني أن أعطيكِ الاسم الموجود على بطاقة الهويّة المزيّفة التي استخدمتها لشراء الهاتف.

– سبق أن تسرّبت هذه المعلومة إلى الصحافة، والجميع يعرف هذا الاسم. هل احتفظت بالبطاقة؟

– لا، في الحقيقة تخلّصتُ منها. حتّى لا تجدوها أثناء التفتيش.

ضربت جوستين بقبضتها على الطاولة.

– هذا يكفي! منذ أمس وأنت تستخفّ بعقولنا! ما إن تواجه صعوبةً حتّى ترتجل سلسلةً من الأكاذيب. في البداية، أقررتُ بأنّك تمتلك بعض الموهبة، لكنّ هذا صار هراءً!

أغلقت شاشة جهاز الكمبيوتر وتابعت:

– سأخبركَ برأيي، سيّد ديلوناي. أفهم أن تقع النساء في غرامك. لديكَ سحرٌ خاصّ، هذا صحيح. شيءٌ يصعب تحديده. قد يكون الحَوَل الطفيف في عينك، أو قصّة شعرك كمراهق. ربّما مشيتك اللامبالية أو هذا الانطباع الذي تعطيه بأنّك إلى حدٍّ ما في مكانٍ آخر. باختصار، ينجح الأمر جيّدًا.

نهضت جوستين من مقعدها لتجلس على زاوية الطاولة. لامست ساقيها ساق المشتبه فيه لدرجةٍ أربكته.

– ومن ثمّ، عندما تركّز انتباهك علينا، لا يسعنا إلّا أن نشعر بالإطراء. هذا غباء، لكن هكذا هي الحال، رغم أنّك في الأساس لست مختلفًا عن الكثير من الرجال الذين أقابلهم من حولي والذين حفظتُ عباراتهم عن ظهر قلب.

– ماذا تقصدين؟

– أنت تعرف جيّدًا: رجالٌ يردّدون أنّهم يريدون «أن يتحرّروا، لأنّ لديهم حياةً واحدة فقط ليعيشوها». رجالٌ يغلّفون تبريراتهم دائمًا بخطاباتٍ نفسيّة تتمحور حول أزمة الأربعينيّات أو الخمسينيّات من العمر.

لم يحاول ديلوناي الاعتراض حتّى.

– قلقٌ وجودي من أن تفوّت حياتك. الخوف من فقدان الرغبة، والذكورة، وفي نهاية المطاف، وسيلة لدرء الموت.

هزّ عازف البيانو كتفيه:

– أعتقد أنّكِ تصوّبين إلى مسألةٍ شخصيّة هنا، أيّتها القائدة.

لم تكن جوستين تنصت إليه. عجزت عن سماع ما يقول. فقدت أعصابها، ووجّهت إليه إصبعها مهدّدةً. قنبلةٌ موقوتة بكلّ ما للكلمة من معنى.

– هذا مبرّرك، أليس كذلك؟ الخوف من الموت. ادّعاءٌ نبيلٌ وراقٍ، وحتّى شهم. سوف تغمس قضيبك في مهبلٍ شابٍّ لمجابهة الموت الذي يزحف من كلّ صوب. «أريد أن أشعر بأنّي على قيد الحياة من جديد، وأنّي الحامي، وأنّي مرغوب، وأن أختبر أحاسيس قويّة، أتفهمين؟». اذهبوا جميعكم إلى الجحيم!

أعقب الضجيج صمتٌ طويلٌ جدًّا. صمتٌ غير مريحٍ وقاسٍ كصداع ما بعد الثمالة.

ثمّ ظهر بويغرونييه وكانديس لاشوم في الغرفة مطلقَين صافرة نهاية وقت اللعب.

20

أوريانا دي بييترو
انتقام الواقع

«بإمكانك تجاهل الواقع، لكن ليس بإمكانك تجاهل عواقب ذلك».

آين راند

5 مايو/أيّار 2023

.1

خليج كان

سماءٌ زرقاء موشّحة بالغيم كأنّها مرسومةٌ بالريشة، أمواجٌ فضّية، ظلال طيورٍ كأنّها من لوحات جورج براك. عدّلت أوريانا المقعد لتحويله إلى كرسيّ للتشمّس، جالسةً على السطح. ومن هذا الموضع المرتفع، احتضنت المشهد بأكمله: جزيرتا سانت-مارغريت وسانت-أونورا، وسلسلة جبال إستيريل، والأفق اللازوردي المذهل.

أغمضت عينيها مستسلمةً لتخبّط الأمواج المنتظم، في محاولةٍ لتصفية ذهنها وتحرير نفسها من اضطرابها.

كانت قد وصلت قبل ثلاث ساعات على متن رحلةٍ جويّة من ميلانو. ما إن هبطت الطائرة في نيس حتّى تواصلت مع الكابتن في

الميناء طالبةً منه الإبحار بقارب لونا بلو. توجّهت مباشرةً من المطار إلى مدينة كان من دون أن تعرّج بالمنزل. كانت بحاجةٍ إلى الهدوء والعزلة لتتمكّن من تقييم عواقب القرار الذي أوشكت أن تتّخذه.

سوف تخبر زوجها بكلّ شيء: ورمها، وشفائها، وكذبتها، وخطئها، وخدعة أديل. الخوف الذي باتت هذه الفتاة تسبّبه في نفسها. والمخاوف التي أضمرتها من أجل سلامة عائلتها. سوف تضع ضغينتها جانبًا وتطلب منه السماح. سوف تعترف بأنّها المسؤولة الوحيدة عن هذا الوضع. ثمّ أخيرًا، سوف تطلب مساعدته لإخراج أديل من حياتهما إلى الأبد، فتعود الحياة كما كانت عليه في السابق.

على الأقلّ، هذا ما كانت تأمله.

.2

كاب دانتيب

سلك بيرند شولزر الدرب الساحلي المتعرّج على طول كاب دانتيب سيرًا على الأقدام. كان المدخل المواجه للشاطئ والمؤدّي إلى منزل دي بييترو مسوّرًا بسياجٍ عالٍ، لكنّه تسلّق الصخور واجتاز الجسر العائم من دون صعوبةٍ كبيرة. ومن هناك، قفز فوق البوّابة التي تفتح على لوحٍ خرساني مصبوبٍ في الصخر.

كان مأوى القارب متوافقًا مع الاستطلاع الذي قام به بواسطة طائرته المسيّرة. بيتٌ ريفي كبير مصنوع من ألواحٍ خشبيّة بطلاءٍ مقشّر. لم يصمد قفل الباب أمام مفتاحه الهيكلي سوى بضع ثوانٍ. في الداخل، وسط الأدوات، والحبال، وشباك الصّيد، رأى زورقًا من نوع Marshall M2 لونه أسود وفرشه أحمر. كان النموذج الأصغر في فئته: طوله خمسة أمتار وعرضه متران. فحص مستوى الوقود ثمّ أنزله في الماء باستخدام الرافعة. كان الزورق المطّاطي خفيفًا، والعمليّة

سهلة، إذ حجبت صرخات طيور النورس الضجيج وشتّتته الرياح التي هبّت في نهاية فترة ما بعد الظهر.

خرج القارب من كاب دانتيب بوتيرة بطيئة باتّجاه جزر ليرين. تلذّذ شولزر تمامًا بمهمّته التي تعطّرت بروائح العطلة: الساحل الأزوري، ورذاذ البحر، وغروب الشمس فوق البحر الأبيض المتوسّط... هبط هذا الاتّفاق عليه من حيث لا يدري. لقد أربكته المرأة التي وكّلته بالمهمّة قليلًا في البداية وخامره الشكّ فيها. ثمّ عندما فتح الظرف ورأى الصورة، ضحك في داخله. دائمًا ما يفاجئه الأثرياء. إنّهم حقًّا مثيرون للشفقة! يمثّلون كلّ فحش العالم وانحطاطه.

قضى شولزر فترة طويلة من شبابه آملًا التخلّص منهم. كان يؤمن بالثورة البروليتاريّة. بفرصة الإطاحة بالنظام من خلال هزيمة البورجوازيّة وقوّاتها المسلّحة: رجال الشرطة، والسياسيّين، والقضاة. لكنّ الرأسماليّة تحوّرت كي لا تموت. وتقدّم هو في السنّ. ومع غزو الشيب لشعره، انتقل من ياقة ماو إلى قميص بولو لاكوست. من دون أن يتخلّى كليًّا عن التزاماته السابقة، وضع شولزر نفسه في الاحتياط لأجل القضيّة الثوريّة. على أيّ حال، لم يبقَ لهذا العالم الكثير من الوقت. أزماتٌ مناخيّة، وهجراتٌ جماعيّة، واضطراباتٌ سياسيّة، وأوبئة، وحروب، وجشع... أعمى من لا يرى الانهيار وشيكًا. قريبًا، سوف يُطلَق العرض الأخير للألعاب الناريّة ليجرف كلّ ما في طريقه. كضرسٍ يُقتلع بالكمّاشة. خُراجٌ قيحي ينفجر أخيرًا. عالمٌ يتطهّر من أسوأ أنواع السرطان: الجنس البشري البغيض.

وبانتظار «اليوم الكبير»، لا بدّ من العيش، ودفع الفواتير، وتسديد القرض الذي أتاح له شراء منزله الصغير في سانت-مارين. هذا من دون احتساب تكلفة أعمال التجديد، وصيانة المسبح، والوقود لسيّارتَي اللاند روفر والرينو-4. ولكي يحافظ على نمط حياته،

كان يقبل بثلاثة أو أربعة عقود في السنة. ويتحلّى في تنفيذ عمليّاته بشكلٍ من أشكال الضمير المهني، فكانت الصحافة تفيض بمقالات تتحدّث عن تحوّل الجريمة إلى خدمةٍ رقميّة متاحة وسريعة، أشبه بخدمات التوصيل. ومن خلال «سحر» تطبيقات المراسلة المشفّرة وشبكة الـ«دارك نت»، تحوّل تجّار المخدّرات الصغار في المدن بين عشيّةٍ وضحاها إلى قتلةٍ مأجورين بتكلفةٍ منخفضة. صِبيةٌ لم يبلغوا أحيانًا سنّ الرشد حتّى، يقتحمون الشوارع، والنوادي الليليّة أو مقاهي الشيشة، حاملين بنادق الكلاشنيكوف، ويفتحون النار عشوائيًّا. هم غالبًا يعملون لحساب شبكات الجريمة المنظّمة وتجّار المخدّرات الكبار. وكان هذا المثال هو النقيض تمامًا لما يبحث عنه زبائنه، إذ يفضّلون العمل على الطريقة التقليديّة، المتأنّية والمُتقنة والمدروسة. وفي هذا المجال... لم يكن له منافس.

كانت الساعة 7:40 مساءً عندما بلغ الزورق المطاطي وسط جزيرتي ليرين، في نقطة المياه الفيروزيّة التي كان يرسو فيها قارب لونا بلو. خفّف من سرعته قدر الإمكان، وارتدى بدلة الغوص متردّدًا في الغطس، لكنّه قرّر في اللحظة الأخيرة تسهيل الأمر وإرساء الزورق عند مؤخَّر اليخت، لأنّ التعليمات نصّت على وجوب رفع مرساة قارب لونا بلو قبل مغادرته، ولا يمكنه المخاطرة بصعوبة العودة إلى متن الزورق المطاطي.

.3

كان الاسترخاء مستحيلًا. شعرت أوريانا بقلقٍ يستشري في داخلها. ثمّة خطبٌ ما. خلعت نظّارة الشمس وسمّاعات الإير بودز. كان الجوّ باردًا. اكفهرّ لون البحر المتوسّط كما لو امتزج بالزئبق. أخذت الأمواج في الاتّساع وطاف في الجوّ المشحون نذير مأساةٍ وشيكة.

نهضت من مقعدها والتفّت بالـ«باريو». كانت تشعر بوجود أحدٍ من حولها. تهديدٌ غير مرئيٍّ جعلها تندم على عدم إحضار ربّانٍ أو حارسٍ شخصي معها.

نزلت إلى الجسر السفلي لتفقّد داخل المقصورة، ثمّ قامت بجولةٍ حول اليخت، ملقيةً نظرةً عبر النوافذ الممتدّة على طول هيكل القارب. لم تلمح أحدًا، لكنّها لم تطمئنّ.

من هنا؟ أدريان؟ الطفلان؟ تلك السافلة أديل كيلر؟

سرت قشعريرةٌ باردة في جسدها. توقّفت في الجزء الخلفي من القارب، وشرعت تحكّم عقلها، متسائلةً مرّةً أخرى: من الذي يثير خوفها هكذا فجأة؟ أجبرت نفسها على التنفّس بعمقٍ لطرد الهلع الذي كان ينهش أحشاءها.

لكنّ الهواء خلا من الأكسجين. صار الجوّ دبقًا، وكلّ نفسٍ ثقيلًا وخانقًا، يغرز فيها ويلتصق بعظامها.

استدارت من جديد. كان أحدٌ يراقبها فعلًا. يتقدّم رويدًا رويدًا، على وشك أن يلامسها.

انحنت نحو الممرّ المفضي إلى منصّة الاستحمام، فلمحت زورقًا مطاطيًّا راسيًا على القارب بجوار المنصّة الهيدروليكيّة.

هذه المرّة، لم تستطع كبح صيحتها.

لم تكن مجنونة. ثمّة شخصٌ على متن القارب!

شعرت بنبضات قلبها تتسارع. قرّرت العودة إلى السطح، لكن، لسرعة اندفاعها، فاتتها درجةٌ من السلّم وسقطت على الجسر. نظرت إلى أعلى فرأت كتلةً سوداء تحجب عنها الشمس. هيئةٌ بشريّةٌ تنتصب فوقها، مرتديةً بدلة غوصٍ سوداء من النيوبرين. كان الشخص ممسكًا بعصًا معدنيّة. كان رأسه ملفوفًا بقناعٍ قماشي، لكنّها تمكّنت من رؤية جزءٍ كبيرٍ من وجهه.

ما إن تعرّفت أوريانا إلى ملامح مهاجمها حتّى استولى عليها الخوف وأدركت أن لا جدوى من المقاومة.

4.

لم يكن بيرند شولزر يحبّ أن تطول الأمور أكثر من اللازم. عندما يقتل، لا يكون يشعر بتفوّق، ولا بنقص تعاطفٍ أو شفقةٍ تجاه ضحيّته. لكنّ العمل يجب أن يُنجز، هذا كلّ ما في الأمر. لقد تعلّم أن يبقي عواطفه جانبًا، وألّا يتأثّر بمنظر الدم، والصراخ، والمعاناة، وكلّ هذا التهويل العاطفي. منذ مراهقته وهو مقتنع بأنّ ظهور الإنسان على الأرض لم يكن نتيجة غايةٍ أو هدفٍ في تطوّر الحياة، بل محض صدفةٍ وظرفٍ عابر. البشر يبالغون في تمجيد أنفسهم، لكنّهم ليسوا أرقى من سواهم على سلّم الكائنات الحيّة. الإنسان، في نظره، مجرّد فصلٍ متعجرفٍ في كتاب التاريخ... وكان على وشك الانتهاء.

هذا أوّل ما فكّر فيه عندما وجّه ضربته الأولى إلى رأس أوريانا، لتسقط الثانية على رقبتها من دون منحها فرصةً للصراخ. فقدت وعيها وسالت بقعةٌ من الدم على جسر القارب.

واثقًا بأنّها ماتت، انحنى شولزر نحوها. حينئذٍ، رأى الساعة. ساعة باتيك رائعة من الذهب الوردي بإطارٍ مرصّعٍ بالماس. كانت الساعات إحدى نقاط ضعفه، إحدى نزواته، وتنازلاته الصغيرة أمام العالم المادّي. قال لنفسه إنّه يستحقّ مكافأةً صغيرةً أصلًا، وفكّ الجوهرة عن معصم صاحبتها. على أيّ حال، لن تحتاج البرجوازيّة بعد الآن إلى القلق بشأن الوقت والمواعيد.

في السماء، أطلقت طيور النورس ذات الريش البلّوري صيحاتٍ حادّة.

الجزء الرابع

الأُخرى

21

جوستين تاياندييه
حيث بدأ كلّ شيء

«أخطر الأوهام أن نعتقد بأنّ الحقيقة واحدة. الواقع أنّ للحقيقة أوجهًا مختلفة، وبعض هذه الأوجه قد يكون متناقضًا».

بول واتزلاويك

السبت 25 مايو 2024

بيوت

.1

ما إن أدركت درب ليه ڤيناس حتّى استدارت جوستين فجأةً متّجهةً نحو القرية. كان الاختلاء بنفسها في ذلك المنزل بعد ما حدث للتوّ فكرةً سيّئةً للغاية. إذا عادت الآن، فسوف تبلع كؤوسًا من الفودكا وتجرع حبوبًا من الليكسوتانيل لتتخدّر إلى حدّ الانهيار. وشعرت بأنّها هذه المرّة قد لا تتعافى. أعماها وميضٌ للحظة: صورة جسدها معلّقًا بحبل، يتأرجح في بيت الدرج.

شعرت بهشاشةٍ أكبر من أن تتمكّن من البقاء بمفردها. لا ينبغي لها أن تتقوقع في المنزل حيث ستلتهمها شياطينها. ولكن إلى أين تذهب؟

أمّي.

ومن غيرها...

اجتازت مدخل بيوت، ثمّ انعطفت يسارًا بعد دار البلديّة وتوجّهت إلى منزل العائلة. أمام الفيلّا، تردّدت في قرع الجرس. جالت حول المنزل ثمّ دخلت من الباب الزجاجي الذي لم تفكّر والدتها في إغلاقه.

غير معقول.

نظرةٌ سريعة داخل الغرفة. بعد عودتها من المستشفى، أوت ماتيلد تاياندييه إلى الفراش ونامت كطفلٍ رضيع. تأكّدت جوستين من أنّها تتنفّس بشكلٍ طبيعي وحرصت على عدم إصدار أيّ صوت. كما خلال سنواتها الدراسيّة، استقرّت أمام حاسوبها على طاولة المطبخ، بعدما وضعت بعض الماء للتسخين. بقدر ما تتذكّر، لم تعمل قطّ في غرفتها أو في مكتب. خلال السنتين التحضيريّتين في الأدب والفلسفة في مدرسة ماسينا الثانويّة، أمضت لياليها في كتابة أطروحاتها ومراجعة ملاحظاتها على هذه الطاولة نفسها. ذكرياتٌ مختلطة بقيت لها عن تلك السنوات الشاقّة: لا شكّ في أنّها اكتسبت الانضباط هناك، غير أنّها كرهت الأجواء ومعظم الطلاب. حتّى إنّها افترت على نفسها بسبب عدم قدرتها على التحمّل. كانت خطّتها الأساسيّة الالتحاق بمدرسةٍ متخصّصةٍ بالتراث، كمدرسة اللوفر، أو أفضل، كمدرسة شارت، لتصبح مرمّمة أعمالٍ فنّية. لكنّ المرحلة التحضيريّة أنهكتها. فاستسلمت وتنازلت عن حلمها لتنضمّ إلى أوغاد كلّيّة الحقوق.

ومع إكمالها السنة الأولى من الدراسات التحضيريّة، بدت لها سنوات الدراسة الجامعيّة والاختبارات التنافسيّة للوظائف الحكوميّة سهلة. اجتازت العديد من الاختبارات واختارت الالتحاق بأكاديميّة

الشرطة في لحظة عفويّة. في البداية، كانت متحمّسةً لعملها، لكن سرعان ما اصطدمت بالواقع. كان النظام البوليسي والقضائي على طريق الانهيار: جامدًا، ومترهّلًا، ومكلفًا، وغير فعّال. وكان يُطلب من أفراد الشرطة كلّ شيء ونقيضه. ثمّ حوّلت جوستين طاقتها نحو صراعات السلطة الداخليّة للوصول إلى منصب قائدة الشرطة، ورئيسة فرقة مكافحة الجرائم في نيس. «مركزٌ رائع»، كما تقول والدتها، لكنّها حصلت عليه تلقائيًّا تقريبًا، من دون أن تؤدّي دورًا حاسمًا في أيّ تحقيقٍ بارز. إلى أن أدّى مقتل أوريانا دي بيترو إلى رميها أخيرًا في قلب قضيّةٍ جنائيّة كبرى. ولسوء حظّها، أتى ذلك في فترةٍ من حياتها كانت فيها محطّمةً لدرجة أنّها عجزت عن حلّها. جاءت الفرصة المُنتظرة أخيرًا... لكنّها لم تكن قادرةً على التقاطها. هكذا هي الحياة... آه من الحياة.

سحبها صوت الغلّاية من أفكارها. نهضت عن مقعدها لتحضّر لنفسها فنجان شاي. وجدت في الخزانة شريحتين من الكعكة الإنكليزيّة التي تحبّها منذ صغرها. كعكة بروسارد اللذيذة مع كرز بيغارو المغطّى بالسكّر والزبيب. «لحظة المادلين» الخاصّة بها، كما وصفها بروست! أكلتها من دون الشعور بالذنب – لم يكن اليوم المناسب لتبدأ حميةً غذائيّة – واستمتعت بتكامل سكّر الحلوى مع مرارة الشاي الأخضر الذي راحت تشربه في رشفاتٍ صغيرة. فتحت صفحة الأخبار وهي تبعث برسالةٍ نصّية إلى بيرغومي، ثمّ تصفّحت المقالات لبضع دقائق، بنيّة العثور على مقالةٍ صحافيّة تبادرت إلى ذهنها أثناء الاستجواب. لقد شعرت بالأمان هنا، في منزل طفولتها، حيث والدتها تنام بالقرب منها وغرفة المعيشة تعبق برائحة زنبق الوادي التي تفوح من الشمعة المعطّرة بالأزهار.

ما هي إلّا دقائق قليلة حتّى استعادت قواها. للأكل المريح وأجواء الدفء والاحتواء في عزلة المنزل قدراتٌ عجائبيّة. ماذا لو لم يكن كلّ شيءٍ انتهى بعد؟ ماذا لو أنّ الحقيقة في هذه القضيّة لا يمكن أن تنجلي إلّا على الأرض، لا في غرفة الاستجواب؟ استعادت شرارةً صغيرةً من روحها القتاليّة إذ أعجبتها فكرة اللحظات الميدانيّة الحاسمة: في الدقائق الأخيرة من مباراة كرة السلّة، أيّ تحرّك أو قرار قد يغيّر مصير اللعبة.

.2

عادت إلى شاشتها. كان عليها، بغية إحياء النار تحت الرماد، أن تبدأ من جديد وترجع إلى ما اعتبرته دومًا مصدر هذه القضيّة: اللقاء بين أدريان وأوريانا. وجدت المقالة التي كانت تشغل فكرها على موقع نيويورك تايمز. كانت مقابلة مع أدريان ديلوناي من عام 2017. حديثٌ طويلٌ أجراه معه صحافي يدعى إيفِري بايل. هذه بلا شكّ المقابلة الأكثر شموليّةً التي قرأتها لديلوناي. نموذجٌ لأفضل ما يمكن أن تنتجه الصحافة الأنكلوسكسونيّة على الطراز القديم. نقاشٌ صريحٌ ومتوازن، من دون مجاملة، لكنّه دائمًا في محلّه. انخرط ديلوناي في الحديث كما لم يفعل من قبل، مستحضرًا بشكلٍ مباشر صدمة وفاة والدته، والعلاقة المعقّدة مع والده، وغوصه المظلم في عالم المخدّرات ومعركته مع الإدمان. وجدت جوستين المقطع الذي أرادت إعادة قراءته. بضعة أسطر تحدّث فيها عازف البيانو عن «رحلة إعادة التأهيل في سويسرا» ولقائه الأوّل «في لوغانو» مع المرأة التي أصبحت بعد ذلك زوجته.

عبست جوستين. لم تخنها ذاكرتها. من الواضح أنّ ديلوناي التقى بزوجته أثناء وجوده في مركز إعادة التأهيل. ولكن كيف كان

هذا ممكنًا؟ ماذا كانت تفعل أوريانا في سويسرا في الفترة نفسها؟ هل كانت هي أيضًا تُعالَج من إدمان المخدّرات أو الأودية؟ كانت جوستين قد خطّطت لطرح السؤال على ديلوناي أثناء احتجازه لدى الشرطة، لكن لم يتسنَّ لها الوقت للقيام بذلك. في نهاية المقال، كُتب البريد الإلكتروني وحساب X الخاصّ بالصحافي. من دون أن تعقد آمالًا كبيرة، أرسلت جوستين رسالة إلى إيفِري بايل مع تفاصيل التواصل معها.

حضّرت لنفسها فنجان شاي جينمايشا أخضر آخر فيما كانت لا تزال غارقةً في التفكير. لوغانو... لم تطأ قدمها سويسرا من قبل، لكن تردَّدَ اسم المدينة في أذنيها بشكلٍ مألوف. ظهر أمامها منذ وقتٍ ليس ببعيد. ولكن أين؟ جلست أمام شاشتها مجدّدًا واتّصلت بخادم الويب المشفّر الخاصّ بالشرطة القضائيّة حيث تُحفظ كلّ المستندات الرقميّة الخاصّة بالقضيّة. كان الملفّ ضخمًا، لكن يسهل البحث فيه عن طريق إدخال الكلمات الرئيسيّة. ما إن كتبت كلمة «لوغانو» حتّى قدّم لها الجهاز ما كانت تبحث عنه. تقع لوغانو في منطقة تيتشينو التي رُصد فيها هاتف أوريانا المحمول مرّاتٍ عدّةً في الأشهر التي سبقت وفاتها. حتّى إنّها ذهبت إلى هناك قبل ثلاثة أيّام من الاعتداء عليها. لكن ماذا يعني ذلك؟

وهي غارقة في أفكارها، رنّ هاتفها. بيرغومي. أخذت المكالمة ونبّهت مساعدها قبل أن يطرح السؤال المُتوقّع:

– لقد فقدتُ أعصابي واستُبعدتُ من جلسة الاستجواب.

لم يظهر الشرطي دهشةً كبيرة. تابعَت:

– هل أحرزتَ أيّ تقدّم في مسألة أديل؟

– باشرتُ تحقيقاتٍ استقصائيّة، وأنا في انتظار بعض الأجوبة.

– ممم... يعني أنّك لا تملك شيئًا.

– اسمعي، كان ديلوناي حريصًا للغاية. لقد قسّم حياته إلى أجزاء. واضحٌ أننّا لن نجد عشيقته بهذه السهولة. لكنّني لم أجلس مكتوف اليدين.

سمعت جوستين في الخلفيّة همهمة حركة المرور.

– أنت في السيّارة؟

– على الطريق السريع حول غرونوبل.

– للذهاب إلى أين؟

– أتعرفين بندقيّة تشيكوف؟

ارتبكت جوستين واحتاجت إلى لحظة كي تتذكّر معنى العبارة التي أعادتها إلى صفوفها التحضيريّة في الأدب. آه، صحيح!

– نعم، هذه قاعدةٌ في الأدب الدرامي تنصّ على أنّه إذا وضع المؤلّف سلاحًا في المشهد في بداية روايته، فمن الضروري أن تستخدمه إحدى الشخصيّات قبل نهايتها. صحيح؟

– برافو. وإذا قمنا بتطبيقه على مهمّتنا، فسوف نحصل على شيءٍ من هذا القبيل: عندما يظهر مبلغٌ من المال في بداية تحقيق الشرطة، من المؤكّد أنّه سيظهر من جديدٍ في النهاية.

كانت جوستين دائمًا تصغي إلى حدس مساعدها، لكنّها لم تفهم على الفور ما الذي كان يشير إليه.

– فيمَ تفكّر؟

– أمعني التفكير.

– وفّر لنا بعض الوقت، من فضلك!

– المحاسب! جان-كلود زيغلر.

كانت هذه الحادثة مبهمةً في ذهن جوستين، لكنّها تتذكّر النقاط الرئيسيّة. في بداية التحقيق، أوقفت الفرقة الماليّة مستشارًا لعائلة دي بيترو. رجلٌ يُدعى جان-كلود زيغلر اعترف أمام المحكمة

بتحويل مبلغ 300 ألف يورو من حساب الوريثة لمصلحته الخاصّة. وهي مخالفة لا تبدو على صلةٍ بالاعتداء على أوريانا. حاولت جوستين استجوابه، لكنّ زيغلر كان مواطنًا سويسريًّا. لم يستجب قطّ لطلبها ولم تملك أيّ وسيلةٍ لإجباره على القيام بذلك.

–لاحقتُه مجدّدًا اليوم، واحزري ماذا؟ وافق على مقابلتي في نهاية النهار.

– في سويسرا؟

– نعم، في مونترو، في منزله. وهذا يؤكّد صحّة نظريّتك: إنّ التغطية الإعلاميّة لاحتجاز ديلوناي لدى الشرطة تحثّ الناس على محاولة الخروج من دائرة الاشتباه.

فتحت فمها لتردّ، لكنّ رقمًا دوليًّا ظهر على شاشتها.

– لديّ مكالمةٌ ثانية. نتحدّث لاحقًا.

.3

مكتبة
t.me/soramnqraa

ربّما الصحافي الأميركي؟

فتحت الخطّ.

– نعم؟

– Hi, I'm Avery Bale. I just received your message.

لقد أساءت جوستين الفهم. كان اسم إيفِري مشتركًا بين الإناث والذكور، والصحافي كان في الواقع صحافيّة. بعدما تبادلت المرأتان أطراف الحديث الاعتياديّة، دخلتا في صلب الموضوع. كانت إيفِري بايل تعرف ديلوناي جيّدًا لكن لا تجمعها به علاقةٌ مقرّبة. وكانت قد كتبت منشوراتٍ ومقالات صحافيّة عدّة عن أحدث إصدارات ألبوماته. شعرت جوستين بأنّ المرأة الأميركيّة كانت حذرةً في

كلامها وقلقةً في الوقت نفسه على أدريان. فطمأنتها الشرطيّة بأنّها تحاول تبرئته فقط. لم تكن متأكّدة من أنّها صدّقتها، غير أنّها بقيت على الخطّ.

في الوقت نفسه الذي كانت تدردش فيه، راحت جوستين تتصفّح الإنترنت على حاسوبها. أطلقت بحثًا عن «إيفِري بايل نيويورك تايمز» أظهر صورًا عدّة للصحافيّة. خمسةٌ وثلاثون عامًا، وجهٌ بيضوي، شعرٌ أسود طويل أملس يُبرز عينيها الفاتحتين. مظهرها أنوثي ناعم، ولبسها أنيقٌ وراقٍ: وشاحٌ مربّع من الحرير، حقيبة كابوسين، معطفٌ بحزام وياقة متقاطعة. «كما لو كانت خارجةً من مجلّة أزياء»، كانت ستقول والدتها.

– كما شرحت لكِ في رسالتي الإلكترونيّة، أحاول فهم بعض التفاصيل بعد قراءة مقالكِ.

– تفضّلي، لقد حضّرتُ دفتر ملاحظاتي الذي استخدمتُه في تلك الفترة قبل أن أتّصل بكِ. ها هو أمامي.

– أتعرفين أين ذهب أدريان من أجل إعادة التأهيل؟

– ذكرتُ ذلك في المقالة، أليس كذلك؟ إلى سويسرا، لوغانو.

– ولكن في أيّ مركزٍ بالتحديد؟

ساد صمتٌ فيما راجعت الصحافيّة ملاحظاتها.

– مركز كارل-جاسبرز الطبّي.

– وهناك التقى بأوريانا؟

– نعم، هكذا فهمت.

– لكن ماذا كانت تفعل هناك؟

– أوريانا كانت في قسمٍ آخر من المستشفى. كانت تخضع لعلاج الآثار المتأتّية من حادث سيّارةٍ تعرّضت له.

تحقّقت جوستين من تاريخٍ في الملفّ وأرسلت على الفور رسالةً إلى بيرغومي الذي كانت لديه معرفةٌ موسوعيّة به: «أتعرف ما إن كانت أوريانا التحقت بمركز كارل-جاسبرز الطبّي في لوغانو؟». ردّ معاونها مباشرةً: «ليس لديّ معلومات». أصرّت جوستين: «متى تعرّضت لحادث السير؟» بيرغومي: «عندما كان عمرها 6 أو 7 سنوات».

عادت جوستين إلى إيفِري بايل.

– هل يعود لقاء أدريان وأوريانا إلى عام 2003؟

– أعتقد ذلك.

– كم كان عمر أوريانا في ذلك الوقت؟ حوالي عشرين سنة؟

– صحيح.

– تعرّضت لحادث السيّارة عندما كانت في السادسة من عمرها. ماذا كانت تفعل في هذا المستشفى بعد خمسة عشر عامًا؟

لم تعرف الصحافيّة ولم تفهم كيف يمكن لهذه المعلومة أن تساعد أدريان.

– هل كان ديلوناي يخون زوجته؟ سألت جوستين، وهي تشعر بأنّ نهاية المكالمة اقتربت.

– ليس معي على أيّ حال، وصدّقيني، ليس لأنّني لم أحاول.

أعجبتها صراحة الصحافيّة.

– هل سمعتِ يومًا عن امرأةٍ تُدعى أديل كانت ربّما تربطه بها علاقة؟

– المغنّية؟ أنا أمزح. لا، لا أدري.

شكرتها جوستين قبل أن تغلق الخطّ.

بقيت للحظة بلا حراك أمام شاشتها، تستعرض كلّ هذه المعلومات الجديدة التي كانت بمثابة أسئلةٍ بلا أجوبة. لمست لوحة التعقّب الخاصّة باللابتوب لإيقاف خلفيّة الشاشة المتحرّكة.

دخلت على موقع Google Flights. تقلع طائرة من نيس في الساعة 2:40 بعد الظهر لتصل بعد ساعة إلى جنيف. نظرت إلى ساعتها. الوقت ضيّق، لكن يكفي. شرط أن تغادر حالًا. دفعت ثمن تذكرتها على موقع EasyJet، وأخذت مفاتيح سيّارتها وآخر قطعة من الكعكة لتأكلها على الطريق.

كانت قد أصبحت في الطريق عندما اتّصلت ببيرغومي.

– أتعلم؟ سأصل إلى جنيف في الوقت نفسه الذي تصل فيه تقريبًا. تعال لتقلّني من المطار. سنذهب معًا إلى مونترو لرؤية زيغلر، وبعد ذلك، أودّ التوجّه إلى مركز لوغانو الطبّي.

22

جوستين تاياندييه
الفرص الضائعة

«في عقلنا غرفة صغيرة نخزّن فيها ذكرى كلّ فرصةٍ ضائعة».

هاروكي موراكامي

اليوم نفسه

سويسرا، كانتون فود

.1

انطلق بيرغومي بسيّارته البورش 911 مسرعًا بمواجهة الشمس على الطريق المؤدّي إلى مونترو.

– لقد سلكنا الطريق الخطأ، قالت جوستين وهي تتفحّص شاشة الجي بي أس على هاتفها.

– لا، لا، أكّد لها بيرغومي. أظنّ أنّنا على وشك أن نصل.

أنزل حاجب الشمس لئلّا يبهره الضوء، وسلك على نحوٍ غريزي تقريبًا الدرب الذي يفتح على الطريق الرئيسي من جهة اليسار.

انبسطت على مدّ البصر غابةٌ من أشجار الصنوبر كمحيطٍ أخضر زمرّدي بدا كأنّه ينبثق من أعماق الأرض. ومع المرور السريع للسيّارة،

كانت أشجار الدوغلاس تتنحّى في اللحظة الأخيرة عن الطريق لتفسح له المجال للتقدّم.

انشغلت جوستين مجدّدًا بالآيفون. كانت قد وجّهت رسائل نصّية إلى بويغرونييه والعمراني تسأل عن أجواء استكمال جلسة الاستجواب، لكنّ أيًّا منهما لم يردّ عليها. تأكّدها من أنّها أُخرجت من اللعبة زادها تصميمًا على التقدّم في التحقيق لوحدها. على متن الطائرة، بحثت في كلّ المقالات التي تمكّنت من العثور عليها عن جان-كلود زيغلر، وسجّلت العديد من الملاحظات، متنقلةً بين مفاجأة وأخرى.

الاكتشاف الأوّل: لم يكن زيغلر أبدًا مجرّد محاسبٍ مبتدئ كما وصفته الصحافة الفرنسيّة. لمدّة ثلاثين عامًا، كان السويسري بمثابة العقل المدبّر لكارلو دي بييترو، والد أوريانا. عمل كمحاميه وأقرب مستشاريه، وكُلّف مباشرةً بمصالح العائلة الماليّة. كان رجل الظلّ الذي رافق دي بييترو في تطوير مجموعته. أشاد الجميع بذكاء زيغلر الشديد وتمكّنه من القانون الأوروبي. قاد الـ«Architetto»، أو المهندس، كما كانوا يلقّبونه، كلّ الترتيبات القانونيّة التي سمحت للإيطالي بتوسيع مجموعته عن طريق الاستحواذ على شركات أخرى. سيرة لا تتطابق على الإطلاق مع تهمة الاختلاس بقيمة 300 ألف يورو. كان جان-كلود زيغلر مليارديرًا. فما دافعه وراء تحمّل كلّ تلك المخاطر من أجل مبلغٍ يُعدّ زهيدًا مقارنةً بثروته؟ خلال المحاكمة، بالكاد دافع عن نفسه، مدّعيًا الجشع و«انتهاز الفرصة». وحُكم عليه بغرامةٍ وعقوبة سجنٍ مع وقف التنفيذ، فقبِل الحكم من دون استئناف. ثمّ انسحب من الشركة، مخليًا الساحة لمنافسه الشابّ أزيليو كابيتشي. فلمَ شعر اليوم بالحاجة للعودة إلى تلك الحادثة؟

عند أحد المنعطفات، سلكت سيّارة البورش طريقًا ضيّقًا، وناورت للسماح لسيّارة قادمة بالاتّجاه المعاكس بالمرور، ثمّ عبرت جسرًا خلّابًا مغطًّى بالنباتات يفضي إلى بوّابةٍ حديديّة مزوّدة بكاميرا مراقبة.

أطلق بيرغومي صوت البوق مرّتين ففُتحت الأبواب لتكشف عن مسكنٍ تقليدي شُيّد وسط حديقةٍ مشجرة. فيلّا فلورنسيّةٌ صغيرة تشرف على البحيرة وتوفّر مدخلًا إلى جسرٍ عائمٍ خاصٍّ ومرسى.

ركن الشرطيّان السيّارة مباشرةً أمام درجات القصر، أو الـ«palazzo». ما إن وضعا قدميهما على الأرض حتّى راحا يحرّكان رجليهما لتنشيط الدورة الدمويّة. بالنظر إلى هيبة المكان، توقّعا أن يركض كبير الخدم مهرولًا نحوهما، لكنّ الملكيّة بدت هادئة بشكلٍ غريب. فاحت رائحة اللافندر في الهواء. عن قرب، كان المنزل أكثر رهبةً بأروقته المُزهرة المحروسة من مخلوقاتٍ أسطوريّة نُحتت في الرخام. على العشب، في البعيد، وقف رجلٌ يلعب مع كلبين ضخمين – من نوع نيوفاوندلاند باللونين الأبيض والأسود. جسمٌ طويل، وهيئةٌ نحيفة، ولياقةٌ بدنيّة لممثّل متقدّم في السنّ: تعرّفت جوستين على الفور إلى جان-كلود زيغلر، الذي بدا تمامًا كما وصفته الصحافة. تقدّم نحوهما بخطًى هادئةٍ مستقبلًا إيّاهما بلباقة. بعدما عرّفه بيرغومي إلى جوستين، أشار إليهما ليتبعاه داخل حديقةٍ شتويّة توفّر نوافذها نصف المفتوحة إطلالاتٍ جميلةً على البحيرة.

.2

كان الجوّ متوتّرًا، ولكن من غير أن يكون مثقلًا. علمت جوستين ومساعدها أنّهما يسيران على حبلٍ مشدود. بعد محادثةٍ قصيرة، سأل زيغلر عن تطوّرات اعتقال أدريان ديلوناي. كشفت الشرطيّة عن أوراقها.

– لم ينتهِ الاستجواب بعد، لكن يمكن القول إنّ القاضية ستشير في نهايته إلى أنّ الأدلّة تسمح بتوجيه الاتّهام إلى السيّد ديلوناي.

– واحتجازه مؤقّتًا؟

– أخشى ذلك.

تصلّبت ملامح وجه الـ«Architetto» فجأة.

– يساورني قلقٌ شديدٌ تجاه صوفيا وباولو. بعد جريمة القتل الشنيعة التي تعرّضت لها والدتهما، لا يمكنني تصوّر أن يُحرما من والدهما أيضًا.

– أتعرف أدريان ديلوناي جيّدًا؟

بدا زيغلر كأنّه يضبط إيقاعًا معيّنًا بواسطة حذاء الموكاسين في رجله اليمنى التي أسندها إلى ساقه اليسرى، بما يكشف عن بعض التوتّر.

– ليس فعليًّا. التقيتُ به كثيرًا على مرّ السنين، لكنّنا لسنا مقرّبَين. ما أنا متأكّدٌ منه هو أنّه قد أسعد أوريانا وأنّه كان أبًا صالحًا لطفليها.

– لا تظنّ أنّه كان بإمكانه قتل زوجته؟ سأل بيرغومي.

– الله أعلم بما يقدر عليه البشر. «Ira furor brevis est»[1]، يقول القدماء. لكن ليس بقضيبٍ حديدي، لا. لا أظنّ ذلك.

– هل يمكنك تأكيد أنّ ديلوناي أقام علاقاتٍ خارج نطاق الزواج؟

– لا أعرف. لم نكن نتحدّث عن هذه الأمور.

– عمَّ كنتما تتحدّثان بالضبط؟

[1] الغضب جنونٌ قصير.

– كانت لدينا اهتماماتٌ مشتركة: إيطاليا في عصر النهضة المبكر، وموسيقى باخ، وكتاب «Tractatus logico-philosophicus»، ولوحات روثكو وريمان.

تابع وهو يطرد ذبابةً وهميّةً بيده:

– أحبّ موسيقاه أيضًا. من حيث أسلوبه، هو عازف بيانو استثنائي. من الصعب جدًّا الارتجال كما يفعل. ثمّ يجب أن تفهما جيّدًا أنّ أدريان رجلٌ مثقّف، فنّانٌ يعيش في عالمه، يرتاح للمفاهيم أكثر من الواقع. هو ليس رجلًا عمليًّا.

– أتعرف امرأةً تُدعى أديل في محيطه؟

أخذ وقتًا للتفكير، ثمّ:

– لا.

جالت جوستين بنظرها حول الغرفة. بهرتها الأجواء الدافئة للحديقة الشتويّة. في كلّ زاويةٍ تمثال، ونافورة، وجرّةٌ كبيرة يتدفّق منها شلّالٌ من النباتات، فضلًا عن تلك المناظر على بحيرة ليمان وجبل «دينتس دو ميدي».

– أخبرنا المزيد عن حوالة الـ300 ألف يورو، تابعت جوستين. قد يساعدنا ذلك في تبرئة ديلوناي وتجنّب سجنه.

لا إجابة.

– سيّد زيغلر، لماذا وافقت على استقبالنا اليوم؟ سأل بيرغومي.

– لم أبح بالحقيقة في هذا الشأن، اعترف السويسري. سمحتُ باتّهامي بالاختلاس حتّى لا أشوّه ذكرى أوريانا.

استرخى الـ«Architetto» في كرسيّه المصنوع من البروكار الدمشقي.

– جاءت لرؤيتي هنا، قبل مدّةٍ قصيرةٍ من وفاتها. أعرف أوريانا منذ ولادتها. كنتُ أقرب المعاونين لوالدها كارلو. لأكثر من

ثلاثين عامًا، تمثّلت مهمّتي في إدارة كلّ الأمور التي ليس بالإمكان طلبها خطيًا.

سجّلت جوستين هذا التعليق.

– أيّ يومٍ كان ذلك بالضبط؟

عاين زيغلر تقويم هاتفه ووجد التاريخ:

– 2 مايو. قبل ثلاثة أيّامٍ من الاعتداء عليها. ثمّ تابع: «كنتُ لم أرها منذ بضعة أشهر. في ذلك اليوم، وجدتها نحيفةً للغاية، مضطربة، متوتّرة. كانت تتلفّظ بكلماتٍ غير مترابطة، لكنّني فهمتُ أنّها بحاجةٍ إلى 300 ألف يورو نقدًا من دون تأخير.

– من أجل ماذا؟

– حاولتُ معرفة ذلك، بالطبع. فأجابتني: «أحتاج إليها لإنقاذ عائلتي». أصررتُ على سؤالي، لكنّها لم تخبرني بالمزيد.

إنقاذ عائلتها...

– يبدو كأنّه ابتزاز، قال بيرغومي.

– نعم، هذه أوّل فكرةٍ خطرت على بالي. عرضتُ عليها أن أهتمّ بالموضوع. فأنا لديّ طرقي: لقد نزعتُ مرّاتٍ عدّة فتيل حماقات أخيها الغبيّ غير الشقيق أو بعض الحيل الماكرة التي قام بها كارلو.

– ولم تقبل بتفويض الأمر إليك؟

– لا، أرادت التحرّك وحدها. بدت متحمّسةً ومصمّمةً على فكرتها حتّى النهاية. وطلبت منّي ألّا أخبر أحدًا بذلك، مهما حدث. تمكّنتُ من جمع الأموال في ثلاث ساعات عبر القيام ببعض المناورات المحاسبيّة التي لوحقتُ بسببها لاحقًا.

تململت جوستين في كرسيّها. كشف هذا الكلام عن دليلٍ جديدٍ وعكس الأدوار. ماذا لو كانت أوريانا هي من كان لها عشيق؟

– ما موضوع هذا الابتزاز، برأيك؟ خيانة زوجيّة؟

– ذكّرني ذلك فورًا بقضيّة سوزان كلاتن، اعترف زيغلر.

تبادل جوستين وبيرغومي النظرات. كانا يعرفان هذه القضيّة التي تناقلتها الصحافة على نطاقٍ واسع. قبل حوالي خمسة عشر عامًا، وقعت الوريثة الثريّة لشركة بي إم دبليو في فخّ مُرافقٍ استأجرته ووافقت على دفع ملايين الدولارات له. وعندما أصبحت أقلّ سخاءً معه، تحوّل عشيقها إلى مبتزّ وهدّدها بنشر مقاطع فيديو للحظاتهما الحميمة، المصوّرة من دون علمها، وإرسالها إلى زوجها. قرّرت سوزان كلاتن حينئذٍ تقديم شكوى بتهمة الاحتيال، لكنّها لم تستطع تفادي إباحة حياتها الخاصّة في الصحف الشعبيّة.

زمّت جوستين عينيها، متأرجحةً بين الإثارة والإحباط. كانت أصغر خطوةٍ للأمام في التحقيق تثير على الفور أسئلةً أخرى تجعل تفسيرها أكثر تعقيدًا في كلّ مرّة.

– في الأشهر الأخيرة، ندمتُ كثيرًا على عدم استغلال الفرصة لمساعدة أوريانا. أشعر بالندم الشديد لعدم إلحاحي على فهم المشكلة التي كانت تضايقها. ربّما كان ذلك سيمنع وفاتها. ليتي فعلت.

لكنّ «يا ليت» عمرها لم تبنِ بيت...

اخترق صمتٌ رهيبٌ حبيبات الغبار المتراقصة في شعاع الضوء. ثمّ وقف زيغلر بقامته الطويلة، مشيرًا بابتسامةٍ لطيفة إلى أنّه ليس لديه أيّ شيءٍ آخر ليضيفه وأنّ اللقاء قد انتهى.

محافظًا على دماثته، رافقهما إلى السيّارة، ثمّ تبادل مع بيرغومي بعض التعليقات المتخصّصة حول ميزات البورش-911. ناقش الرجلان نظام حقن الوقود، وأسلاك الإشعال، وخراطيم الفرامل، إلى أن قاطعتهما جوستين بالسؤال الملغوم:

– شيءٌ أخير، سيّد زيغلر. أتعرف مركز كارل-جاسبرز الطبي في لوغانو؟

أخرج السويسري سيجارًا من جيب سترته.

– إنّه المستشفى الذي يديره شابوِي.

– شابوِي؟

– البروفيسور فرانسوا شابوِي، الطبيب الذي كان يحظى بثقة كارلو الكاملة والذي رافقه حتّى نهاية حياته، وعالج ابنته أيضًا.

قطع رأس سيجاره الكوبي بأداةٍ من الكروم واقترح:

– يمكنكِ الذهاب لرؤيته من قبلي إذا أردتِ. دعمت مجموعة دي بييترو مشفاه لسنوات. هو رجلٌ فظّ، ليس ودودًا دائمًا، ولكنّه طبيبٌ عظيم.

.3

استغرقت الرحلة أربع ساعات بالسيّارة من مونترو إلى لوغانو، لكنّ جوستين لم تشعر بالوقت يمرّ. بثّت المناظر الطبيعيّة السويسريّة السكون في نفسها. أعطتها أشجار التنوب، والجبال، وأشعّة الشمس الناعمة انطباعًا بأنّها تسير في موقع تصوير دعاية لشوكولاتة سويسريّة. توقّعت أن ترى في أيّ لحظةٍ بقرة ميلكا البنفسجيّة أو مزرعة أجبان أبينزيلير. غفت جوستين بعيد اجتيازهما قرية كوكس، يهدهدها صوت محرّك سيّارة البورش والصمت الغريب لبيرغومي. ها آثار الليلة السابقة تتمكّن من جسدها وعقلها، فضلًا عن ضربة الصباح.

فتحت عينيها على مسافةٍ قريبةٍ من المستشفى فيما السيّارة تسير بأقصى سرعةٍ على خطٍّ ضيّقٍ بمحاذاة بحيرة سيريسيو. سيمفونيّة شوبرت على الراديو، وشعاع شمس الغروب على الزجاج الأمامي. ألوانٌ ناريّة، سماءٌ قرمزيّة، انعكاساتٌ نحاسيّةٌ لاهبة.

وصل الشرطيّان إلى ممرّ طريقٍ مرصوفٍ بالحصى يخدم كموقفٍ لسيّارات الزوّار. تركا السيّارة هناك واتّبعا مسارًا محددًا عبر أشجار الزيزفون والكستناء وصولًا إلى مبنًى حجري قديم أُضيفت حوله لاحقًا هياكل زجاجيّةٌ وفولاذيّة على شكل مجسّماتٍ متعدّدة الأضلاع. كانت ساحة الاستقبال في أحد المباني الحديثة. لم يعلّق جوستين وبيرغومي آمالًا كبيرة. كان مساء السبت والمركز الطبّي يعمل بوتيرته الرتيبة. واحتمال وجود فرانسوا شابوِي في المستشفى ضئيل، فضلًا عن أنّهما كانا في أرضٍ أجنبيّة ومن دون أيّ صفةٍ رسميّة تخوّلهما التحقيق.

تقدّما نحو منصّة الاستقبال حيث جلست امرأةٌ تقرأ كتابًا. أظهرت جوستين بطاقتها وحاولت استخدام النبرة الأكثر ودّية.

– مرحبًا، أنا القائدة جوستين تاياندييه من الشرطة القضائيّة في نيس وهذا الضابط بيرغومي.

أوقفت الموظّفة القراءة ورفعت رأسها، لتكشف لهما عن وجهٍ مبتسم. كانت في الخمسينيّات من عمرها، شعرها قصير أزرق فضّي في تسريحة «بيكسي» – مؤخّرة الرأس محلوقة، وغرّةٌ طويلة تغطّي عينيها الفاتحتين بخطوطٍ خفيفة. في أنفها حلقةٌ معدنيّة، وذراعاها موشومان. كان اسمها مكتوبًا على بطاقة تعريف: ليوني روشيكس.

– نودّ التحدث مع البروفيسور فرانسوا شابوِي، تابعت جوستين.

– لقد جاء هذا الصباح، لكنّه لا يعمل بعد الظهر في عطلة نهاية الأسبوع.

– هذا مزعج، الموضوع مهمٌّ حقًا.

– عليكما أن تجرّبا حظّكما مرّةً أخرى غدًا.

– غدًا يوم الأحد. هل أنتِ متأكّدة من أنّه سيكون هنا؟

– البروفيسور شابوِي يدير المستشفى. وهو موجود هنا كلّ يومٍ من الساعة 8 صباحًا، حتّى يوم عيد الميلاد.

– جيّد.

لم تخفِ جوستين خيبة أملها. أراد بيرغومي أن يكون أكثر عمليّةً، فسأل الموظّفة:

– أتعرفين فندقًا في الجوار بتكلفةٍ معقولة؟

راجعت ليوني شاشتها.

– يمكنكما الإقامة هنا إذا أردتما. لدينا غرفٌ نخصّصها للعائلات عند زيارة المرضى.

– هنا، في موقع المستشفى؟

– نعم، في مبنى الإسطبل القديم.

– الإسطبل؟ حسنًا، هذا مناسبٌ جدًّا لحصانين محراثين مثلنا، قال بيرغومي ساخرًا.

– دعني أتحقّق من الأمر.

أجرت مكالمةً هاتفيّة لترتيب اصطحابهما، وبعد أقلّ من خمس دقائق، كان الشرطيّان جالسَين كلٌّ في غرفةٍ صغيرة.

.4

أغلق بيرغومي باب غرفته: سريرٌ مفرد، وحمّامٌ بسيط، ومكتبٌ من الخشب الخام، ومقعدٌ صغير. كان يحبّ هذه الأجواء المبسّطة، شبه الرهبانيّة. فكيف إذا ترافقت بإطلالة تدعو إلى التأمّل على البحيرة والجبال؟ خلع الشرطيّ سترته ثمّ حذاءه، واستلقى على السرير وأغمض عينيه. مرّت ثمانٍ وأربعون ساعةً تقريبًا لم ينم فيها وكان خائر القوى. هل أصبحتَ عجوزًا على هذه الألاعيب؟ لا. كان التحقيق يتقدّم، وحتّى إن لم يشكره أحدٌ يومًا على ذلك، فالفضل يعود جزئيًّا له.

حاول تصفية ذهنه، لعلّه يجد النوم، لكنّ أفكاره عاندته. حدث أمرٌ بعد ظهر هذا اليوم عندما كانا في الحديقة الشتويّة في دار جان-كلود زيغلر: بينما كان يستمع إلى الخبير المالي، لفت نظره تمثالٌ للعذراء وطفلها يسوع. عملٌ فنّي في غاية الجمال، مغمورٌ بشعاع الشمس. أعاد هذا التأمّل في السيّدة العذراء إلى ذهنه سنوات المراهقة حين تردّد في دخول المدرسة اللاهوتيّة. وبعيدًا عن ذكرياته، أشعلت هذه الرؤية بداخله مأساة حياته الكبرى.

ابنه.

آرثر.

كان وجه الشابّ لا يفارقه أبدًا. تذكّره من جديد وهو طفلٌ بوجهه المبتسم. يجري على الشاطئ، ويتنزّه في الغابة، ويشجّع نادي مرسيليا في مدرّجات ملعب فيلودروم، مردّدًا شعاره: «مباشرةً نحو الهدف. الأفضل إلى الأبد...».

ها هي كلّ الصور، التي كان ينجح عادةً في لجمها بصندوق البيرة، تتربّص به بشراسةٍ غير مسبوقة.

اجتازت جسده قشعريرةٌ مُثلجة، تلتها رعشات. علقت شهقات البكاء في حلقه حتّى كادت تخنقه.

نهض وأخذ رشفةً من الماء من حنفيّة الحمّام.

– بابا؟

استدار. صار يسمع صوته الآن!

– بابا؟

كشبحٍ يعذّبه. لا يمكن لهذا أن يستمرّ. بحث عن مسدّسه ليبدّد قلقه، لكنّه تذكّر أنّه تركه في صندوق القفّازات في السيّارة. فانتعل حذاءه، وارتدى سترته، ثمّ غادر الغرفة.

في الخارج، داعب الضوء الخافت لآخر لحظات الغروب مياه البحيرة المتلألئة. خسارة... لقد خطّط منذ البداية لاستكمال التحقيق مع جوستين، لكنّه عاجزٌ عن قضاء الليل مع الصور والأصوات التي تهاجمه. سوف يغادر هذا المساء. سوف يقفز في الفراغ. أخيرًا.

وصل إلى موقف السيّارات وجلس خلف عجلة القيادة لسيّارة البورش القديمة. فتح صندوق القفّازات وأخرج الـMR 73. شعر بنعومة ملمس عقب المسدّس الذي حمله في يده اليمنى. الإحساس المطمئِن بأن تكون قادرًا على ضغط زرّ «إيقاف التشغيل». بأن تكون لمرّة سيّد الموقف. رصاصةٌ واحدة في الرأس: حريّة الحريّات في مجتمعٍ قامعٍ للحريّة أكثر فأكثر.

أنزل بيرغومي زجاج النافذة.

– بابا؟

– نعم آرثر، أنا هنا.

الآن يستطيع الردّ عليه. فقد بات الأمر أقلّ رعبًا مع مسدّسٍ في اليد يمكن من خلاله مقاطعة المحادثة في أيّ وقت. أغمض عينيه. اللقطات نفسها، والأسئلة نفسها: كيف استطاع هذا الابن المحبوب والمعشوق أن يسلك طريق الجحيم من دون أن ينجح يومًا في إعادته إلى النور؟ كيف أمكن للصبيّ الصغير المبتهج أن يتحوّل إلى مدمنٍ بائس؟

ارتدّ الحمض من معدته فأحرق صدره. كدفقة كحولٍ على جرحٍ مفتوح. في المرّة الأخيرة التي حاول فيها التحدّث إلى آرثر، كان الأخير هاربًا لتوّه من مركز إعادة التأهيل. حصل هذا قبل عشر سنوات. انتهت المحادثة بشكلٍ سيّئٍ وانتهى بهما المطاف إلى المشاجرة. دخلا في معركةٍ جسديّةٍ لم يتعافَ منها أبدًا. ولكي يكفّ

عن تعذيب نفسه بهذا الأمر، ردّد بيرغومي لنفسه أنّ الابن الذي أحبّه لم يعد موجودًا. أنّه تحوّل إلى وحشٍ شرسٍ التهم آرثر الصغير.

شدّ قبضته على عقب المسدّس.

ليس الأمر بهذه البساطة. اليوم، بعد الظهر، زعزعه جدًّا تمثال العذراء والطفل وجعله يدرك أنّ هذه الطريقة في رؤية الأمور ليست سوى حيلةٍ مريحة. أنّ مكانه هو ربّما بجانب ابنه. أن لا شيء غير قابلٍ للإصلاح. وأنّ شيئًا ما بقي حتمًا من آرثر الطفل المشرق والمشعّ.

ولكن أين هو الآن؟

أين أنتَ، يا صغيري؟

أثناء الرحلة إلى لوغانو، بينما كانت جوستين نائمة، قام بيرغومي ببحثٍ صغير، وأجرى بعض المكالمات الهاتفيّة هنا وهناك. علم أنّ آرثر قضى عقوبة السجن في العام السابق في مركز الحبس الاحتياطي في ليون-كورباس. ثمّ شوهد في مسكنٍ غير قانوني في إيشيرول قبل أن يختفي أثره.

تنهّد بيرغومي وأعاد المسدّس إلى مكانه. شغّل المحرّك واستدار قبل أن ينعطف إلى الطريق المتاخم للبحيرة. حوّل هاتفه إلى نظام الجي بي أس وثبّته على الزجاج الأمامي لسيّارته.

سوف يجد الصغير. سوف يجد آرثر.

قليلةٌ هي المسائل الأكثر صعوبةً من تحرير مدمن المخدّرات من إدمانه. سوف يتكبّد الخسائر لا محالة، لكنّه يمتلك ما يحتاج إليه من القوّة لتحقيق ذلك. لقد أعادت هذه القضيّة إحياءه، ومنحته الطاقة الكافية للمعركة النهائيّة.

انهمرت الدموع على خدّيه. ينبوع ماءٍ حارٍّ حقيقي! نافورة تريفي بدون سيّاح. ثمّ، وسط الدموع، طافت ابتسامةٌ على وجهه.

كانت حليةٌ متدلّية من مرآة الرؤية الخلفيّة تتمايل على إيقاع اهتزازات السيّارة.

قلادةٌ فضّية على هيئة السيّدة العذراء.

23

جوستين تاياندييه
في فوضى

«كلّ شيء في فوضى. الشعر. السرير.
الكلمات. الحياة. القلب».

جاك كيرواك

في اليوم نفسه، الساعة 9 مساءً

.1

تقلّبت جوستين في سريرها، غير قادرةٍ على النوم. كانت تشعر بالبرد، وبالحرّ، وبدا لها المكان خانقًا حينًا وفارغًا حينًا آخر. أخذ اللقاء مع زيغلر الوقت الكافي ليتوضّح في ذهنها، وأصبحت الآن مقتنعةً بأنّها تدنو من الحقيقة، ولكن أيضًا بأنّ هذه الحقيقة متقلّبة ويجب ألّا تتركها تفلت منها. ضخّ هذا الاستنتاج الأدرينالين في دمها، فندمت على حبس نفسها طوال الليل. نهضت، ارتدت فستانها، وانتعلت حذاءها، ثمّ لبست سترتها قبل أن تخرج إلى الردهة باتّجاه غرفة بيرغومي. طرقت الباب من دون أن تحصل على إجابة. لم تصرّ، ونزلت الدرج إلى الحديقة.

بدا المكان أكثر غموضًا في عتمة الليل. انبثق المبنى التاريخي من سماءٍ زرقاء داكنة تطوّقها أشجارٌ فضّية. وجرجر الهواء بعض السحب التي لامست القمر. في الطريق المؤدّي إلى موقف السيّارات، التقت جوستين ليوني روشيكس مغطّاةً بسترةٍ جلديّة من ماركة هارلي-ديفيدسون.

– هل أنتِ جائعة، أيّتها القائدة؟ انتهت مناوبتي، لكن يمكنني أن أطلب من شباب الكافتيريا إعداد شيءٍ لكِ.

رفضت جوستين العرض بأدب، لكنّها استغلّت وجود الموظّفة لتسألها:

– أودّ محاولة رؤية البروفيسور شابوِي هذا المساء. أتعرفين أين يقطن؟

أجابت ليوني، التي بدت بسترتها الجلديّة كسائقة درّاجةٍ ناريّة:

– في مونتي كريستو.

– مونتي كريستو؟ كما في رواية الكونت دي مونتي كريستو؟

ابتسمت ليوني ودوّرت سبابتها فوق رأسها للإشارة إلى الجبال.

– لوغانو مطوّقة بالقمم.

صوّبت إلى مرتفع على يمينها.

– أترين التمثال هناك؟

زمّت جوستين عينيها فلمحت في البعيد تمثالًا ضخمًا ليسوع المسيح يذكّر، وإن كان أكثر تواضعًا، بالتمثال الشهير في ريو.

– هذا مسيحنا الفادي. ومن هنا جاء اسم مونتي كريستو.

– على هذا التلّ يعيش شابوِي؟

أومأت المرأة السويسريّة إيجابًا.

– أهو بعيدٌ من هنا؟

– ليس كثيرًا. لا بل يمكنكِ الوصول بالقطار الجبلي. وهو يعمل حتّى الساعة 11 مساءً.

وصلت المرأتان إلى موقف السيّارات. اندهشت جوستين عندما لاحظت أنّ سيّارة بيرغومي قد اختفت. استولى عليها بعض القلق فنظرت إلى شاشة هاتفها، لكنّها لم تكن قد تلقّت أيّ رسالة.

– أتمنّى لكِ ليلة سعيدة، أيّتها القائدة، قالت ليوني وهي تفتح باب شاحنةٍ صغيرة قديمة ذات لونٍ أحمر بوردو.

– انتظري. من أين أستقلّ القطار الجبلي؟

– من باراديسو، بالقرب من محطّة السكّة الحديديّة الفيدراليّة.

– هل يمكنكِ أن تقلّيني إلى هناك؟

نظرت ليوني إلى ساعتها، تردّدت للحظة، ثمّ:

– هيّا، اصعدي، ولكن بسرعة! عليّ الذهاب إلى نادي الكتاب.

في الطريق، حاولت جوستين الاتّصال بمساعدها من دون جدوى، فتركت له رسالة. بهرتها تشكيلة الوشوم المنبسطة على ذراعَي السائقة. طيورٌ جارحة، ملائكةٌ صغار، صليب، جماجم كالافيرا المكسيكيّة، خنجر، قلبٌ مشتعل. فضلًا عن الخواتم على شكل ثعبان أو جمجمة. رموزٌ لتمرّدٍ خاضعٍ نوعًا ما.

– أتعرفين البروفيسور شابوِي جيّدًا؟

– يمكن قول ذلك. أعمل هنا منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا. هو طبيبٌ متميّز. الجميع يبجّله في كارل-جاسبرز.

– هل لا يزال يمارس المهنة أم هو يدير المستشفى فقط؟

– لا يزال نشطًا بالطبع! يأتي المرضى لرؤيته من كافّة أنحاء العالم. هو أحد الأطبّاء النفسيّين الأكثر تقديرًا في البلاد.

انتفضت جوستين من مكانها.

– شابوِي طبيبٌ نفسي؟

– طبيب أعصاب وطبيب نفسي، نعم. ألا تعرفين ذلك؟

– لا، اعترفت، منزعجةً.

أكملت ليوني بإلحاح، نصف جدّية، ونصف هازئة:

– بالنسبة إلى محقّقةٍ في الشرطة، هذه وصمة عار.

امتنعت جوستين عن التصادم معها، لكنّ الفتاة أرادت أن تعرف أكثر فسألت:

– أنتِ هنا من أجل قضيّة قتل أوريانا دي بيترو، ألستِ كذلك؟

– أتعرفين أوريانا؟ هل كانت تأتي إلى المستشفى كثيرًا؟

– هذا، لا يُفترض بي أن أخبركِ به، جزمت ليوني وهي تشغّل المسّاحات لإزالة رذاذ المطر الذي بلّل الزجاج الأمامي.

– أنتِ فتحتِ الحديث! أوضحت جوستين.

حنت ليوني رأسها ثمّ قالت أخيرًا:

– يعلم الجميع أنّ أوريانا مريضة البروفيسور شابوِي. جاءت إلى هنا لأوّل مرّة بعد حادث السير الذي تعرّضت له مع والدتها.

– كانت لا تزال تُعالج هناك، أليس كذلك؟ رُصد هاتفها مرارًا في منطقة المستشفى في الأشهر التي سبقت وفاتها.

– نعم، كانت تأتي كلّ ستّة أسابيع تقريبًا، أكّدت الفتاة السويسريّة.

– لماذا؟

حدّقت ليوني في الفراغ، متهرّبةً من الإجابة.

– لا أعرف أيّ شيءٍ آخر.

لعبت جوستين الورقة التي احتفظت بها في جعبتها حتّى الآن.

– وجدتُ اسمكِ على المخطّط التنظيمي للمستشفى المعلّق على باب غرفتي، ليوني. تعملين سكرتيرةً خاصّة لشابوِي، ولستِ

موظفةً عاديّة بين جموع الموظفين. لا شكّ في أنّكِ حفظتِ الملفّ الطبّي لأوريانا.

لاذت ليوني بالصمت. عبر النافذة، تعاقبت المناظر الطبيعيّة: أشكالٌ ريفيّة متحرّكة وغامضة، تخترقها هنا وهناك خيوطٌ من الضوء الحضري.

– كانت أوريانا مصابةً بورمٍ في المخّ، أقرّت أخيرًا وهي تتوقّف عند إشارةٍ حمراء.

– ورم... هل أنتِ متأكّدة؟

أومأت ليوني إيجابًا.

– شُخّصت حالتها في خريف عام 2022. ورمٌ دبقي من الدرجة الرابعة، وهو أسوأ أنواع الورم في المخ. فوجئتُ لعدم ذكر هذه المعلومة مطلقًا في الصحافة.

ارتابت جوستين.

– لو كان هذا صحيحًا، لكشف تشريح جثّة أوريانا عن ذلك.

تحوّلت الإشارة إلى اللون الأخضر. انطلقت ليوني من جديد ومرّت بمبنًى صغيرٍ يشبه محطّة قطارٍ كهربائي.

– أتعلمين لماذا لم يظهر التشريح أيّ شيء؟ لأنّ أوريانا قد شُفيت.

شعرت جوستين بضياع. واصلت ليوني بنبرةٍ كلّها ثقة:

– على الرغم من هذه الأخبار الجيّدة، في المرّة الأخيرة التي التقت فيها أوريانا بالبروفيسور شابوِي، دار بينهما جدالٌ عنيف. ثمّ خرجت أوريانا صافعةً الباب وراءها، وهو أمرٌ لم يحدث من قبل.

لم تبدِ الشرطيّة أيّ تفاعل. بدا لها كلام السكرتيرة بلا معنى. ربّما أخطأت في إيلائها الاعتبار. ظهرت لها ليوني روشيكس فجأةً على أنّها فتاةٌ لطيفة غريبة الأطوار، لا بل مريضةٌ بالكذب القهري نوعًا ما.

اجتازت الشاحنة مستديرةً ودخلت نفقًا يفضي إلى موقف سيّاراتٍ في مساحةٍ حرجيّة ترابيّة مطوّقة بحواجز خشبيّة.

– ها قد وصلنا، عزيزتي. لا مزيد من الأسئلة من فضلكِ، لقد أخبرتكِ الكثير.

مسحت جوستين بكمّ سترتها الرذاذ المتراكم على الزجاج الأمامي.

– عندما أصل إلى قمّة التلّ، كيف يمكنني أن أحدّد مكان منزل شابوِي؟

– أعطيني هاتفكِ، سأدخل عنوانه على جهاز تحديد المواقع لديكِ.

امتثلت جوستين وشكرتها.

– انتبهي، أوشكت بطاريّة هاتفكِ على النفاد، قالت لها السكرتيرة، ثمّ أعطتها بضع إرشاداتٍ إضافيّةٍ قبل أن تصرفها.

– هيّا، هيّا، أودّ اللحاق بنادي الكتاب!

– أيَّ كتابٍ تناقشون هذا المساء؟ سألت جوستين قبل الخروج.

– القاتل، باتريشيا هايسميث.

– برنامجٌ حافل، قالت وهي تغلق الباب.

2.

الساعة 10 مساءً

كان القطار الجبلي لا يزال محافظًا على حالةٍ جيّدة: ثلاث قاطرات معدنيّة بطلاءٍ متقشّر باللون القرميدي، متّصلة بكابل فولاذي يسحب الآلة إلى أعلى نقطة. لم يكن من أحدٍ على شبّاك التذاكر لتشتري منه تذكرة. صعدت جوستين في القطار الأوّل. كانت قمّة مونتي كريستو

غارقةً في الضباب. وبينما أخذت المقصورات تتحرّك، استفادت من شبكة الهاتف الضعيفة للاتّصال بخادم الويب لمركز الشرطة. أرادت التحقّق من تاريخ المرّة الأخيرة التي زارت فيها أوريانا لوغانو. كان الاتّصال بطيئًا جدًّا حتّى أنّ الحصول على المعلومات استغرق دقائق عدّة، غير أنّ الأمر كان يساوي وزنه ذهبًا، كما كان سيقول بيرغومي. 2 مايو! في اليوم نفسه الذي زارت فيه زيغلر لطلب مبلغ 300 ألف يورو.

اقشعرّ جسمها. أدّى احتكاك الكابل إلى إحداث صريرٍ كالذي يصدره قطار الأشباح في الكرنفالات. كانت الراكبة الوحيدة، وكان الباب المنزلق مفتوحًا حوالي خمسة سنتيمترات ما جعل الهواء يتسلّل عبر الفتحة. أقفلت سحّاب سترتها حتّى رقبتها وضغطت جبهتها على نافذة المقطورة البانوراميّة. ازدادت قوّة المطر. من بعيد، كانت عاصفةٌ تختمر والأضواء الهشّة ترتجف في جوف الليل حول البحيرة والجبال المحيطة.

بلغت القمّة في أقلّ من ربع ساعة. رأت مطعمًا، لكنّه كان مغلقًا في هذا الوقت من السنة، ومساحة للنزهات مهجورة. كان المكان شبه مظلمٍ تمامًا، ومخيفًا. أشعلت ضوء الفلاش في هاتفها واتّبعت تعليمات ليوني. وضعت سترتها فوق رأسها وسلكت طريق المسار الحديدي متّجهةً نحو الغابة.

اشتدّت العاصفة، يخترقها برقٌ، ورعدٌ هادر، وعصفات ريحٍ جليديّة. مركّزةً بعينيها على شاشة نظام الجي بي أس، سارت جوستين في الظّلام بوتيرةٍ سريعة. كانت تتصبّب عرقًا مثلجًا، وأصابها ضيقٌ في التنفّس. شعرت بأنّها قذرة، وخائفة. في الليل، اصطبغت أشجار التنوب والأرزيّة، التي كانت قد بعثت في نفسها السكون في فترة ما بعد الظهر، بظلالٍ مشؤومة. جيشٌ مستبدٌّ من جنودٍ عمالقة على

أهبة الاستعداد لابتلاعها. مشت لنصف ساعة أخرى إلى أن انطفأ ضوء هاتفها. لقد نفدت البطاريّة. غبيّة! حاولت إيجاد طريقها عبر اتّباع المسار الذي حفظته ذهنيًّا. اعتقدت مرّاتٍ عدّة أنّها كانت مخطئة. تحوّل فستانها المشبّع بالمياه إلى ممسحة. ارتدت سترتها من جديد لتحدّ من الشعور بالبرد، لكنّ ذلك لم يحل دون أن ترتجف وتصطكّ أسنانها. فكّرت في كلمات أغنية فرانسيس كابريل:

Y a plusieurs mètres d'eau dans les rues de ma peine

Plusieurs tonnes de boue dans le flot de mes veines[1]

أخيرًا، في منتصف اللامكان، لمحت عمودَين من الخرسانة مغطّيَين باللبلاب، يحيطان ببوّابةٍ من الألومنيوم عُلّق فوقها جرس.

لم يكن أيّ اسمٍ مذكورًا في أيّ مكان. اتّبعت حدسها: لن تنذر الطبيب بمجيئها. في الآونة الأخيرة، لم يكن حدسها يصيب كثيرًا، لكنّها قرّرت مع ذلك الاستماع إليه. اعتلت المصراعين بصعوبة وهبطت من الجانب الآخر في ما يشبه حديقةً شبيهةً بالدّغل.

سارت عشوائيًّا باتّجاه إنارةٍ منتشرة ووقعت على مشهدٍ غير متوقّع: واحة ساكنة على نمط «زن» الياباني وسط غابات تيتشينو!

كان مسكن شابوِي بمثابة منزلٍ ياباني تقليدي تثريه لمساتٌ معاصرة. مبنًى مستطيل الشكل من طبقتين، مكسوٌّ بألواحٍ من خشب الأرز، وتحيط به شرفاتٌ عدّة. اقتربت جوستين بهدوء، مختبئةً خلف أشجار الكرز وصفوف الخيزران. قبالة البناء، أقيمت بركةٌ مذهلة مضاءة كحوض سباحةٍ كانت تعوم فيها أسماكٌ طويلة ممتلئة الجسم تشبه سمك الشبّوط. وفي وسط المسطّح المائي، انتصبت منحوتةٌ من حضارة الخمير تحرس بملامح صارمة نافورةً امتزجت ألحانها بلحن المطر.

1 أمتارٌ من الماء تملأ شوارع حزني / أطنانٌ من الوحل تتدفّق في عروقي.

– أنتِ في ملكيّةٍ خاصّة!

اخترق دويّ الصوت الليل وتردّد صداه في الأرجاء.

لعلّه شابوِي؟

– أحمل سلاحًا، ارفعي يديكِ من فضلكِ وأبقيهما في الهواء.

اللعنة.

استدارت جوستين ببطء فرأت رجلًا، لا تدري من أين خرج، يصوّب بندقيّته نحوها. كان طويلًا وضخمًا يرتدي سترةً طويلة من القطن باللون الكاكي.

– هل أنت البروفيسور شابوِي؟ سألته. أنا قائدة الشرطة جوستين تاياندييه.

بقي الرجل صامتًا بلا حراك. كانت ماسورة بندقيّته تتوهّج بشكلٍ متقطّع تحت أضواء الحديقة.

أخرجت جوستين بطاقتها الثلاثيّة الألوان من جيب سترتها، لكنّ قدمها انزلقت على لوحٍ حجري مغطًّى بنبات الأشنة وسقطت على الأرض.

يا للعار.

أنزل شابوِي سلاحه، والتقط البطاقة. ألقى عليها نظرةً ثمّ ساعدها على النهوض.

– ماذا تفعلين في منزلي ليلة سبت؟

– عليّ التحدّث معك. إنّ حياة رجلٍ على المحكّ.

أطلق الطبيب النفسي تنهيدةً تدلّ على التعب.

– ادخلي وجفّفي ثيابكِ، قال بعد أن رآها مبلّلةً من رأسها إلى أخمص قدميها. في كلّ الأحوال، لا أستطيع أن أسمح لكِ بالمغادرة في هذه الحالة.

24

جوستين تاياندييه
السجينة

«عادةً، لا تلازم الحكمة السجناء طويلًا».

جان دو لافونتين

1.

كان التصميم الداخلي لمنزل فرانسوا شابوِي يطلق دعوةً إلى التأمّل: أضواءٌ نادرة وخافتة، ظلال ألوانٍ هادئة، حصائر من قشّ الأرزّ. كان الديكور مينيماليًّا واقتصر على فوانيس ورقيّة وتمثالَين بوذيَّين ضخمَين من «حرّاس النيو» لمنع الأرواح الشرّيرة من تدنيس المواقع المقدّسة.

أعدّ الطبيب الشاي باستخدام موقدٍ محمول وُضع على طاولةٍ صغيرة مصنوعة من الحجر. كان قد غاب لبضع دقائق خلف متاهةٍ من الأبواب الخشبيّة الجرّارة قبل أن يظهر من جديد حاملًا منشفةً كبيرةً وسترةً ضخمةً بألوان جامعة زيورخ للعلوم التطبيقيّة.

– جفّفي نفسك! سوف تموتين من البرد.

بوجهٍ خالٍ من أيّ تعبير، أعاد مقصًّا ومنشار تقليمٍ صغيرًا وكمّاشةً مقعّرة إلى حقيبة أدواتٍ من قماش. بدا أنّ جوستين قاطعته

في منتصف جلسة تقليم غابة البونساي المعروضة على قطعة أثاثٍ منخفضة وسط الغرفة. الهذيان الياباني حتّى الثمالة.

أطالت جوستين التحديق في كلّ تفصيلٍ في الطبيب النفسي وهي تنهي كوب شاي السينشا. كان تشابهه مع لينو فينتورا مدهشًا – من فترة فيلم «Cent jours à Palerme»، أكثر منها فترة «Tontons flingueurs»: شارب، وشعرٌ مسرّح إلى الخلف، ووجهٌ محفور بتجاعيد عميقة. كان يرتدي قميص أكسفورد باللون الأزرق الفاتح، وسترةً بياقةٍ منخفضة، ونظّارات «أفياتور» طبّيّة.

– حسنًا، من تكونين بالضبط؟ سألها وهو يخلع مئزر البستنة.

– القائدة تاياندييه، رئيسة فرقة في الشرطة القضائيّة في نيس، المسؤولة عن التحقيق في مقتل أوريانا دي بييترو.

– وما دخلي أنا في هذا؟

– كانت أوريانا مريضتك لمدّة ثلاثين عامًا.

تنحنح شابوِي ليجلو حنجرته.

– لن أكرّر لكِ معزوفة السرّية الطبّية. اتّصلت بي سكرتيرتي قبل نصف ساعة. أعلم أنّها كانت ثرثارةً للغاية. قولي لي ما تريدين معرفته وانصرفي.

– هل كانت أوريانا مصابةً حقًّا بورمٍ في المخ؟

– نعم، لكنّها كانت في حالة شفاءٍ وقت وفاتها.

– هل تشاجرت معها في آخر مرّة رأيتها فيها؟

– قليلًا.

– لماذا؟

– لسببٍ لا علاقة له بالتحقيق الذي تقومين به.

– كيف يمكنك أن تكون واثقًا؟

بقي شابوِي جامدًا كالحجر. ساكنًا. في تناغمٍ تامٍّ مع الأجواء التي حاول خلقها في منزله.

– أتعرف زوجها؟ واصلت جوستين.

– أدريان؟ كلّمتني عنه كثيرًا، لكنّني لم أقابله قطّ.

– لكنّه خضع للعلاج من إدمانه في هذا المستشفى.

– كان ذلك منذ وقتٍ طويلٍ جدًا، حتمًا في مركز الإدمان وقبل فترةٍ طويلة من إدارتي للمستشفى.

– ولم يعد منذ ذلك الحين؟

– ليس على حدّ علمي.

كان شابوِي يخترقها بنظراته. عرفت جوستين أنّه رأى كلّ شيء: الفراغ العاطفي، والبؤس السحيق، والأدوية المضادّة للاكتئاب، وأدوية البنزوديازيبينات، وأنهار الدموع، وصولًا إلى حبل المشنقة في درج القبو. في الأيّام العاديّة، كانت ستشعر بالخجل، لكنّها الآن أملت أن يشفق عليها بما يكفي للإجابة عن أسئلتها بصراحة.

– لقد أفسدتُ التحقيق تمامًا، قالت. أظنّ أنّني على وشك زجّ رجلٍ بريءٍ في السجن.

هزّ الطبيب كتفيه.

– لا تزجّيه إذن.

– الماكينة البيروقراطيّة والإعلاميّة تتسارع. لقد أفلت الأمر من يدي.

– اسمعي، لا أرى كيف يمكنني أن أساعدكِ هنا.

– يجب أن أجد امرأةً شابّة لها علاقةٌ مع أدريان ديلوناي وأعتقد أنّها قد تكون قتلت أوريانا. تُدعى أديل، هل يقول لك الاسم أيّ شيء؟

تجمّد شابوِي للحظة قبل أن يخلع نظّارته ويدلّك جفنيه. نهض مطلقًا تنهيدةً طويلةً، وخطا بضع خطواتٍ نحو الواجهة الزجاجيّة التي تنزلق عليها قطرات المطر. هناك، عقد يديه خلف ظهره، مثبّتًا نظره على الأفق المسدود. انضمّت إليه جوستين جنب النافذة، وأدركت أنّ الطبيب النفسي كان يحمل أيضًا صليبًا ويسير في موكب الأشباح الخاصّ به.

أصرّت قائلةً:

– من فضلك، بروفيسور. ساعدني. افعل ذلك من أجل طفلَي أوريانا.

– نعم، أعرف أديل، اعترف همسًا.

– أين يمكنني أن أجدها؟

– في المقبرة التاريخيّة الكبرى في ميلانو.

– هل ماتت؟

– اجلسي، سأعدّ المزيد من الشاي.

2.

– قابلتُ أوريانا عام 1992 عندما كانت في السابعة من عمرها. كانت قد تعرّضت قبل عام لحادث سيرٍ خطير خسرت فيه والدتها. بعد سلسلةٍ من العمليّات الجراحيّة الصعبة، استقبلناها هنا في لوغانو لمرافقتها في رحلة إعادة التأهيل الحركي والعصبي.

كانت جوستين جالسةً مع شابوِي على جانبي طاولة قهوة مغطّاة ببطانيّة فوتون مطرّزة، وُضعت عليها صينيّةٌ من الخشب المطليّ: كوتاتسو، قطعة أثاثٍ دافئةٌ تقليديّة من اليابان.

– أوريانا كانت فتاةً فاتنة وذكيّة. وبعيدًا عن الآثار الجسديّة للحادث، فقد أظهرت هشاشةً نفسيّة كبيرة وقلقًا شديدًا. مكثت معنا

لأكثر من عام. ساعدتُها في محنتها، على ما أظنّ. لستُ متخصّصًا في الطبّ النفسي للأطفال، لكنّها لم ترغب في رؤية أحدٍ غيري وكنّا على وفاق. استمرّت في المجيء إلى المستشفى لإجراء الفحوص كلّما تعرّضت لمشكلةٍ صحّية.

زمّ شابوِي عينيه ليرجع بشكلٍ أفضل إلى الماضي.

– في بداية مراهقتها، تعقّدت الأمور. عانت أوريانا من فقدان الشهيّة والشره المرضي. بدأت تظهر عليها سلوكيّات إيذاء الذات، وشرب الكحول بانتظام، وتناول مجموعة من الأدوية، وإظهار تصرّفات متهوّرة وفوضويّة. لكنّ جلسات التحليل النفسي التي قمنا بها آتت أُكلها، إذ تمكّنتُ من تحديد الصدمة التي كانت مصدر عذابها.

توقّف لبضع ثوانٍ للحفاظ على تأثير روايته، ثمّ تابع:

– كانت أوريانا تشعر بالمسؤوليّة والذنب تجاه وفاة والدتها.

– لماذا؟

أعارته جوستين أذنًا صاغية فباشر شابوِي بروايةٍ مفصّلةٍ لقصّة القطّة التي حُرّرت من صندوقها وتسبّبت بحادث سيّارةٍ أودى بحياة آنّا ماريا دي بييترو.

– من الصعب التعامل مع صدمةٍ فظيعة كهذه في هذه السنّ، تابع البروفيسور. بعض ضحايا العنف الجسدي أو النفسي يلجأون إلى نوعٍ من الانفصام لمواصلة عيش حياتهم كأطفال: آليّة دفاع في اللاوعي تتشكّل لدرء الأحداث المؤلمة. وهو ما حدث لأوريانا.

– هل تتحدّث عن الكبت؟

– نوعًا ما، غير أنّ الموضوع أكثر تعقيدًا من ذلك.

كان شابوِي عادةً عندما يسهب في الكلام، لا شيء يوقفه.

– الـ«أنا» عند الصغار لا تكون مستقرّةً وموحّدة. بعد الصدمة، يخزّن البعض الذكريات المؤلمة في شخصيّةٍ أخرى لمنعها من تعطيل

الوعي اليومي. وبالتالي تتعايش شخصيّتان فرعيّتان داخل نفس الفرد: شخصيّته الأساسيّة وأخرى أكثر عاطفيّة. الأولى هي التي نستثمر فيها يوميًّا، فيما تحمل الثانية، التي تبقى غالبًا في الظلّ، الصدمة كلّها.

– هل تقصد أنّ أوريانا كانت مصابة باضطراب تعدّد الشخصيات؟

– هذا ما كان يُطلق عليه سابقًا، نعم. الآن، يُسمّى اضطراب الهويّة التفارقي.

– أهو نوعٌ من الفصام؟

انقبض وجه شابوِي وراح يهزّ رأسه.

– أبدًا. غالبًا ما يُخلط بين الحالتين في الخيال الجماعي، لكن لا علاقة للواحدة بالأخرى.

– ما الفرق؟

– العلاقة بالواقع.

– يعني؟

– الفصام هو اضطرابٌ ذهاني يُفقد الشخص إحساسه بالواقع. ويعجز المرضى به عن التفريق بين الواقع والهلوسات التي تعذّبهم، غير أنّهم لا يعانون من هويّاتٍ متعدّدة. أمّا اضطراب الهويّة التفارقي فيؤثّر على استمراريّة الهويّة والذاكرة.

جهدت جوستين للمتابعة فيما واصل الطبيب النفسي شرحه:

– يتأتّى الفصام من أسبابٍ وراثيّة بينما يولد اضطراب الهويّة التفارقي نتيجة صدمةٍ مؤلمة. ويُعالَج كلٌّ من هذين الاضطرابين بطريقةٍ مختلفة. باختصار، أحدهما علاجه الأدوية المضادّة للذهان والآخر علاجه نفسي.

أعادت الشرطيّة تركيز المناقشة على قضيّتها.

– إذن كان لأوريانا شخصيّتان؟

– هذا صحيح: هويّتان تتناوبان بنحوٍ لاإرادي.

– هل تمكّنت من علاجها؟

– نعم، تابعتها في العلاج لوقتٍ طويل. كانت الفترة الأخيرة من مراهقتها أقلّ تعقيدًا. نجحنا في السيطرة على النوبات وتقدّمنا كثيرًا في العمل على الصدمة الأصليّة. في مثل هذه الحالة، يؤدّي الطبيب النفسي أيضًا دورًا وسيطًا بين الشخصيّات المختلفة لمريضه. شيئًا فشيئًا، نجحتُ في مساعدة أوريانا على تحقيق انسجامٍ نفسيّ. اختفت نوباتها، وأكملت دراستها، وبدأت مسيرةً مهنيّة رائعة، وتزوّجت وأنجبت.

– هل كان أدريان ديلوناي على علمٍ بمشكلة زوجته؟

– لا، أجاب إجابةً قاطعة. لم تكن أوريانا متصالحةً بما يكفي مع اضطرابها لتجرؤ على التحدّث عنه، سواءٌ لزوجها أو لأيّ شخصٍ آخر.

شعرت جوستين بالارتياب. ذكّرتها هذه الاضطرابات في الهويّة في البداية بقصص خياليّة قديمة جدًّا – «دكتور جيكل ومستر هايد»، و«سايكو» لألفريد هيتشكوك – وأفلام أو مسلسلات أخرى نسيت أسماءها. وكذلك وقعت، في الآونة الأخيرة، عبر شبكات التواصل الاجتماعي، على مجتمعٍ من الشباب ممّن يعانون من هذا الاضطراب ويشاركون تجاربهم. وقد تركها ذلك في حيرةٍ من أمرها.

كما لو أنّه قرأ أفكارها، أوضح شابوِي:

– هذا المرض يقسم عالم الطبّ النفسي منذ خمسين عامًا على الأقلّ. في السبعينيّات والثمانينيّات، حصلت تجاوزات من جانب بعض زملائي الذين دفعوا مرضاهم إلى التفوّه بترّهات للفت الانتباه. وساهم ذلك إلى حدٍّ كبير بفقدان المصداقيّة في النظرة

إلى هذا الاضطراب وربّما إلى الاعتقاد بأنّ الأمر برمّته كان مجرّد خدعةٍ كبيرة.

سكب له ولها الشاي من جديدٍ في كوبين صغيرين بدون مقابض مصنوعَين من الحجر الرملي قبل أن يتابع.

– لكنّ التقدّم في تقنيات التصوير الطبّي عزّز الطبيعة العلميّة لاضطراب الهويّة التفارقي. والتدقيق في فحوص الأشعّة المقطعيّة للمرضى الذين يعانون من هذا الاضطراب يتيح الكشف عن نشاطٍ معيّن في الدماغ. شبكةٌ لتنشيط الخلايا العصبيّة تذكّرنا بشبكة الأشخاص الذين يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة.

بدت جوستين في الوقت نفسه مفتونةً ومشوّشةً بعض الشيء.

– اسمح لي بروفيسور، لكن هل يمكنك الوصول إلى العلاقة مع أديل؟

أجاب شابوِي بانفعال:

– ظننتُ أنّكِ فهمتِ. أديل هي بديلة أوريانا!

– بديلة؟

– الشخصيّة الثانية، إذا أردتِ.

.3

كان من الواضح أنّ نظرة جوستين المتشكّكة أغاظت الطبيب النفسي حيث زمجر فيها كما لو كان يوبّخ طالبةً سيّئة:

– لم تفهمي تمامًا ما قلته لكِ.

– اشرح لي مجدّدًا إذن، دافعت عن نفسها قائلة.

– في حالة اضطرابات الشخصيّة التفارقيّة، تولّد كلّ صدمة «أنا» بديلة. أدّت وفاة والدة أوريانا إلى ظهور شخصيّةٍ أخرى فيها: امرأة شابّة تدعى أديل كيلر.

شكّل شابوِي ما يشبه عجلة توازنٍ بواسطة يديه، شارحًا:

– تعمل الشخصيّتان إلى حدٍّ ما مثل طرفَي البطّاريّة. أديل هي، في الأساس، شخصيّةٌ بديلة حامية تظهر في المشهد للتعويض عن نقاط ضعف أوريانا. وبينما تبدو الأخيرة قويّةً في أعين الناس فإنّها تشعر بأنّها ضعيفة، بينما أديل تبدو ضعيفةً لكنّها تحمل في داخلها قوّةً عقليّةً غير عاديّة.

فكّرت جوستين في هذه الجملة من فيلم «المترو الأخير» للمخرج فرانسوا تروفو: «بداخلك امرأتان».

– لكنّك قلت إنّك عالجتها.

– هذا ما كنتُ أتمنّاه أنا أيضًا، لكنّ من الصعب الشفاء كليًّا من اضطراب الشخصيّة التفارقي. بمرور الوقت، عادت أديل إلى الظهور في لحظات التوتّر والضغط الشديد: عند أسر أوريانا في سوريا، وعند وفاة والدها، وعند تشخيصها بمرض السرطان، على ما أظنّ.

– هل كانت أوريانا مدركةً لذلك؟

– في معظم الأحيان لا. وهنا كانت المشكلة. لا قاعدة نهائيّة مع المصابين باضطراب الشخصيّة التفارقي. يعيش كلّ مريضٍ التجربة بطريقةٍ مختلفة، ولكن في حالة الانفصال الحادّ، كما الحال هنا، لا تعي الشخصيّة المضيفة دائمًا سيطرة الشخصيّة البديلة. والعكس صحيح.

– العكس صحيح؟

أوضح شابوِي فكرته:

– في بعض الأحيان تعيش شخصيّة المضيف وشخصيّته البديلة حياتين منفصلتين. وكأنّ ثمّة حاجزًا يفصل بينهما تمامًا، وكأنّ بين الشخصيّتين المختلفتين فقدانًا للذاكرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

– تحدّثت عن سيطرة إحدى الشخصيّتين. عمليًّا، كيف يحصل ذلك؟

– عندما تتناوب الشخصيّتان، يكون الأمر كما لو أنّ شخصًا آخر يسيطر على جسد الآخر. ويمكن لكلّ شيءٍ أن يتغيّر... تعابير الوجه، ووضعيّة الجسم، وحتّى الصوت.

– كم من الوقت يتطلّب ذلك؟

– عمليّة التحوّل، أو الـ«switch» كما يسمّيها البعض، قد تكون سريعةً جدًّا. في بعض الأحيان، وفي حالات التوتّر الشديد، بضع ثوانٍ تكفي. يمكن للشخصيّتين البديلة والمضيفة أن تكونا واعيتين في الوقت نفسه وتتحادثان بصوتٍ عالٍ.

تراءت لجوستين فجأةً رؤيةٌ مخيفة لساحة معركةٍ عجيبة يرقد فيها جسد امرأةٍ تتلوّى من الألم تحت اعتداءات قوّتَين غير مرئيّتَين تتنازعان على السيطرة. ومع ذلك، تصاحبت أفكارها المزدحمة بإثارةٍ كبيرة. جوهريًّا، أنارت تفسيرات شابوِي التحقيق. أصبح اللغز أكثر وضوحًا، وفتح الطريق للخروج من المتاهة. سألت الطبيب مرّةً أخرى عن مسألة الوعي.

– أخبرني عن الحياة الداخليّة للشخصيّات البديلة. هل تعيش أديل جزئيًّا في اللاوعي؟

– تتمتّع بعض الشخصيات البديلة بعالمٍ داخلي مستقلّ، زاخرٍ ومتقن. فقد تبتكر لنفسها خلفيّة، ونظام تفكير، وذكرياتٍ تتمسّك بها بشدّة. حقيقةٌ موازية تجهلها الشخصيّة المضيفة.

– لكن هل تكون الشخصيّة البديلة على علمٍ بأنّها كذلك؟

– حسنًا، ليس دائمًا.

غُشّي بصره وغاص شابوِي في ذكرياته للحظة قبل أن يتابع كلامه الذي تقشعر له الأبدان:

– قد تكون لدى الشخصيّة البديلة رغبات في الاستيلاء على الشخصيّة الأساسيّة. وقد ترغب في القضاء عليها من دون أن تدرك أنّ هذا يعني اختفاءها هي أيضًا. ولا أستبعد أنّ هذا ما حدث ربّما في حالة أديل وأوريانا.

4.

عدوٌّ داخلي...

أمست جوستين الآن ترى الأمور بشكلٍ أوضح. كانت عجلات دماغها تدور، وأسنان التروس تتداخل بعضها ببعض لحلّ اللغز الذي تعثّرت به منذ البداية.

وبمساعدة الطبيب، عادت خطوةً بخطوة إلى مجرى التحقيق ودمجت هذه البيانات الجديدة التي غيّرت كلّ شيء. وشيئًا فشيئًا، تبلور السيناريو.

خريف 2022. تكتشف أوريانا أنّها تعاني من ورمٍ في المخّ وأنّ أمامها بضعة أشهرٍ فقط لتعيشها. تسبّب وطأة هذه الأخبار عودة ظهور شخصيّتها البديلة، أديل كيلر، التي بدأت علاقةً وهميّة مع أدريان ديلوناي. ومذكّرات أديل تشهد على هذا الوهم الذي لا وجود له سوى في رأس أوريانا-أديل.

ربيع 2023. على عكس كلّ التوقعات، تكتشف أوريانا أنّها شُفيت. فتسعى عندها إلى استعادة السيطرة على حياتها وتحرير نفسها من الحضور الخانق لأديل. في اليوم نفسه، تذهب إلى زيغلر لتطلب عاجلًا مبلغ 300 ألف يورو نقدًا. ولكن لأيّ غرض؟

– إعطاء هذا المال لأديل! افترض شابوِي مشارِكًا في لعبة التحقيق.

– كنّا سنعثر على الأوراق النقديّة معها، اعترضت جوستين.

– إلّا إذا أعطتها أديل بدورها لشخصٍ آخر.

يبدو هذا منطقيًا، ولكن لمَن؟ من هنا، تاهت جوستين في التكهّنات. مسارٌ آخر من التفكير اخترق عقلها.

– هل لديكَ شاحن آيفون؟ يجب أن أريك شيئًا.

تبعته إلى مكتبٍ أقيم في فجوة جدارٍ ووصلت هاتفها بينما راحت تشرح للطبيب النفسي الظروف التي أجرت فيها استجواب أوريانا في مستشفى كان في اليوم السابق لوفاتها.

– تتناقض روايتها تمامًا في غضون عشر دقائق. سترى، أمرٌ لا يصدّق.

شاهد شابوِي اللقطتين، واحدةً تلو الأخرى. في الفيلم الأوّل، تؤكّد أوريانا أنّها لم تعد تذكر الاعتداء عليها. ثمّ، بعد وقفةٍ لتلقّي العناية، تتّهم زوجها بطريقةٍ قاسيةٍ وقاطعةٍ للغاية.

ألصق الطبيب عينيه بالشاشة وأعاد عرض المشاهد مرّاتٍ عدّة، منبهرًا ومذهولًا بما يراه. جلست جوستين بجانبه، تستعرض المشهد في ضوء ما تعرفه، وفهمت أخيرًا ما فاتها لفترةٍ طويلة. التغيّر في الصوت وتعابير الوجه...

سألها شابوِي مستطردًا في تحليله:

– هل رأيتِ؟

– بدّلت أوريانا شخصيّتها بين المشهدين، أليس كذلك؟

أوقف الطبيب الفيلم وفكّر بصوتٍ عالٍ:

– عندما خرجت من الغيبوبة، كانت أوريانا مشوّشة. وجدت نفسها في المستشفى، مشوّهةً بفظاعة، من دون أن تفهم فورًا ما كانت تفعله هناك وغير قادرةٍ على تذكّر الاعتداء عليها بشكلٍ واضح. وفيما هي غارقةٌ في هذه الحالة الذهنيّة، بدأت بالإجابة عن أسئلتك.

نستطيع أن نشعر بأنّها ضائعة، ومرعوبة، وبحالةٍ سيّئة للغاية لدرجةٍ اضطرّت الطبيب إلى مقاطعة الاستجواب لفترةٍ وجيزة.

ثمّ تابعت جوستين التحليل النفسي.

– كما في كلّ مرّةٍ تغرق فيها أوريانا في حالة ضغطٍ شديد، ظهرت أديل من جديد واستحوذت على شخصيّتها.

أومأ شابوِي برأسه إيجابًا.

– لكن لماذا غيّرت روايتها فجأة؟ سألت جوستين.

غاص الطبيب النفسي من جديدٍ في أفكاره قبل صياغة فرضيّته.

– ربّما في لحظةٍ ما، قبل ساعاتٍ قليلةٍ من وفاة أوريانا، أدركت أديل، في ومضةٍ أخيرةٍ من التبصّر، أنّها مجرّد شخصيّةٍ بديلة وأنّها لن تنجح أبدًا في أخذ مكان أوريانا.

أكملت جوستين السيناريو:

– وفي رغبةٍ أخيرةٍ في الانتقام، قرّرت أن تدمّر حياة أوريانا باتّهام زوجها!

– لتستمرّ في إيذائها حتّى بعد وفاتها، اختتم شابوِي حديثه قائلًا.

أغرق هذا الاستنتاج الغرفة في صمتٍ طويلٍ جدًّا. إلى أن لمعت فكرةٌ في بال جوستين:

– أعرف ماذا فعلت أديل بالـ300 ألف يورو! لم يكن ابتزازًا، كان عقدًا.

– عقد؟

– عقدٌ مع قاتلٍ محترف. عقدٌ لتصفية أوريانا.

تنهّد شابوِي بصخب، وخلع نظّارته، وضغط على أنفه.

– عقدٌ كان فيه الشخص نفسه هو المموّل والضحيّة.

هـزّت جوستين رأسها، يسكنها شعوران متضاربان. السرور بالوصول إلى نهاية التحقيق. والقناعة اليائسة بأنّها لن تتمكّن أبدًا من إثبات كلّ هذا في المحكمة.

5.

واصلت العاصفة العاتية انقضاضها على الحديقة اليابانيّة. أحنت الرياح القويّة نبات الخيزران وهزهزت أشجار الأرز. وقفت جوستين تتأمّل الطوفان عبر النافذة. تهيّأ لها أنّ تمثال الخمير، بصموده تحت المطر، يبتسم لها هازئًا.

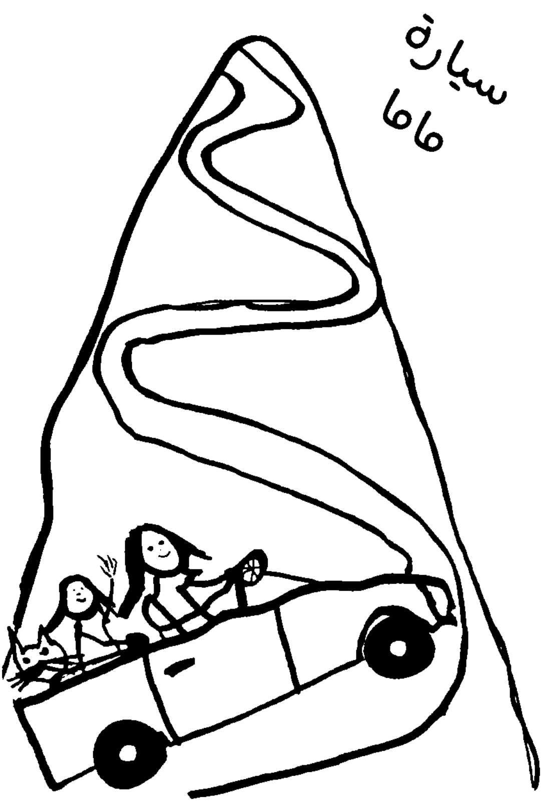

اتّهام أدريان ديلوناي واعتقاله

www.nicematin.com – 26/5/2024

أدريان ديلوناي لم يستسلم.

لم يدلِ زوج أوريانا دي بيترو بأيّ اعترافٍ خلال فترة احتجازه لدى الشرطة، لكنّ المدّعي العامّ في نيس، فيليب ليكلوز، يؤكّد امتلاكه «أدلّةً خطيرة ومتطابقة» تدينه كمشتبهٍ فيه رئيسي في جريمة قتل زوجته.

بعد مرور عامٍ على الواقعة، مَثَل عازف البيانو المعروف عالميًّا أمام قاضية التحقيق عند نهاية اعتقاله، السبت 25 مايو/أيّار، ووُجّهت إليه تهمة «القتل العمد لزوجته». وقد أُودع الحبس الاحتياطي في سجن غراس.

وبحسب محاميه مارك لوفوفر – الذي أبدى استغرابه من عدم استدعائه لحضوره جلسات الحجز – لا يزال أدريان ديلوناي ينفي أيّ تورّطٍ له في مقتل زوجته، مؤكّدًا: «هذا الإيداع في السجن عبثي، لا أساس له من الصحّة، ونرفضه بأشدّ العبارات».

(المزيد من التفاصيل لاحقًا...)

خاتمة (أو خاتمات)

خيط أريادني

معادلة ديراك

خريف 2024

نيس

عندما وصلت جوستين تاياندييه إلى مركز الشرطة يوم الثلاثاء 8 أكتوبر/تشرين الأول، وجدت بيرغومي جالسًا قبل الوقت المتوقّع خلف جهاز الكمبيوتر، وقد ارتسمت أمارات الإثارة على وجهه.

– وصَلنا إنذار! تعالي وانظري! صرخ عندما رآها.

في البداية، لم تفهم جوستين عمّا تحدّث عنه مساعدها. دنت من المكتب وانحنت نحو الشاشة. كان بيرغومي متّصلًا بموقع لبيع وشراء الساعات الفاخرة المستعملة. كانت المنصّة تصبّ تركيزها على إعلانات من أكثر من مئة دولة من الأفراد وصانعي الساعات المحترفين. وكانت الشرطة القضائيّة في نيس قد وضعت تنبيهًا بشأن ساعة أوريانا دي بييترو المسروقة قبل ثمانية عشر شهرًا، من دون تعليق آمالٍ كبيرة على ذلك.

– هل نحن متأكّدون من تطابق المعايير؟ سألت جوستين.

– واثقون، جزم بيرغومي.

كانت ساعة أوريانا من طراز نوتيلوس من علامة باتيك فيليب، بلون الذهب الوردي وبقطر 35 ملم وإطارٍ مثمّن الشكل مرصّع بالماس. للوهلة الأولى، بدا النموذج شائعًا إلى حدٍّ ما، غير أنّ هذه التحفة بالذات حملت علامة إضافيّةً أخرى جعلتها نادرةً وقيّمة: شعار «تيفاني أند كو» صغير منقوش على الميناء الفضّي. وهذا التوقيع يشهد على أنّ الساعة قد بيعت في الأصل في أحد متاجر المجوهرات المرموقة في نيويورك، فاقتصر إنتاجها على عددٍ محدودٍ من القطع.

– وانظري إلى ما هو أكثر أهميّة، قال بيرغومي وهو ينقر على الجزء السفلي من الشاشة. أروع من أن يُصدّق، أليس كذلك؟

كان الشرطي يشير إلى تعقّب الساعة. في غضون ثمانية عشر شهرًا، طُرح نموذجان مماثلان للبيع في كلٍّ من هونغ كونغ ودبي، الأمر الذي عاق أيّ عمليّة ترصّد. أمّا هنا، فقد اختلف الأمر. فقد عرض هذه القطعةَ متجرٌ باريسي في الدائرة الثامنة.

– حسنًا، لن نستبق الأحداث ونبتهج، قالت جوستين، لكنّ الأمر يستحقّ القيام برحلةٍ إلى باريس.

* * *

استقلّت الطائرة في وقتٍ متأخّرٍ من الصباح ووصلت إلى باريس وقت الغداء، برفقة مهندسٍ من الشرطة الفنّية والعلميّة. فتحت باب متجر Temps retrouvé، وهو متجرٌ أنيق يقع في شارع ماربوف على بعد مرمى حجرٍ من الشانزليزيه. كان الساعاتي بانتظارها جالسًا خلف مكتبٍ صغيرٍ من خشب الجوز يخدم كمنضدة. كانت قد تحدّثت معه طويلًا عبر الهاتف قبل ساعتين لشرح الوضع. مرتديًا سترةً ضيّقة وصدريّة بنقشة بيزلي، كرّر لها الرجل أنّ الساعة كانت في حوزته

بالفعل. قبل ثلاثة أيّام، تركها له عميل، لم يسبق أن رآه من قبل. عُرضت الساعة بسعر 220 ألف يورو، لكنّ بائع الساعات وضع هامش تفاوضٍ يصل إلى 180 ألف يورو.

لسوء الحظ، خضعت الساعة لتنظيف كامل قبل طرحها للبيع، فاستحال رفع أيّ بصمات. في المقابل، ترك الرجل أيضًا عبوة. لم تكن العلبة الأصليّة، بل عبارة عن صندوق بديل من الخشب المطليّ مع وسادةٍ مخمليّة لتخزين الساعة.

مسح التقني القطعة وهرع إلى المختبر.

* * *

كانت نبضات قلبها تسابقها، وهي تجلس بانتظار النتائج وتشرب الشاي الأخضر أمام مطعم سوشي دوّار في الجهة المقابلة للشارع.

منذ أربعة أشهر، لم تتوقّف جوستين عن التفكير في أدريان ديلوناي. كان عازف البيانو محتجزًا في الحبس الاحتياطي في غراس. طلب محاموه مرّتين إطلاق سراحه، ومرّتين رُفض طلبهم.

ولم تقنع جلسة الاستماع للبروفيسور شابوِي القاضيتَين المسؤولتَين عن التحقيق اللتين وقّعتا، في الأسبوع السابق، على أمر إنهاء التحقيق في مقتل أوريانا.

مهّد إغلاق التحقيقات الطريق أمام المحاكمة. مستندًا، كما كان دائمًا، على حجّة فراغ الملفّ، قرّر محامي أدريان – من باب الشكليّات – الطعن في هذا القرار، ولكن، فعليًّا، لم يعد من سببٍ مقنعٍ للحؤول دون مثول موكّله أمام المحكمة.

إلّا إذا...

* * *

ظهرت النتائج على شاشة هاتفها بعد الساعة الثالثة بعد الظهر بقليل. تطابقت إحدى البصمات الموجودة على علبة الساعة مع بصمة رقميّة رُفعت من يخت أوريانا. لم يكن الشخص مسجّلًا في أيّ مكان، غير أنّ بيان الهويّة البنكيّة الذي قدّمه الساعاتي أسهم في تتبّع أحدٍ باسم ماتياس فيسلر يقيم في كومبري سانت-مارين في فينيستير. قُبض على الرجل في وقتٍ متأخّرٍ من النهار من قبل فرقة البحث والتدخّل في نانت ونُقل إلى نيس في المساء.

بقي المشتبه فيه لائذًا بالصمت في الساعات الأولى من احتجازه إلى أن اكتُشفت هويّته الحقيقيّة. هو بيرند شولزر، مقاتلٌ مسلّح سابق في الألوية الحمراء الجديدة، ومطلوبٌ للشرطة الإيطاليّة منذ عام 2004.

أسفر تفتيش منزله عن العثور على مبلغٍ كبيرٍ من النقود بالإضافة إلى حقيبة بيرلوتي الخاصّة بأوريانا. وأظهرت ملفّات مراقبة الفيديو التي قدّمتها شرطة الحدود شولزر في مطار نيس وهو ينزل من رحلةٍ جوّية من بريست في 5 مايو/أيّار 2023، وهو اليوم الذي تعرّضت فيه أوريانا دي بييترو للاعتداء.

وعندما اكتشف الألماني الصور وتراكم الأدلّة، غيّر دفاعه واعترف بأنّه ضرب الوريثة بقضيبٍ حديدي على القارب، لكنّه ادّعى أنّه تلقّى المال منها مقابل القيام بذلك. وهي روايةٌ لم تقنع أحدًا.

* * *

احتُجز بيرند شولزر في مركز الحبس الاحتياطي في غراس يوم الخميس 10 أكتوبر/تشرين الأوّل.

* * *

أُطلق سراح أدريان ديلوناي في اليوم التالي.

أمضى عطلة نهاية الأسبوع مع طفليه.

القاتل المفترض لأوريانا دي بييترو ينتحر في زنزانته

www.nicematin.com – 02/11/2024

لن يُحاكم بيرند شولزر. فقد أقدم المشتبه فيه الرئيسي في قضيّة قتل أوريانا دي بييترو على الانتحار صباح الجمعة في زنزانته بمركز الحبس الاحتياطي في غراس.

وكان قد قُبض على العضو السابق في الألوية الحمراء الجديدة، الذي طلبت إيطاليا تسليمه، الشهر الماضي، بعد عامٍ من التحقيق المليء بالتقلّبات الذي أدّى إلى سجن زوج الضحيّة، أدريان ديلوناي، قبل تبرئته.

وفقًا لمصدر نقابي، وُجد شولزر معلّقًا بملاءة أثناء دوريّة السابعة صباحًا. بعدما توقّف قلبه وعجز عن التنفّس، أجرى له موظّفو السجن الإسعافات الأوّليّة لكنّهم فشلوا في إنعاشه ليعلن الفريق الطبّي وفاته.

وبوفاة المشتبه فيه الوحيد، يُغلق ملفّ كلّ دعوى عامّة، ولن تُعقد أيّ محاكمةٍ في هذه القضيّة التي لا تزال تحمل في طيّاتها بعض النقاط الغامضة.

وفُتح تحقيقٌ إداري في الحادث، وكانت تلك فرصة لنقابة أوفاب-أونسا للتذكير بأنّ فرنسا تسجّل أعلى معدّل انتحارٍ بين السجناء في أوروبا.

ستيفان بيانيلي

الدوبلير[1]

«النهاية السعيدة رهن اللحظة التي تتوقّف فيها القصة».

أورسون ويلز

18 ديسمبر / كانون الأوّل 2024
مركز الشرطة في نيس

أنهت جوستين قهوتها وألقت الكوب الورقي في سلّة المهملات. لم يكن مكتبها مرتّبًا هكذا من قبل. طبيعي، فهو خالٍ الآن. نظرةٌ أخيرة إلى الغرفة. هل من ندم؟

لا. لقد أرسلت قبل شهرين إلى بويغرونييه خطاب استقالتها الذي دخل حيّز التنفيذ هذا المساء. وكانت خطوة نجاة. فبعد التفكير الطويل، توصّلت إلى أنّ مكانها لم يعد في الشرطة. تمامًا مثل التعليم الوطني، كان الأمن العامّ على وشك الانهيار، مشلولًا ولا أمل في إصلاحه. حتّى إنّه أحبط بأدائه أكثر الموظّفين تحفّزًا.

[1] الممثّل البديل أو الدوبلير هو الشخص الذي ينوب عن الممثّل أو البطل في القيام بالمشاهد الخطرة.

استقلّت المصعد إلى غرفة الأدلّة الجنائيّة الواقعة في الطبقة السفليّة من مركز الشرطة حيث استعادت ساعة أوريانا دي بييترو. آخر مهمّةٍ لها كشرطيّةٍ هي إعادة الساعة إلى زوج الضحيّة. وكانت قد وجدت أثر أدريان في كورتينا دامبيدزو حيث كان يقضي العطلة مع طفليه.

شارع لوتيل-دي-بوست. كان الطقس جافًّا، والسماء زرقاء، وطيور النورس تحلّق تحت شمس الشتاء. وضعت جوستين نظّارتها الملوّنة، وركبت السيّارة التي أعارها إيّاها بيرغومي، متوجّهةً إلى إيطاليا.

لقد طوت صفحة زوجها السابق والطبيبة الجرّاحة. أصبحا من الماضي البعيد. في صباح أحد الأيّام، استيقظت وبدا لها المشهد بأكمله سخيفًا. تلاشت كراهيّتها. لقد عانت بما فيه الكفاية. وشُفيت الآن.

وصلت إلى ميلانو عند الظهر تقريبًا، وتوقّفت عند مطعمٍ حجزت فيه طاولة، استفزازًا، تحت اسم مدام ديلوناي. ولتأكيد الهويّة، أخرجت ساعة باتيك ولفّتها على معصمها.

ثمّ واصلت طريقها نحو منتجع التزلّج. كانت تقود السيّارة بسرعة، طليقةً، صافية الذهن، يسكنها إحساسٌ حقيقي بالحرّية.

عند الساعة الثالثة من بعد الظهر كانت في بيرغامو، وبعد ساعةٍ في فيرونا، ثمّ بادوفا، والبندقيّة، وتريفيزو حيث غادرت الطريق السريع. توقّفت في نقطة توسّع جانبيّة من الطريق، بعد مسافةٍ قصيرة من بيلونو، حيث بدأت المنعطفات تزداد ضيقًا وصعوبةً. هناك، على جنب الطريق، أقيم نصبٌ تذكاري صغير على شكل صليب حجريّ ورديّ اللون شُيّد على مستوى الأرض تخليدًا لذكرى والدة أوريانا. كان كارلو هو من ركّب هذا المجسّم وكتب عليه بنفسه هذه العبارة:

«إلى زوجتي الحبيبة، آنا ماريا، التي تُوفّيت هنا في حادث سيرٍ في الأوّل من فبراير عام 1991. سوف نفتقدكِ إلى الأبد».

وقفت جوستين لحظة صمت، مسترجعةً كلّ المآسي التي نتجت عن ذاك اليوم المظلم، قبل خمسةٍ وثلاثين عامًا تقريبًا.

* * *

– المهمّ أن لا تفتحي القفص، أتفهمين يا حبيبتي؟

– نعم، يا أمّي.

* * *

تخيّلت جوستين المشهد: سيّارة المازيراتي وهي تصطدم بالجدار المنخفض قبل أن تنقلب وتتحطّم في المنحدر. تصوّرت الشقلبات، والصفائح المعدنيّة التي تهرسها الصخور، والجثّة المحترقة. الجحيم على الأرض.

بعض الأحداث، أشبه بالتيّارات الأرضيّة الخفيّة، تترك آثارًا لا تنتهي على مسار الحياة. حياتنا هشّة، وخارجةٌ عن السيطرة، ودائمًا تحت رحمة الأسوأ. نحن مجرّد أعوادٍ من القشّ تطفو على سطح الماء.

مواءٌ حادّ جعلها تستدير. كانت قطّةٌ تلعب الغمّيضة خلف النصب التذكاري. لم يسبق لجوستين أن رأت كائنًا مماثلًا من قبل: جسدٌ مستدير، وفروٌ أشقر كثيف، ووجهٌ مكتنز كالدمية. خطت خطوة نحوها. بالكاد رمشت عيناها حتّى اختفى الحيوان كما لو لم يكن موجودًا أصلًا.

* * *

استكملت طريقها، صعودًا وسط الجبال. كانت آخر خيوط الشمس تتراقص على المنحدرات الشاهقة لقمم الدولوميت. وفي مواجهة سماءٍ بلون الباستيل، كانت الصخور الكلسيّة تتلوّن بالوردي، في استعراضٍ أخيرٍ بهيّ قبل أن تبتلعها الظلال.

* * *

وصلت جوستين إلى كورتينا دامبيدزو مع حلول المساء. كان الطقس قد انقلب جذريًّا قبل نصف ساعة من بلوغها منتجع التزلّج، وبدأت رقاقات الثلج المتساقطة تثقل أكثر فأكثر، متراكمةً على زجاج سيّارتها الأمامي. شعرت بقلقٍ منذ الآن من رحلة العودة. لم تبق طويلًا في وسط المدينة واتّجهت نحو الشاليهات. في ظلّ التشوّش الحاصل في نظام الجي بي أس، استدلّت من اثنين من موظّفي البلديّة كانا منهمكين برشّ الملح على الطريق.

كان شاليه دي بييترو الشاليه الأخير قبل الغابة. بناءٌ تقليدي مكوّن من طابقين مع سقف مائل يحاكي القصص الخياليّة.

أوقفت جوستين السيارة من دون أن تطفئ المحرّك. أعادت الساعة إلى علبتها وتساءلت للحظة عمّا كانت تفعله هنا. أخذت نفسًا عميقًا لتشجيع نفسها، ثم ترجّلت من السيارة. نفحتها زوبعةٌ هوائيّة جليديّة فيما علقت رقاقات الثلج الثقيلة على شعرها. تقدّمت نحو النوافذ التي لاحت من خلفها أضواءٌ وتحرّكات.

من خلال الزجاج، رأت مدفأةً ومطبخًا مفتوحًا حيث كان أدريان منهمكًا في إعداد الطعام مع طفليه. تمازج الضحك والموسيقى. فجأةً، بدا لها وجودها هنا في غير محلّه. أحسّت أنّ هذا الفعل الأخير، الذي قصدت أن يكون رمزيًّا، سخيفٌ تمامًا. عادت أدراجها، مقاومةً رقاقات الثلج وصفعات الرياح.

– أتبحثين عن شيء؟

استدارت ورأت ديلوناي واقفًا على عتبة الشاليه.

نظرةٌ آسرة، شعرٌ مبعثر، قميص بولو أزرق داكن. وفيٌّ لأسلوبه الخاصّ. تعرّف إليها بدوره. فاستغرب من دون أن يُفاجأ.

– ماذا تفعلين هنا، أيّتها المحقّقة كولومبو؟ سألها عاقدًا جبهته.

– جئت لأعطيك ساعة زوجتك.

أمسك بالعلبة التي سلّمتها له وأجاب متشكّكًا:

– كان بإمكانكِ إرسالها بالبريد، أليس كذلك؟ الحقيقة هي أنّكِ لا تستطيعين العيش بدوني، صحيح؟

– لا تعتدّ بنفسك كثيرًا! قطعتُ مسافة خمسمئة ميل لرؤيتك. لم يمضِ على وصولي أكثر من عشرين ثانية وها قد بدأتَ تثير غضبي.

ظهرت صوفيا مع باولو عند المدخل. لجأت الطفلة الصغيرة إلى حضن والدها فيما طلب أدريان من ابنه الاقتراب وقدّمها لهما.

هبّ هواءٌ ثلجيٌّ جمّدهم في مكانهم. فقال لها:

– حسنًا، لا يمكننا أن نبقى هنا، سنمرض جميعنا بسببكِ.

تنحّى جانبًا للسماح لها بالدخول إلى الشاليه، ثمّ لفظ وهو يغلق الباب: «أتمنّى أن تكوني من محبّي اللازانيا».

ما بعد الحبّ

عكس المنبّه-الراديو الساعة على السقف. كانت الثانية صباحًا. فتحت جوستين عينيها. استولت عليها حماسةٌ شديدةٌ منعتها من النوم. نهضت من دون أن توقظ أدريان الذي كان نائمًا بجانبها. عاريةً، خطت بضع خطواتٍ في الظلام وبحثت عن بطّانيّةٍ كانت ملقاةً على ذراع كرسيٍّ كبيرٍ من القشّ.

التفّت ببطّانيّة التارتان ونزلت إلى الطبقة السفليّة، مع الحرص على ألّا تُصدر درجات السلّم صريرًا عاليًا تحت قدميها.

كان الجميع في المنزل نائمين. تسلّلت إلى المطبخ. أشعرها طعم السعادة بالعطش! أو ربّما بكلّ بساطة كان طبق اللازانيا الشهير الذي أعدّه أدريان ديلوناي مالحًا جدًّا. فتحت الثلّاجة، وأمسكت زجاجة مياه سفالبارذي، وسكبت لنفسها كوبًا كبيرًا. حملت الكوب في يدها، وراحت تجول في غرفة المعيشة. كانت النار تخمد في المدفأة، وديلوناي قد ترك بعض المصابيح مضاءً، فانتشرت إنارةٌ خافتة في المكان. كان الديكور الداخلي للشاليه يفيض بأجواءٍ ريفيّة دافئة. عوارض خشبيّةٌ ظاهرة، وجدرانٌ ملبّسة بالخشب، وسجّادٌ من

جلود الحيوانات، وأرائك كبيرةٌ من الجلد البنّي. هنا، يشعر المرء بالأمان، وكأنّه محميٌّ من كلّ شيء.

من خلال النافذة الزجاجيّة الكبيرة، راحت تتأمّل الجنّة البيضاء في الخارج. كانت الثلوج لا تزال تتساقط، تمحو جزءًا من المشهد، وتُغرق أشجار الصنوبر والجبال في الظلال. كانت ليلةً بلا قمر، لكنّ أضواء المحطّة البعيدة بثّت هالةً لؤلؤيّة ذات انعكاساتٍ زرقاء خافتة. أخذت جوستين رشفةً أخيرةً من الماء وعادت إلى المطبخ لتضع كوبها في المجلى. قبل أن تعود إلى السرير، بقيت للحظةٍ أمام المدفأة الكبيرة المحاطة بكومتَين من الحطب. طقطقت جمراتٌ متوهّجة تحت الرماد الذي لا يزال مشتعلًا. وبغياب حاجزٍ للنار، أرادت أن تعيد إلى مكانه جذعًا منشطرًا كان على وشك الانزلاق خارج الموقد. بحثت عن أداةٍ تساعدها، وحينئذٍ... رأته.

طقم المدفأة البرونزي المذهّب.

حامل أدوات مزخرفٌ تعلوه أربعة رؤوس تنّينٍ تحوي مجرفة، ومكنسةً صغيرة، وملقطًا و... هذا كلّ شيء. الشقّ الرابع – المخصّص للعصا التي تُذكى بها النار – كان فارغًا.

ابتلعت جوستين ريقها. شعرت بضيقٍ في صدرها وتجمّد الدم في عروقها. هل كانت مخطئةً طوال الوقت؟

سمعت صوت طقطقة.

استدارت.

كان أدريان عند أسفل الدرج ينظر إليها.

* * *

«هل هذا ما تبحثين عنه؟»، سأل مبتسمًا وهو يشير إلى السجّاد المحيط بالأريكة.

ضيّقت جوستين عينيها. رأت لعبتين قرب المقعد العثماني الكبير. حصانان خشبيّان برأسَين مصنوعَين من جوارب محشوّة، وأزرار نحاسيّة، وقصاصات من القماش.

الأوّل مركّب على عصا مكنسة، وكان له عُرفٌ كثيف من خيوط الصوف، فبدا مثل مهرٍ من نوع شتلاند. أمّا الثاني فحُوّل بلفّة مناديل ورقيّة إلى وحيد قرنٍ يرتدي وشاحًا عند عنقه. لكنّ العصا التي كان يمتطيها... كانت العصا المصنوعة من البرونز المذهّب.

المراجع

Milan Kundera, *L'insoutenable légèreté de l'être*, Gallimard, 1984 ; Paul Valéry, *Mauvaises Pensées et autres*, Gallimard, 1942 ; Friedrich Nietzsche, « Vérité et mensonge au sens extra-moral », in *OEuvres philosophiques complètes*, Gallimard, 1968-1997 ; Patricia Highsmith, *Ripley entre deux eaux*, Calmann-Lévy, 1993 ; Jean-Paul Sartre, *Critique de la raison dialectique*, Gallimard, 1960 ; Jacques Lacan, « Conférence au Massachusetts Institute of Technology le 2 décembre 1975 », parue dans *Scilicet*, nos 6-7, 1975, pp. 53-63 ; Marcel Proust, *Le Côté de Guermantes*, Gallimard, 1920-1921 ; *Rashomon*, film d'Akira Kurosawa, 1950 ; p. 99 : *À bout de souffle*, film de Jean-Luc Godard, 1960 ; *Una storia importante*, Eros Ramazzotti, 1985 ; Nathan Fawles in *La Vie Secrète des écrivains*, Calmann-Lévy, 2019 ; Nina Berberova, *L'Accompagnatrice*, Actes Sud, 1985 ; Junichorô Tanizaki ; Paul Éluard citant Ignaz-Vitalis Troxler, *Regards sur la nature de l'homme*, 1814 ; *Garde à vue*, film de Claude Miller, 1981 ; John Updike, *Les Larmes de mon père*, Le Seuil, 2011 ; Francesco Alberoni, *Le Choc amoureux*, Ramsay, 1985 ; Paul Auster, *Moon Palace*, Actes Sud, 1990 ; Alfred Adler ; Emil Cioran, Carnets 1957-1972, Gallimard, 1997 ; Pierre Lemaitre, *Le Serpent majuscule*, Albin Michel, 2021 ; Albert Camus, *Le Mythe de Sisyphe*, Gallimard, 1942 ; Marcel Proust, à Antoine Bibesco ; Ayn Rand, *The Virtues of Selfishness*, Signet, 1964 ; Paul Watzlawick, *La Réalité de la réalité*, Le Seuil, 1984 ; Aruki Murakami, *Kafka sur le rivage*, Belfond, 2006 ; att. à Jack Kerouac Jean de La Fontaine, « L'Ours et l'Amateur des jardins », *Fables de La Fontaine*, Gallimard, coll. « Bibliothèque de la Pléiade », 1991.

مؤلّفات وكتّاب آخرون ورد ذكرهم

Serge Karamazov : *La Cité de la peur*, film des Nuls, Alain Berbérian, 1994 ; *La Femme d'à côté*, film de François Truffaut, 198 ; *Zorro*, série américaine diffusée en France à partir de 1965, réalisée par Johnston McCulley et produite par Walt Disney ; *Une journée particulière*, film d'Ettore Scola, 1977 ; *La Chanson des vieux amants*, Jacques Brel, 1967. *Dialogues avec Soljenitsyne*, film d'Alexandre Sokourov, 1998 ; Margaret Mitchell, *Autant en emporte le vent*, 1936 ; Friedrich Nietzsche, *Le Gai Savoir*, 1882 ; Astor Piazzolla, *Libertango* ; *Les affinités électives*, Johann Wolfgang von Goethe,1809 ; « On se fatigue de tout, même d'être aimé », André Maurois, *Lettre à l'inconnue*, 1956 ; *Les Trois Mousquetaires : D'Artagnan*, film de Martin Bourboulon ; *L'italiano*, interprétée par Toto Cutugno, auteur Cristiano Minellono, 1983 ; théorie citée par Hélène Grémillon dans *La Garçonnière*, Flammarion, 2013 ; *Le Comte de Monte-Cristo*, Alexandre Dumas, 1846 ; *Le Meurtrier*, Patricia Highsmith, 1954 ; Francis Cabrel, *Je te suivrai*, 1985 ; *L'Étrange Cas du docteur Jekyll et de M. Hyde*, Robert Louis Stevenson, 1886 ; Psychose, film d'Alfred Hitchcock, 1960 ; *Le Dernier Métro*, film de François Truffaut, 1980 ; équation de Dirac popularisée (et fautive) ; *Le Temps retrouvé*, Marcel Proust, 1927 ; *Body Double*, film de Brian de Palma, 1984.

وأيضًا:

Claude Debussy, Franz Schubert, Jean-Sébastien Bach, Bill Evans, Keith Jarrett, Enrico Rava, Samson François, U2, R.E.M., Radiohead, ZZ Top, Rod Stewart, ABBA, Moby, les Beatles, Joseph L. Mankiewicz, Pierre Soulages, Mark Rothko, Robert Ryman, Francis Ford Coppola, les Experts, la Nouvelle Vague, Frankenstein, Lautréamont, Pierre Loti, Raymond Carver, le Tractatus logico-philosophicus, le lieutenant Columbo...

حقوق النشر ومصادر:

رسم المتاهة: Lara Govorit/ Shutterstock ©

رسم الوجه في المتاهة: Christos Georghiou / Adobe Stock ©

صورة البيانو: Kazushi_ Inagaki / Istock ©

الرسوم التوضيحيّة الأخرى: جميع الحقوق محفوظة.

مصدر الخريطة: https://infocapagde.com

وكما هي الحال دائمًا، يبقى على القارئ الراغب أن يفكّك الخيوط ويميّز بين الحقيقة والخيال. بعض التلميحات: فندق مونتي كريستو في لوغانو ليس أكثر واقعيّةً من بقرات سويسرا البنفسجيّة، والمركز الدولي في فالبون لا يستقبل أطفال المرحلة الابتدائيّة، ولا توجد حسب علمي أيّ فيلا تُدعى أنابيل تطلّ على كاب دانتيب...

المحتويات

الجزء الأوّل: العابرة

1. ما نهرب منه.......... 9
2. ما نعرفه.......... 13
3. ما نعثر عليه.......... 29

الجزء الثاني: الملاك الساقط من عليائه

4. جوستين تاياندييه: ما نبحث عنه.......... 39
5. أوريانا دي بييترو: ما يقتلنا.......... 55
6. أديل كيلر: ما نكتشفه.......... 65
7. جوستين تاياندييه: ما نسكت عنه.......... 77
8. أوريانا دي بييترو: ما نسعى إليه.......... 93
الصندوق.......... 106
9. أديل كيلر: ما يبهرنا.......... 107
10. جوستين تاياندييه: ما نخفيه.......... 115
11. أديل كيلر: ما ينوّرنا.......... 133

الجزء الثالث: مفارقة العاشقة

12. جوستين تاياندييه: خلافة كارلو دي بييترو.......... 143
13. جوستين تاياندييه: لدغات الحقيقة.......... 161
14. جوستين تاياندييه: فتاتان في متاهة.......... 177
15. أوريانا دي بييترو: قوانين الجاذبيّة.......... 191
16. أديل كيلر: الذئب في الحظيرة.......... 199
17. جوستين تاياندييه: كلمات أوريانا دي بييترو الأخيرة.......... 207
18. أديل كيلر: حالة الطوارئ.......... 221
19. جوستين تاياندييه: فريسة حقائقها.......... 227
20. أوريانا دي بييترو: انتقام الواقع.......... 239

الجزء الرابع: الأُخرى

21. جوستين تاياندييه: حيث بدأ كلّ شيء.......... 247
22. جوستين تاياندييه: الفرص الضائعة.......... 257
23. جوستين تاياندييه: في فوضى.......... 271
24. جوستين تاياندييه: السجينة.......... 281

خاتمة (أو خاتمات)

خيط أريادني.......... 299
الدوبلير.......... 307
ما بعد الحبّ.......... 313

المراجع.......... 317

فتاة المتاهة — استلقت أوريانا على سطح قارب «لونا بلو» متلذّذة بأشعّة الشمس. بعد أشهرٍ طويلةٍ من فقدان الأمل والشعور باقتراب النهاية، عادت الأمور أخيرًا تصبّ لصالحها، وتعدها بغدٍ أجمل.

لكن بدلًا من الاسترخاء، شعرت بقلقٍ يستشري في داخلها. تهديدٌ غير مرئيٍّ جعلها تندم على عدم إحضار حارسٍ شخصيٍّ معها. وفعلًا، ما هي إلّا دقائق حتى حجبت كتلة سوداء عنها الشمس. ما إن تعرّفت أوريانا إلى مهاجمها حتّى أدركت أن لا جدوى من المقاومة. أصابتها الضربة الأولى على رأسها ثمّ سقطت الثانية على رقبتها من دون منحها فرصةً للصراخ.

بعد بضعة أيّامٍ، توفيت الوريثة الإيطاليّة الشهيرة متأثّرةً بجراحها.

من الذي قتل أوريانا دي بييترو؟ هل يكون زوجها أدريان، عازف البيانو الغامض والجذّاب؟ هل هي أديل، صديقتها أوّلًا، وعدوّتها لاحقًا؟

تحاول جوستين، المحقّقة التي ينتظر الجميع فشلها في حلّ القضيّة، أن تهتدي للقاتل في ظلّ سرديّات متقاطعة حينًا، متناقضة أحيانًا، ومشوّقة دائمًا.

««كالعادة، يكسر ميسو التوقّعات ويفاجئ القارئ باستمرار. هذه رواية إثارة نفسيّة خالصة، تنبض في طيّاتها نبرته العاطفيّة المرهفة».

— مجلّة «لوبوار»

© Emanuele Scorcelletti

غيوم ميسو — هو الروائي الفرنسي الأكثر قراءةً في فرنسا منذ ما يزيد عن عشر سنوات. وُلد في العام 1974 في أنتيب، وبدأ التأليف خلال سنوات دراسته ولم يتوقّف منذ ذلك الحين. في العام 2004، ظهر كتابه «Et Après» الذي كان سبب لقائه بالجمهور، تبعته كتب ترجمت نوفل منها «الصبيّة والليل» (2019)، «حياة الكاتب السريّة» (2020)، «الحياة رواية» (2021)، «مجهولة نهر السين» (2022)، و«أنجيليك» (2023). تُرجمت كتبه إلى أربع وأربعين لغة وبعضها حُوّل إلى أفلام، كما لاقت نجاحًا كبيرًا في فرنسا وسائر أرجاء العالم.

ISBN 978-614-06-0380-6

9 786140 603806

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان

مكتبة

t.me/soramnqraa